دكتور محمود حمدي زقزوق
عميد كلية اصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

الإسلام في تصورات الغرب

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعــــة الأولى

١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر : ٣ حيضان الموصلي
بجوار جامع الرعاة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعد هذا الكتاب ـ الذى يسعدنى اليوم ان اتقدم به الى القارىء الكريم ـ الكتاب الثالث فى السلسلة التى بدأت اصدارها فى عام ١٩٧٩ فى موضوع « الاسلام فى الفكر الغربى » . ففى ذلك العام صدر أول كتاب فى هذه السلسلة يحمل عنوان « الاسلام فى الفكر الغربى »(١) . وقد عرضت فيه صورتين مختلفتين للاسلام فى الغرب : أولاهما هى صورة الاسلام فى نظر المستشرقين من واقع نماذج من كتابات اثنين من المستشرقين المعاصرين مع مناقشة الآراء التى تضمنتها هذه الكتابات . اما الصورة الثانية فهى صورة الاسلام فى تصور كاتب أوروبى اعتنق الاسلام وارتضاه لنفسه دينا .

وفى عام ١٩٨٣ (١٤٠٤ هـ) قدمت للقارىء الكتاب الثانى بعنوان « الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى » وقد تولت نشره رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر فى سلسلة « كتاب الأمة »(٢) .

واليوم اقدم الكتاب الثالث بعنوان «الاسلام فى تصورات الغرب»(٣). وهذه الكتب الثلاثة تعالج مشكلة الاستشراق والدراسات الاسلاميةفىالغرب، واثر ذلك فى صياغة التصورات الغربية عن الاسلام .

---

(١) صدرت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٩٨٦ عن دار القلم بالكويت .

(٢) صدرت منه حتى الآن ثلاث طبعات فى قطر ، ثم قامت مؤسسة الرسالة فى بيروت بطبعه باذن من رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر . وقد ترجم الكتاب فور صدوره الى اللغة الاندونيسية .

(٣) سيكون الكتاب الرابع باذن الله بعنوان « الاسلام فى تصور ادباء وفلاسفة الغرب » .

وقد أردت بهذه السلسلة أن يطلع القارىء المسلم على ابعاد هـذه القضية القديمة الجديدة ، وما لها من تأثيرات ايجابية أو سلبية فى صياغة الفكر الغربى فيما يتعلق بالاسلام ، وما لها ايضا من ردود فعل فى الفكر الاسلامى فى العصر الحديث ·

فالصورة السائدة عن الاسلام اليوم فى الغرب ليست مجرد صورة وقتية عارضة ، ولا هى بنت اليوم ، وانما هى صورة صاغتها قرون طويلة من الصراع الحضارى بين الاسلام والغرب · ومن الضرورى أن يتعرف القارىء المسلم على جذور هذه الصورة فى الفكر الغربى وعلى تطـور التصورات الغربية عن الاسلام على مدى قرون عديدة · ونأمل أن يتحقق بعملنا هذا ـ وما سوف يتبعه ان شاء الله من اعمال أخرى فى هذا الموضوع ـ الوصول الى الأهداف التالية :

أولا : ان يكون المسلم المعاصر على بينة بما يجرى حوله ، وعلى وعى بما يكتب فى الغرب عن دينه وحضارته وتاريخه ، وعلى ادراك للأسباب البعيدة للمواقف الغربية عن الاسلام حتى لا يقف طويلا عنـد الظواهر السطحية العارضة التى لا تفصح عن الأسباب الحقيقية وراء ذلك ·

ثانيا : ان يحفز ذلك المسلم المعاصر الى العمل لاعداد نفسه على المستوى الفكرى اعدادا يستطيع به ان يكون قادرا على مواجهة كل التيارات الفكرية الآتية من الشرق أو الغرب حتى لا يتخلف عن الركب ويدع الفرصة للآخرين لاحتوائه فيظل أسيرا لعقدة التخلف ومركبات النقص التى يراد ترسيخها فى ذهنه ·

ثالثا : ان يدفع ذلك المؤسسات الاسلامية العلمية الى النهـوض بمسئولياتها تجاه الاسلام فى مواجهة الحركة الاستشراقية فى الغـرب ·

وقد سبق لنا أن عرضنا بعض المقترحات فى هذا الشأن فى الفصـل الثالث من كتابنا « الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى » ·

* * *

والأمر الغريب حقا أن يكون هناك فى أوروبا وأمريكا ما يربو على مائة معهد للاستشراق تقوم جميعها بدراسة عقيدتنا وحضارتنا وتاريخنـا كله ، ويتوفر لهذا العمل هناك كل الامكانات المادية والفكرية ، وفى الوقت نفسه لا يوجد فى العالم الاسلامى كله معهد واحد أو مركز

علمى يخصص جهده لدراسة الكم الهائل من المؤلفات والمجلات والدوريات والموسوعات التى تصدرها المؤسسة الاستشراقية فى الغرب عن الاسلام ، ونكتفى فقط بالصياح والاستنكار والشكوى من زيف ما يكتبه المستشرقون، ولكننا لا نقوم بعمل ايجابى حقيقى على المستوى العلمى لخدمة الاسلام .

ولا ينبغى أن يغيب عن الأذهان ان المفاهيم الخاطئة الشائعة عن الاسلام فى الغرب لا تقتصر على دوائر المتخصصين هناك ، بل تتردد فى الكتب المدرسية وفى وسائل الاعلام المختلفة ، وفى مجال اتخاذ القرارات الحيوية المتعلقة بالسياسة العالمية . وهذه المفاهيم الخاطئة لم ترد بمحض الصدفة وانما تعتمد على مراجع متخصصة كتبها اعلام المستشرقين الذين تحظى كتاباتهم عن الاسلام بثقة واحترام عظيمين فى الغرب(٤) .

* * *

وفى الصفحات التالية من كتابنا هذا يطالع القارىء الموضوعات التالية :

١ ـ الاستشراق من وجهة النظر الاسلامية . وهذا الموضوع هو نص محاضرة القيتها فى معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن فى المانيا الغربية فى ١٩٨٥/٧/١١ .

٢ ـ الاسلام فى الفكر الاستشراقى .

٣ ـ سيرة الرسول فى تصورات الغربيين (الحلقة الأولى) .

٤ ـ سيرة الرسول فى تصورات الغربيين (الحلقة الثانية) .

---

(٤) لقد أكد ذلك أيضا التقرير الذى تضمن نتائج أعمال ندوة الخبراء فى المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسسكو) حول تصحيح المعلومات والدراسات التى تكتب عن الاسلام فى الموسوعات والمراجع الكبرى . وقد عقدت هذه الندوة ـ التى شرفتنى باختيارى مقررا لها ـ فى مدينة يفرن بالمملكة المغربية فى شهر ديسمبر ١٩٨٥ .

وهذه الموضوعات الثلاثة الأخيرة هى عبارة عن فصـول مختارة من كتابات المستشرق الألمانى جوستاف بفانموللر قمت بترجمتها والتقديم لها والتعليق على ما جاء فيها من آراء ٠ وقد سبق نشر بعضها فى حولية كليـة الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة قطر ، وحولية مركز بحوث الســنة والسيرة بجامعة قطر ايضا ٠

ونعيد اليوم نشرها دون تغيير أو تعديل تعميما للفائدة ٠

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠

مدينة نصر فى شعبان ١٤٠٧ هـ
ابريل ١٩٨٧ م

دكتور محمود حمدى رقزوق

* * *

الفصل الأول

الاستشراق من وجهة النظر الإسلامية

● **آثار بعيدة للاستشراق (١) :**

ليس هناك شك فى ان الاستشراق له اثر كبير فى العالم الغربى وفى العالم الاسلامى على السواء ، وان اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين. ففى العالم الغربى لم يعد فى وسع احد يريد ان يكتب عن الشرق او يفكر فيه أو يمارس فعلا مرتبطا به ان يتجاهل الثروة العلمية الهائلة التى انتجها الاستشراق فى السابق أو اللاحق . وفى العالم العربى الاسلامى المعاصر لا يكاد المرء يجد مجلة او صحيفة او كتابا الا وفيها ذكر او اشارة الى شىء عن الاستشراق أو يمت اليه بصلة قريبة او بعيدة .

وهذا أمر ليس بمستغرب ، ذلك أن الاستشراق كان ولا يزال له اكبر الأثر فى صياغة التصورات الغربية عن الاسلام وفى تشكيل مواقف الغرب ازاء الاسلام على مدى قرون عديدة .

***

● **ردود الفعل فى العالم الاسلامى :**

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء فى العالم العربى الاسلامى ، فهناك من يؤيده ويتحمس له الى أبعد الحدود ، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا (٢) .

---

(١) نص محاضرة القيت فى معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن بألمانيا الغربية فى ١٩٨٥/٧/١١

(٢) انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٣ وما بعدها .

وكمثال قريب لهذا الفريق الأخير أذكر أننى القيت محاضرة بعنوان « الاسلام والاستشراق »(٣) منذ بضع سنوات فى احدى الدول العربية ، وقد جاء فى حديثى ثناء على ما بذله المستشرقون من جهود لحفظ المخطوطات العربية التى جلبت الى أوروبا ، وتسهيل الاستفادة منها وفهرستها فهرسة دقيقة ، وذكرت أن ذلك يعد من الجوانب الايجابية التى تذكر للمستشرقين · ولكن محاضرا آخر القى بعد ذلك ببضعة اشهر فى نفس المكان محاضرة عن التراث العربى الاسلامى ، وفى حديثه عن المخطوطات العربية التى جلبت الى اوروبا ذكر انه كان يتمنى أن تحرق هذه المخطوطات ولا تقع فى ايدى المستشرقين لأنهم قد استخدموها ضد العرب والمسلمين ·

والواقع أن كلا من هذين الاتجاهين : المتحمس للاستشراق بلا حدود ، والرافض له بلا حدود غير منصف فيما ذهب اليه · فكل منهما يمثل تيارا غير علمى وغير نقدى ·

فالاستشراق من ناحية غير معصوم من الخطأ ، كما انه من ناحية أخرى ليس كله شرا بالنسبة للاسلام والمسلمين ·

فالاتجاه الأول مبهور بالحضارة الغربية والتقدم العلمى والتكنولوجى فى الغرب وبالتالى فان كل ما يأتى من الغرب لا بد أن يكون ــ من وجهة نظر هذا الاتجاه ــ سليما وعلميا وموضوعيا ·

أما الاتجاه الثانى فهو اتجاه رافض للحضارة الغربية وان كان يأخذ بأسباب التقدم العلمى · ورفضه للاستشراق مبنى على أسباب عديدة ، من بينها الظروف التى ادت الى نشأة الاستشراق وارتباط اهدافه فى مراحل معينة بالتبشير ومواقفه العدائية ضد الاسلام منذ العصر الوسيط ، وكذلك ظروف الصدامات العسكرية التى حدثت بين الغرب والشرق الاسلامى على مدى قرون عديدة ، واخيرا فى العصر الحديث ما كان من ظروف الاستعمار الغربى للبلاد الاسلامية واذلاله لشعوبها وتحقيره لدينها وحضارتها ، وما صحب ذلك من نظرة الاستعلاء الغربية فى علاقة الغرب بتلك الشعوب المغلوبة على امرها · وقد لعب بعض المستشرقين ادوارا هامة ساعدت الاستعمار الغربى ، وساعدت على ترسيخ نظرة الاستعلاء الغربية ازاء

---

(٣) قامت مكتبة وهبة بنشرها عام ١٩٨٤

الاسلام والمسلمين . وقد سخروا معلوماتهم عن الاسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الاسلام والمسلمين . وهذا واقع مؤلم يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة(٤) .

وهكذا يستطيع المرء أن يفهم الأسباب التى أدت الى وجود تيار قوى فى العالم العربى الاسلامى يرفض الاستشراق رفضا تاما .

ولعله من الأمور المسلم بها الآن لدى المستشرقين ان صورة الاسلام فى الغرب كانت بالفعل صورة قاتمة ومطبوعة بطابع سلبى منذ العصر الوسيط ، وأنها كانت أبعد ما تكون عن أن تكون صورة موضوعية للاسلام . وقد بدات البحوث الاستشراقية منذ فترة فى محاولة التخلص من قيود هذه الصورة التى خلفها العصر الوسيط . ولا نستطيع من وجهة نظر اسلامية ان نقول ان الاستشراق قد تخلص نهائيا فى دراسته للاسلام على وجه الخصوص من كل هذه القيود ، وان كانت المحاولات مستمرة والحمد لله .

* * *

● **التيار النقدى :**

وحيث ان كلا من الاتجاهين المشار اليهما : الاتجاه المتحمس للاستشراق والاتجاه الرافض له غير منصف فيما ذهب اليه ، فانه كان لا بد من ظهور تيار ثالث يحاول ان يكون لنفسه رؤية موضوعية عن الاستشراق واهدافه واعماله ومنشوراته العلمية ، ويحاول جاهدا أن ينقد ما يراه سلبيا من وجهة النظر الاسلامية ، ولا ينسى فى الوقت نفسه أن يذكر الايجابيات التى تذكر للاستشراق فى المجالات العلمية المتعلقة بالدراسات العربية والاسلامية .

وهذا الاتجاه الثالث هو فى حقيقة الأمر الاتجاه الذى يمكن أن نسميه اتجاها اسلاميا حقيقيا ، لأنه هو الذى يتفق مع ما يطلبه الاسلام فى مثل هذه الأحوال انطلاقا من قول القرآن الكريم **« ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »**(٥) .

---

(٤) انظر كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٠

(٥) المائدة : ٨

وفى هذا الاطار نود من وجهة نظر اسلامية أن ننظر الى الاستشراق فى محاولة لبيـــان وجهة النظر هذه التى لا ينبغى ان يتجاهلها الاستشراق أو يمر عليها مر الكرام ، بل ينبغى ان تكون دافعا لحـــوار بنـــاء بين المستشرقين المعتدلين من جانب ، وأصحاب هذا الاتجاه النقدى من جانب آخر . فعن هذا الطريق فقط يمكن أن يكون هناك سبيل الى الفهم المتبادل والتعاون العلمى المشترك فى عالم اليوم الذى تتشابك فيه المصالح وتتعدد فيه مجالات الاهتمامات المشتركة ، بهدف الوصول الى ما فيه خير الجانبين الغربى والاسلامى . ولكى يتم ذلك فانه لا بد من تحقيق شرط ضرورى فى هذا الصدد ، وهو التحرر التام من كل الأحكام المسبقة والعقد القديمة والحديثة على كلا الجانبين .

* * *

● تقييم موضوعى :

والآن ما هى وجهة نظر هذا التيار الاسلامى فى نقده وتقييمـــه للاستشراق ؟

يفرق هذا الاتجاه ابتداء بين فئات المستشرقين ، فلا يصدر تعميما خاطئا ، بل يعترف بأن هناك مستشرقين موضوعيين يتسمون بالنزاهة فى الحكم والحيدة فى البحث ، ومستشرقين آخرين لا تتسم اعمالهم بـأى شكل من أشكال الموضوعية والحياد العلمى ، بل تصطبغ بأهداف اخـرى غير علمية . ويقدر هذا الاتجاه أيضا للمستشرقين بصفة عامة ما يبذلونـه من جهود مضنية وصبر عجيب فى البحث والدرس ، واخلاص تام لخدمة اهدافهم واطلاع واسع واحاطة بالعديد من اللغات القديمة والحديثـة . وقد اشار الى شىء من ذلك ايضا الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان شيخا للأزهرفى نهاية النصف الأول من القرن الحالى .

* * *

● ايجابيات المستشرقين :

ويذكر هذا الاتجاه الاسلامى بالتقدير الجهود التى بذلها المستشرقون فى العناية بالمخطوطات العربية التى جلبت الى اوروبا وفهرستها فهرسة علمية نافعة ، وكذلك ما قدمه الاستشراق من دراسات حول الكثير من هذه

المخطوطات ، ونشره للعديد من امهات كتب التراث العربى الاسلامى بعد تحقيق مخطوطاتها تحقيقا علميا ، مما اتاح للباحثين فرصة كبيرة وادى للبحث العلمى خدمة جليلة ٠

ولم يقتصر المستشرقون على مجال التحقيق والنشر ، بل قاموا بترجمات شتى بلغات مختلفة للعديد من الكتب العربية الاسلامية ، وقاموا ايضا باصدار ترجمات للقرآن الكريم ، وان كانت للمسلمين بعض التحفظات على ما جاء فى مقدمات الكثير من هذه الترجمات والتعليقات التى صحبت هذه الترجمات ٠

وقد اضاف المستشرقون لذلك كله ما قدموه من دراسات عديدة فى جميع مجالات العلوم العربية والاسلامية ، فقد قدموا انتاجا غزيرا بلغ حسب بعض الاحصائيات ستين ألف كتاب منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين(٦) ٠

ومما يذكر للمستشرقين ايضا بالتقدير تلك المراجع الهامة التى أدت ولا زالت تؤدى خدمات جليلة للباحثين فى شتى مجالات العلوم العربية والاسلامية ، مثل كتاب بروكلمان « تاريخ الأدب العربى » ، ودائرة المعارف الاسلامية ، وان كان للمسلمين على هذه الدائرة بعض المآخذ ايضا ٠

وللاستشراق كذلك جهود مشكورة فى مجال المعاجم والقواميس اللغوية ٠ ونخص هنا بالذكر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف الذى اشرف على اخراجه فينسنك ، والذى تفيد منه الجامعات والمعاهد الاسلامية فى العالم الاسلامى والعربى ٠

كل هذه أمور ايجابية تذكر بالتقدير للمستشرقين ٠

* * *

● مآخذ على اعمال المستشرقين :

ولكن هناك فى الجانب الآخر ما يأخذه الجانب الاسلامى على أعمال المستشرقين ، وهى مآخذ تتركز اساسا فى الدراسات المتعلقة بالدين الاسلامى ٠

---

(٦) ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٢١٦ ترجمة كمال أبو ديب — مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ١٩٨١

والواقع أنه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون مع المسلمين فى الرأى حول الاسلام ، ذلك لأن منطلق تفكير المستشرقين بالنسبة للاسلام ونبيه يختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين ، ولهذا تختلف وجهات النظر بين الجانبين وستظل مختلفة ٠

ولا ينتظر الجانب الاسلامى ان يتبنى الاستشراق وجهات النظر الاسلامية ، ولا يطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما يعتقده المسلمون عندما يريد ان يكتب عن الاسلام ٠ ولكن هناك أمورا أولية بديهية يتطلبها المنهج العلمى السليم ٠ فعندما ارفض وجهة نظر معينة لا بد ان ابين للقارىء أولا وجهة النظر هذه من خلال فهم اصحابها لها ، ثم لى بعد ذلك ان اوافقها أو اخالفها ٠

ولكن هذا المنهج الطبيعى والمنطقى لا يلتزم به الا قليل من المستشرقين فى عرضهم للاسلام ٠ والذى يحدث فى أغلب الأحيان هو العكس من ذلك تماما ٠ وبذلك يتعرض القارىء نتيجة لذلك — ما لم يكن على علم — الى شىء من الايحاء برأى معين ، أو يتعرض على الأقل الى اختلاط فى الأمور يجعله عاجزا عن التمييز بين الأصل المتوارث لدى جماعة المسلمين وبين رأى الكاتب ٠ فهناك كثير من المستشرقين يؤكدون مثلا ان القرآن من تأليف محمد ثم يذهبون مذهبا بعيدا فى تأسيس الأحكام التاريخية والعقيدية والأدبية على هذا التأكيد ، وسرعان ما ترتفع هذه الأحكام بمحض الشهرة الى مرتبة الحقائق ٠

وهكذا يتم التشكيك فى مصدر الوحى القرآنى ونسبة تأليفه الى محمد ، والزعم بأنه — وهو الذى كان أميا لا يقرأ ولا يكتب — قد جمعه من آثار الدينين السابقين عليه وهما اليهودية والمسيحية ، وانه تلقى فى تأليفه مساعدات اجنبية ، وتضخيم أثر اللقاء العابر لمحمد ﷺ فى رحلته الى الشام ببحيرى الراهب السورى ٠

ويرتبط بالتشكيك فى مصدر القرآن أيضا التشكيك فى صحة النص القرآنى استنادا الى مسألة القراءات العديدة واعتمادا على بعض الروايات الباطلة التى يرفضها المسلمون ٠

وينتقل التشكيك الى السنة والأحاديث التى وردت عن النبى محمد ﷺ ٠ والسنة كما هو معروف هى أقوال النبى وافعاله وتقريراته ، وعلاقتها

بالقرآن هى علاقة التوضيح والتبيين كما يقول القرآن فى ذلك مخاطبا النبى محمدا صلى الله عليه وسلم : « **وأنزلنا اليك الذكر** (أى القرآن) **لتبين للناس ما نزل اليهم** »(٧) ، « **وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه** »(٨) .

وليس يخفى على أحد من الدارسين للاسلام مدى الجهود التى بذلها علماء المسلمين فى نقد الروايات وضبط الأسانيد فيما يتعلق بالأحاديث التى وردت عن النبى ﷺ . ويكفى أن نعلم أن الامام البخارى الذى جمع ما يربو على نصف مليون حديث لم يصح لديه منها بعد النقد والضبط والبحث والاستقصاء الا حوالى أربعة آلاف حديث فقط .

وقد حاولت بعض الاتجاهات الاستشراقية ايضا منذ «رينان» تجريد العقلية الاسلامية من كل لون من الوان الابتكار : فالفلسفة الاسلامية فى رأى هذا البعض ليست الا ترديدا لأفكار اليونان ، والتصوف الاسلامى مبنى على جذور غير اسلامية ، والشريعة الاسلامية مأخوذة من القانون الرومانى وهكذا .

وتلجأ بعض الاتجاهات الاستشراقية الى تضخيم أهمية الفرق المنشقة عن الاسلام واظهارها بأنها صاحبة فكر عقلى ثورى تحررى . وفى المقابل يظهر الاسلام كدين بأنه قد عفا عليه الزمن ، وانه اذا أريد معرفة الاسلام اليوم فعلى المرء ان يبحث عنه فى فرق الدراويش . وأذكر فى هذا الصدد ما كان يردده الأستاذ « كيسلنج » فى محاضراته بجامعة « ميونيخ » فى أواسط الستينات عما كان يسميه بالاسلام الميت والاسلام الحى . فالاسلام الميت – فى نظره – هو اسلام الكتاب والسنة ، والاسلام الحى هو اسلام الطوائف العديدة المنتشرة فى العالم الاسلامى وبخاصة طوائف الدراويش . وهكذا يراد أن يتحول الاهتمام من البحث الأساسى فى جوهر الدين الاسلامى ومصادره الأساسية : القرآن والسنة الى الاهتمام بظواهر ثانوية وقتية .

وقد أظهرت الصحوة الاسلامية منذ أوائل السبعينات ان ما يسمى بالاسلام الميت لا يزال حيا وقويا فى نفوس أتباعه فى كل مكان فى العالم الاسلامى ، حتى فى تلك البلاد التى بذلت فيها شتى المحاولات لمحو كل مظهر من مظاهر الاسلام محوا تاما .

* * *

---

(٧) النحل : ٤٤ . (٨) النحل : ٦٤ .

● **الاسلام وحده هو المستهدف :**

والأمر الغريب هو أن الدراسات الغربية حول الديانات الوضعية مثل البوذية والهندوسية غالبا ما تكون دراسات موضوعية بعيدة عن أى تجريح .

ولكن الاسلام وحده من بين كل الأديان هو الذى يتعرض فى الغرب للنقد والتجريح على الرغم من أنه دين يؤمن بالله ويحترم اليهودية والمسيحية ويؤمن بموسى وعيسى ويرفعهما فوق النقد بوصفهما من أنبياء الله عليهم السلام .

وليس هناك شك فى أن صور التحامل القديم على الاسلام منذ العصر الوسيط قد خفت حدتها الى درجة كبيرة ، وان هناك مستشرقين يحاولون جاهدين ان تظل دراستهم للاسلام محصورة فى نطاق البحث العلمى النزيه .

ويقتضينا الانصاف ايضا أن نشير الى ان الدراسات الاستشراقية بصفة عامة كلما كانت بعيدة عن مجالات العقيدة الاسلامية كلما كانت اقرب الى الموضوعية وابعد عن التحامل . ولكن هنـاك فى الوقت نفسه مستشرقين لا يزالون يرددون بصورة او بأخرى مزاعم العصر الوسيط حول الاسلام .

فاذا عبر المسلمون عن استيائهم ازاء هـذا التحامل الظالم على الاسلام من جانب بعض المستشرقين فان هـذا يعنى فى نظـر بعض الباحثين الغربيين عدم قدرة المسلمين على فهم الأمور فهما علميا .

ومن يقرأ بعض البحوث الاستشراقية عن الاسلام لابد أن يخرج بانطباع معين يتمثل فى ان المسلمين يعيشون فى ظل وهم كبير وأكذوبة تاريخية عندما يعتقدون **ان القرآن وحى من عند الله تلقاه محمد** ﷺ بوصفه خاتم النبيين ليبلغه للناس . ان الاسلام الذى تعرضه مثل هذه البحوث ليس هو الاسلام الذى يدين به المسلمون وانما هو اسلام من صنع الخيال ، وان محمدا الذى تصوره مثل هـذه الدراسات ليس هو محمد الذى يؤمن المسلمون برسالته وانما هو شخصية أخرى مخترعة لا يعرفها المسلمون . ماذا يتبقى للمسلمين عندما يطعنون فى أقدس مقدساتهم التى تتمثل فى دينهم وقرآنهم وشخصية نبيهم ؟

هل يقبلون ذلك صاغرين أم يعترضون ؟

انه اذا اريد الوصول الى تفاهم افضل بين الغرب والاسلام فلابد من أن تتخلص نظرة الغرب الى الاسلام من الأحكام المسبقة التى هى من موروثات العصر الوسيط والتى تتردد اليوم كثيرا فى وسائل الاعلام الغربية .

فالاسلام — فى نظر وسائل الاعلام هذه — دين دموى ، والارهاب نابع من الاسلام . والاسلام دين لا يحترم المراة ، وهو دين شهوانى يجرى وراء اللذة باباحته تعدد الزوجات ، والجهاد — الذى شرع فى الاسلام ليكون أداة دفاعية يرد عن المسلمين عدوان المعتدين كما يقول القرآن الكريم : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين** »(٩) — هذا الجهاد يصور بأنه يعنى تدمير الحضارة الغربية ودمار البشرية ، كما يجرى الخلط بين الاسلام كدين وما نشاهده اليوم من تخلف وصراعات فى العالم الاسلامى .

فهل الاسلام مسئول عن هذا كله ؟

ان النظرة الموضوعية تبين ان الاسلام كدين ليس مسئولا عن شىء من ذلك ، بل على العكس نرى — كما يرى أيضا المفكر الاسلامى الراحل مالك بن نبى — أن التخلف الذى يعانى منه المسلمون اليوم يعد عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون .

وبالمثل لا نستطيع أن نقول ان المسيحية كانت مسئولة عن الحربين العالميتين اللتين اكتوت أوروبا بنارهما فى النصف الأول من هذا القرن ، كما أنها أيضا ليست مسئولة عن الصراع الدينى الدموى المستمر فى ايرلندا .

* * *

● **الاستشراق ومسئولية المسلمين :**

ويحق لسائل ان يتساءل :

لماذا لا يتولى المسلمون انفسهم عرض وجهات نظرهم حول دينهم وحضارتهم باللغات الأوروبية ؟

---

(٩) البقرة : ١٩٠.

لماذا لا يكون لهم انتاجهم الذى ينشرونه فى العالم الغربى ؟

هل يراد ان يتولى الاستشراق عنهم هذه المهمة التى هى من اختصاصهم ؟

وهذه تساؤلات فى محلها ، فالمسلمون مقصرون بالفعل فى حق انفسهم وفى حق دينهم وحضارتهم . وقد تعرضت فى كتابى عن الاستشراق لهذه النقطة .

ولكن يحق لنا ايضا ان نتساءل : لمن يكتب الاستشراق ، ومن هم هؤلاء الذين يريد الاستشراق أن يخاطبهم ؟

هل يريد الاستشراق ان يخاطب القراء فى الغرب فقط ام يريد ان تقرأ الأعمال الاستشراقية من قبل المسلمين ايضا وتنال الاهتمام لدى المثقفين فى العالم العربى الاسلامى ؟

لا اعتقد ان الاستشراق يريد ان يحصر نفسه فى دائرة الغرب فقط ، بل انه يحرص ايضا على ان يكون له قراؤه فى العالم العربى الاسلامى ، كما ان هناك من ناحية اخرى ارتباطا وثيقا بين المصالح الغربية فى العالم الاسلامى ودعم الحركة الاستشراقية فى الغرب . وهذا أمر يدعو ايضا الى احترام مشاعر القراء المسلمين وعدم المساس بمقدساتهم ، على الأقل حفاظا على استمرار المصالح الغربية فى العالم الاسلامى .

اما عن جهود الجانب الاسلامى فى هذا الصدد فأذكر انه كانت هناك جهود كان لى شرف المشاركة فيها فى اطار الجامعة العربية فى عام ١٩٧٩ لاصدار موسوعة باللغة العربية وست لغات اوروبية تتضمن الرد الاسلامى على وجهات النظر الاستشراقية التى تتعارض مع ما يعتقده المسلمون ويؤمنون به . ولكن الظروف السياسية التى مرت بالمنطقة العربية منذ ذلك التاريخ قد حالت حتى الآن دون المضى فى هذا المشروع الثقافى(١٠) .

وقد عرضت فى كتابى عن الاستشراق على من يهمهم الأمر فى العالم الاسلامى بعض المقترحات التى تتضمن تكوين هيئة اسلامية علمية عالمية تكون بعيدة عن اية تيارات سياسية ، تهتم بالبحث العلمى الاسلامى

---

(١٠) انظر فى ذلك كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٣١ وما بعدها .

على نطاق عالمى ، وتصدر مجلة اسلامية علمية متخصصة باللغات الحية ، ومؤلفات تعرض الاسلام عرضا موضوعيا بشتى اللغات ، واقترحت ايضا اصدار دائرة معارف اسـلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية تعرض وجهات النظر الاسلامية ، وكذلك ترجمة اسلامية لمعانى القرآن الكريم باللغات الأوروبية .

* * *

● أهميـة الحوار مع المستشرقين المعتدلين :

وقد اقترحت أيضا اجراء حوار مع المستشرقين المعتدلين ، فمثل هذا الحوار سيكون له من غير شك أثره الايجابى على كلا الجانبين .

وهذا الحوار أمر لابد منه حتى يمكن ان يسمع كل جانب وجهة نظر الجانب الآخر ، اذ ان ما يحدث حاليا يمكن أن يوصف بصفة عامة بأنه « حوار الصم » فكل جانب يتحدث دون أن يسمعه الجانب الآخـر او حتى يحاول أن يسمعه .

فالمستشرقون يكتبون والعالم العربى الاسلامى لا يحاول فى الغالب أن يسمع بحجة أن الاستشراق لا يمكن ان يكون منصفا للاسلام والمسلمين . والمسلمون يكتبون ، وعالم الاستشراق يتجاهل فى الغالب أيضا ما يكتبه المسلمون بحجة أن ما يكتبه المسلمون لا يعبر الا عن انفعالات غير علمية . وحتى لا نقع فى تعميم خاطىء نقول : ان هناك على كلا الجانبين بعض من لديه الاستعداد لسـماع الجانب الآخر ، ولكـن الغالبية العظمى على غير ذلك .

وقد آن الأوان ليسمع كل منا الآخر ويحترم كل منا وجهة نظر الجانب الآخر .

وقد أسعدنى حينما كنت اتولى عمادة كلية أصـول الدين بجامعة الأزهر فى نهاية السبعينيات أن أنظم محاضرة فى جامعة الأزهر لكل من المستشرق الفرنسى الأستاذ «أرنالدز» الأستاذ بجامعة السوربون والمستشرق الألمانى الأستاذ «فرنرانده» الأستاذ بجامعة فرايبورج حاليا حينما كان كل منهما فى زيارة للقاهرة . وقد تحدث الأستاذ « أرنالدز » عن فلسفة الفارابى السـياسية ، وتحـدث الأستاذ «انده» عن تاريخ العـلاقات

الاســلامية الألمــانية · وكان الاقبال على كلا المحاضرتين كبيرا جـدا فوق ما كنا نتوقع(١١) ·

ولعل وجودى هنا فى جامعة «جوتنجن» الآن وحديثى اليكم فى هذا الموضوع الذى يتسم بالحساسية الشديدة يكون بداية طيبــة لحوار بناء ومستمر على جميع المستويات العلمية بين المستشرقين المعتدلين من جانب وعلماء العالم الاسلامى من جانب آخر ·

* * *

---

(١١) لقد تمت أيضا فى أوائل عام ١٩٨٦ بدعوة الأستاذ تلمان ناجــل مدير معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن بألمــانيا الى القاء محاضرة فى كلية أصول الدين . وقد ألقى محاضرته فى موضــوع « الصلة بين الشريعة وعلم الكلام فى نظر الأشاعرة » .. وقد كان لهذه المحاضرة صدى طيب لدى الأساتذة والطلاب ..

الفصل الثاني

الإسلام في الفكر الإستشراقي

● **تمهيـــد :**

يعد كتاب « موجز فى أدب علوم الاسلام »
(Handbuch der Islamliteratur)

اهم مؤلفات الأستاذ الدكتور « جوستاف بفانمولر »
(Gustav Pfannmueller)

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هـذا الكتاب عام ١٩٢٣ فى برلين واعيد نشره عام ١٩٧٤ ، ويقع الكتاب فى ٤٣٦ صفحة .

ويذكر « بفانمولر » فى مقدمة كتابه انه يريد أن يقدم لكل من يود الاشتغال بحضارة الاسلام مدخلا أوليا للدراسة ، وعلى ذلك فانه لا يتوجه بهذا المدخل الى المتخصصين فحسب ، وانما يتوجه به فى المقام الأول الى دائرة واسعة من القراء ، الذين يريدون التعرف عن قرب على الحيـاة العقلية للشرق الاسلامى .

ويقـدم الكتاب مختارات منتقاة ، من بين المراجع التى اثبتت اهميتها العظيمة ، عبر المسار التاريخى لعلم الاسلاميات ، ولا يكتفى المؤلف بمجـرد حصر جاف لعناوين المراجع ، وانما يقوم بتصنيفها تصنيفا موضوعيا ، وتقديم عرض مختصر لمضمون كل مرجع . وينصب الاهتمام الرئيسى للكتاب ـ بطبيعة الحال ـ على الدين الاسـلامى . ويخصص له المؤلف اثنى عشر فصلا (من ص ٦٠ الى ٣٤٧) يعرض فيها أولا للمؤلفات التى عنيت بتقديم عرض شامل للاسلام ، ثم لتلك التى عنيت بأحوال العرب قبل الاسـلام ، وحياة محمـد وتعاليمه ، والقرآن والحديث ، والفقه ، والعقائد ، والتصوف ، والطرق الصوفية ، وتقديس الأولياء ، والسحر ، والفرق الاسلامية ، والاسلام والتبشير .

ويخصص المؤلف فصلا للفلسفة الاسلامية ، التى يقول عنها : انه كان لها تأثير حاسم على فلسفة العصور الوسطى فى أوروبا ، كما يفرد فصلا للفن الاسلامى الذى يقول عنه : ان قيمته الجمالية الرفيعة ، وأهميته العظيمة بالنسبة للتطور العام للفن لم تعرف الا منذ زمن قريب ٠

وبالاضافة الى كل هذه الموضوعات ٠٠ هناك فصول اخرى فى الكتاب ، خصصت لببليوجرافيا الاسلام بصفة عامة ، وبلاد الاسلام وشعوبه ، وتاريخ الاسلام السياسى ، وحضارة الاسلام ، وفى النهاية فصل عن آداب العرب والفرس والأتراك ٠

والمؤلف لا يزعم أنه قدم حصرا شاملا لكل المؤلفات ، التى اهتمت بالجوانب المختلفة للاسلام والحضارة الاسلامية ، وفى هذا الصدد يقول :

انه ليس هناك من يشعر بالقصور والنقص فى هذه المحاولة الأولى اكثر مما يشعر المؤلف ، ولكنه يردد فى هذا المقام المثل العربى القديم : « ما لا يدرك كله لا يترك كله » فبعض المعرفة خير من الجهل التام ٠

ونحن نترجم هنا أحد فصول هذا الكتاب ، وهو الفصل الخاص بالمؤلفات التى اهتمت بتقديم عروض شاملة للدين الاسلامى ، ونقوم فى الوقت نفسه بالتعريف بالمستشرقين ، الذين ورد ذكرهم فى هذا الفصل(١) ، وكذلك بالتعليق على بعض المسائل التى وردت فيه ونرى انها فى حاجة الى تعليق ٠

وقد قمنا ايضا بتقسيم الموضوع الى فقرات مستقلة ، ووضعنا لها عناوين خاصة تحمل فى اغلبها اسم المستشرق الذى تتناوله كل فقرة على حدة ٠

والمعلومات التى يتضمنها هذا الفصل معلومات على جانب كبير من الأهمية ، لأنها تصور لنا موقف أئمة المستشرقين – من مختلف الجنسيات وبشتى اللغات – من الاسلام ، طوال ما يقرب من قرنين وربع من الزمان ، أى من بداية القرن الثامن عشر الى نهاية الربع الأول من

---

(١) من بين الكتب التى رجعنا اليها فى هذا الصدد كتاب « المستشرقون » لنجيب العقيقى ، ودائرة المعارف الاسلامية وغيرهما من مراجع متفرقة .

القرن العشرين(٢) . ولكن عرض الخطوط الرئيسية للفكر الاستشراقى هنا لا يغنى بطبيعة الحال عن دراسة هذا الحشد الزاخر من مؤلفات المستشرقين دراسة واعية، ومن ناحية اخرى نجد ان الكتاب قد وقف بنا عند عام ١٩٢٣ ، وليس هناك احد - فيما نعلم - قام بمحاولة اخرى لاستكمال العمل الذى بدأه « بفانمولر » .

وسنقوم - ان شاء الله - فى مناسبات اخرى بترجمة بعض الفصول الهامة ، المتعلقة بالنبى ﷺ وسيرته وتعاليمه ، وبالقرآن والحديث .

وفيما يلى ترجمة الفصل الخاص بالاسلام بصفة عامة ..

* * *

ترجمة وتعريف

١ - ريلاند (Hadrian Reland) :

لقد كان اول من قام بعرض علمى للدين المحمدى(٣) هو الأستاذ « هادريان ريلاند »(١٦٧٦ - ١٧١٨) أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة أوترشت بهولندا .

---

(٢) يعترف المستشرقون بأن كتابات الأوروبيين عن الاسلام فى العصور الوسطى كانت بصفة عامة كتابات غير علمية ، ومبنية على التعصب والجهل بالاسلام ومصادره الأصلية . انظر حول موقف الغرب من الاسلام فى العصور الوسطى كتاب (R. W Southern) « نظرة الغرب الى الاسلام فى القرون الوسطى » ترجمة د . على فهمى خشيم ، ود . صلاح الدين حسن ، ومراجعة الأستاذ عمر الدسوقى ، دار مكتبة الفكر . طرابلس - ليبيا ١٩٧٥ .

(٣) أغلب المستشرقين مولعون باستمرار بوصف الاسلام بأنه الدين المحمدى ؛ أو المذهب المحمدى (Mohammedanism) نسبة الى «محمد» كما تنسب المسيحية الى المسيح ، ولكن هناك سببا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم ، وهو اعطاء الانطباع بأن الاسلام دين بشرى ، من صنع محمد وليس من عند الله . أما نسبة المسيحية الى المسيح فلا تعطى لديهم هذا الانطباع لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله .

ويقع كتابه عن الاسلام فى جزئين(٤) : ويشتمل الجزء الأول على خلاصة لعلم العقيدة الاسلامية ، استنادا الى مصادر بالعربية واللاتينية ، اما الجزء الثانى فانه يصحح الآراء ، التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم العقيدة الاسلامية ، تلك الآراء التى كانت الى حد ما فى منتهى الغرابة ٠

وقد اثار الكتاب اهتماما عظيما لدرجة انه ادى الى اثارة الشبهات حول مؤلفه ، باتهامه بأنه يريد ان يقوم بعمل دعائى للاسلام ، فى حين انه لم يكن يقصد الا الى الوصول الى تفهم سليم للدين المحمدى ، وتمهيد السبيل لمحاربة هذا الدين من جانب المسيحية ، بطريقة افضل من ذى قبل ٠

وقد ادرجت الكنيسة الرومانية الكتاب فى قائمة الكتب الممنوعة (Index Librorum prohibitorum) ٠ ولكن الكتاب ترجم الى اللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية والهولندية والأسبانية ، واصبح يعول عليه كثيرا جدا فى عرض تعاليم عقيدة « محمد » ٠

وتثير مقدمة هذا الكتاب اهتماما خاصا ، فهنا يتحدث « ريلاند » عما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها ، اما بعدم فهمها ، أو برميها بكل سوء ، بطريقة تنبىء عن قصد خبيث ٠ وهكذا افترى الوثنيون على اليهودية والمسيحية ، وهكذا ايضا نظر الرومان الكاثوليك الى اتباع « مارتن لوثر » والى دعاة الاصلاح حينذاك نظرتهم الى المحمديين ٠

اجل ، لقد كان على المؤلف أن يخشى ايضا ان يعطى عمله هذا عن الطبيعة الحقيقية للدين المحمدى دافعا لخصومه للاستمرار فى نشر هذه الافتراءات ، وقد كان على حق فى تخوفه – كما راينا – ٠

---

(٤) ظهر الكتاب باللاتينية عام ١٧٠٥ تحت عنوان (De religione Mohammedica libri duo) وقد أعيد طبعه عام ١٧١٧ ، وله بالاضافة الى ذلك مؤلفات أخرى منها : كتاب فى الجهاد ، والجغرافيا والآثار فى فلسطين ، وتعليم المتعلم للزرنوجى ، وفى مقدمته فهرس لجميع النصوص العربية ، المطبوعة فى أوروبا حتى أيامه ٠

ولكن « ريلاند » مع ذلك لا يريد ان يثنيه هذا الخوف العارض عن عزمه . « فالمرء يجوز له حقا ان يبحث عن الحقيقة حيثما كانت » ومن أجل ذلك يريد أن يعرض فى كتابه دين « محمد » لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل ، وخبث الناس ، وانما « كما يدرس حقيقة فى مساجد المحمديين ومدارسهم » .

انه اذا كان هناك فى اى وقت من الأوقات دين فى هذا العالم قد احتقر من جانب خصومه ، ورمى بكل سوء ، فانه هو هذا الدين المحمدى ، فان من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين نجده يصفها بأنها نظرية محمدية ، كما لو انه لا يوجد فى تعاليم « محمد » شىء صحيح ، وان كل ما فيها فاسد .

واذا كان لدى أحد قصد حميد فى التعرف على الدين المحمدى ، فلا تقدم له الا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالأضاليل .

انه بدلا من ذلك ينبغى على المرء أن يتعلم اللغة العربية وان يسمع « محمدا » نفسه وهو يتحدث فى لغته ، كما ينبغى على المرء ايضا ان يقتنى الكتب العربية وأن يرى بعينيه هو ، وليس بعيون الآخرين .

وسيرى المرء حينئذ أن المحمديين ليسوا مجانين كما نظن ، فقد أعطى الله العقل لكل الناس ، وقد كان من رأيى دائما : ان ذلك الدين الذى انتشر انتشارا بعيدا ، فى آسيا ، وافريقيا ، وفى اوروبا ايضا ، ليس دينا ماجنا ، أو دينا سخيفا ، كما يتخيل كثير من المسيحيين » .

صحيح ، انه دين سىء جدا ، وضار بالمسيحية الى حد بعيد ، ولكن .. الا يجوز لذلك أن يبحثه المرء ؟ الا ينبغى للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟

ان الأحرى بالمرء هو أن يسعى للتعرف عليه حقيقة ، لكى يحاربه بطريقة أكثر امانا ، وأشد قوة !

***

٢ ـ جورج سيل (G. Sale) :

وبجانب عمل « ريلاند » نجد فى المقدمة التمهيدية التى جعلها « جورج سيل »(٥) مقدمة لترجمته للقرآن ـ عرضا شاملا لنظام الدين

---

(٥) جورج سيل (١٦٩٧ — ١٧٣٦) مستشرق انجليزى ، اشتد

الاسلامى ، ونظام شريعته ، وقد استطاعت هذه المقدمة أن تثبت وجودها زمنا طويلا جدا ، كمصدر علمى موثوق به فى هذه الموضوعات .

وقد جعلت فى عام ١٨٤١ مقدمة للترجمة الفرنسية للقرآن التى قام بها (كاسيميرسكى **Kasimirski**)(٦) واعيد طبعها كذلك منذ ذلك الحين .

وتتناول هذه « المقدمة المؤقتة » بطريقة مفصلة الموضوعات التالية :

١ ـ تاريخ العرب ودينهم قبل عصر محمد .

٢ ـ وضع المسيحية ـ وبوجه خاص الكنيسة الشرقية ـ ووضع اليهودية فى العصر الذى ظهر فيه محمد .

٣ ـ القرآن .

٤ ـ تعاليم القرآن ووصاياه الصريحة التى تتعلق بالعقيدة والتكاليف الروحية لهذه العقيدة .

٥ ـ محرمات معينة فى القرآن .

٦ ـ تنظيم القرآن للأمور الاجتماعية .

٧ ـ الأشهر الحرم ، ويوم الجمعة .

٨ ـ الفرق الرئيسية للمحمديين ، والأنبياء الزائفون .

* * *

اهتمامه بالاسلام حتى وصف بأنه نصف مسلم . ترجم القرآن من العربية مباشرة الى الانجليزية ، ونشرت الترجمة فى لندن عام ١٧٣٤ ، وقد اشتملت على حواشى ، وشروح ، ومقدمة مسهبة عن الدين الاسلامى بصفة عامة ، وهى تلك المقدمة التى يشير اليها « بفانمولر » وقد تضمنت الكثير من الافك واللغو والتجريح .

وقد قام بترجمة هذه المقدمة الى العربية « ابن الهاشم » العربى (القاهرة ١٩١٣) ، ونقل « تيودور أرنولد » ترجمة « سيل » للقرآن الى الألمانية عام ١٧٤٦ ، وأشار « فولتير » الى ترجمة سيل فى القاموس الفلسفى ، مما يدل على النجاح الذى صادفته هذه الترجمة فى أوروبا فى عصرها .

(٦) هو البير كاسيميرسكى (١٨٠٨ — ١٨٨٧) تخرج فى جامعة برلين ، ورحل الى الشرق ، واستقر فى فرنسا . قام بترجمة القرآن للفرنسية ترجمة تفتقد شيئا من الأمانة العلمية ، والتمكن من البلاغة العربية ، ومن أعماله أيضا « المعجم العربى الفرنسى » فى جزئين كبيرين .

٣ ـ مرادجيا دوهسون (Mouradgea d'Ohsson) :

اما المؤلف الضخم الذى الفه « مرادجيا دوهسون » فانه يقدم عرضا للاسلام مبنيا على دراسة مصدرية عميقة للتشريع المحمدى وللتشريع الدينى على وجه الخصوص ·

وقد ولد المؤلف فى اسطنبول فى عام ١٧٤٠ وتربى هناك ، وقد كانت لديه وهو فى الرابعة والعشرين من عمره معرفة بأهم اللغات الشرقية ، واطلع على كتابات المؤلفين المحليين (الشرقيين) ، وقد استطاع أن يحصل على الكثير مما ظل محرما على غيره من الاوروبيين ، وذلك بفضل الصلات والمعارف التى هيأتها له مكانته ومنصبه كسكرتير ، ومترجم وقائم بالاعمال لملك السويد فى بلاط اسطنبول ، وبفضل ثقة الوزير الاعظم نفسه فيه لسنوات طويلة ·

وقد درس تعاليم الاسلام وتشريعه العام فى المصادر الاصلية بمساعدة احد علماء العقيدة والشريعة الاسلامية · وقد جمع بلا كلل مادة ضخمة على مدى اثنين وعشرين عاما ، وضعها فى النهاية فى مؤلف ضخم من ثلاث مجلدات من القطع الكبير (٧) ·

وقد اتخذ أساسا لعمله كتاب الشريعة العام المشهور الذى وضعه ابراهيم الحلبى بعنوان « ملتقى الأبحر »(٨) ·

---

(٧) عنوان الكتاب هو :
(Tableau général. de L' Empire Othoman divisé en deux parties; dont l'une comprend la Législation ; Mahométane, L'autre , L'Histoire de L'Empire Othoman) .

وقد ظهر المجلدان الأول والثانى فى باريس من ١٧٨٧ الى ١٧٩٠ أما المجلد الثالث فقد ظهر عام ١٨٢٠ بعد وفاة المؤلف ، وتولى ابنه اخراجه .

(٨) توفى ابراهيم الحلبى عام ٩٥٦ هـ · وقد اهتم كثير من العلماء بشرح كتابه « ملتقى الأبحر » وقد استخرج منه المستشرق الفرنسى (سوفير Sauvaire) (١٨٤٩ — ١٨٩٦) أبواب البيع والشراء ، والكفالة وغيرها ، والحوالة والحق بها كتاب « مجمع الأنهر » لمحمد بن سليمان شيخ زاده ونشرهما متنا ، وترجمة فرنسية ، مع شروح وتعليقات فى مرسيليا عام ١٨٨٢ ، وهناك شروح أخرى عديدة على « ملتقى الأبحر » نذكر منها ما يلى : =

ولكن « مرادجيا » قام بتقسيم محتواه الى فصول محددة ، واضاف اليها افكاره وملاحظاته الخاصة (observations) . وفى هذه الملاحظات وضع ثمار دراساته وخبراته الطويلة ، ولا زالت تعد حتى الآن ينبوعا حقيقيا لمعرفة الدولة العثمانية فى ذلك العصر .

وقد كان المفروض أن يشتمل المؤلف على قسمين رئيسين وهما : التشريع وفيه الحديث أيضا عن الدين ، والقسم الثانى التاريخ . وقد ألقى « مرادجيا » فى مقدمة تمهيدية نظرة مسهبة على القسمين ، ولكن لم يظهر الا القسم الأول فقط .

ويشتمل المجلدان الأول والثانى على القانون الدينى (Code religieux) الذى ينقسم أيضا الى العقائد والعبادات والأخلاق .

ويشتمل القسم الخاص بالعقائد على مواد العقيدة الثمانية والخمسين، التى وضعها « عمر النسفى »(٩) فى بداية القرن الثانى عشر ، وقد أضاف اليها « مرادجيا » شروحا هامة جدا حول وجهة النظر المحمدية فى نشأة الكون ، وحول كبار رجال الدين والأنبياء وأولياء الاسلام ، وحول الفرق الاسلامية ، وعقيدة الجبر ، والامامة وغير ذلك من موضوعات .

وأما القسم الخاص بالعبادات فانه يتناول فيه فى خمسة أبواب الأنواع المختلفة للطهارة ، والحديث عن الصلاة ، والزكاة ، والصوم ،

=

(أ) مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر .. من تأليف شيخ زاده (١٠٧٨ هـ) مطبوع على هامش ملتقى الأبحر .

(ب) جرى الأنهر على ملتقى الأبحر .من تأليف نور الدين على الباقانى القادرى الأنصارى .. فرغ من تأليفه عام ٩٩٥ هـ . مخطوط بمكتبة الأزهر رقم (٣٣٦) ٧٣٨٣ .

(جـ) الدر المنتقى شرح ملتقى الأبحر (مطبوع على هامش مجمع الأنهر) من تأليف الحصكفى (١٠٨٨ هـ) .

(د) المعادل .. شرح ملتقى الأبحر . من تأليف المرعشى . مخطوط بمكتبة الأزهر رقم (٦٥٩) ١٠٩٧٤ .

(٩) يقصد كتاب العقائد النسفية الشهير لأبى حفص عمر نجم الدين النسفى المتوفى ٥٣٧هـ (١١٤٢م) وقد عرف هذا الكتاب فى أوروبا منذ عام١٨٤٣بواسطةكوريتون (Cureton) الذى قام بنشره حينذاك تحت عنوان :
. (The pillar of the Creed (Nr. 2))

والحج الى مكة ، وقد أضاف المؤلف الى كل باب ملاحظاته التى تعد على درجة قصوى من الأهمية .

وفى القسم الخاص بالأخلاق يتناول موضوعات الغذاء والكساء والعمل الانسانى والفضائل الأخلاقية .

ويختم المؤلف « القانون الدينى » - وبالتالى يختم فى الوقت نفسه المجلدين الأول والثانى من الكتاب - بفصل عن نظام التدرج المحمدى يتحدث فيه عن العلماء والدراويش .

أما المجلد الثالث فقد ظهر بعد موت « مرادجيا » ، وقد قام ابنه باخراجه من واقع مخلفات والده . وينقسم هذا المجلد الى قسمين : يشتمل القسم الأول منهما على القوانين او التشريعات السياسية والعسكرية والمدنية وتشريعات القضاء والعقوبات ، فى حين يصف القسم الثانى وضع الامبراطورية العثمانية .

وتشكل النقوش الرائعة زينة خاصة لهذا المؤلف الضخم ، تلك النقوش التى تعطى صورة وافية عن عالم الحضارة التركية حينذاك فى جميع جوانبها .

* * *

٤ - جارسين دى تاسى (Garcin de Tassy) :

ولدينا بحوث متعددة تتعلق بمعرفة الدين المحمدى للمستشرق الشهير « جارسين دى تاسى »(١٠) . ويشتمل كتابه الخاص بعرض العقيدة الاسلامية (Exposition de la foi Musulmane) على ترجمة لكتاب « بركوى birgewi »(١١) (١٥٢٢ - ١٥٧٣) الذى يعد بمثابة كتاب مدرسى فى تعليم العقيدة الدينية فى الدولة العثمانية .

---

(١٠) هو جوزيف هيليودور جارسين دى تاسى (١٧٩٤ - ١٨٧٨) تخرج فى العربية على يد المستشرق المعروف دى ساسى ، وتولى بعده تحرير المجلة الآسيوية ، فنشر فيها كثيرا من الدراسات القيمة ، بالاضافة الى العديد من الأعمال : تأليفا ، أو ترجمة ، أو تحقيقا فى موضوعات اسلامية وعربية .

(١١) بركوى أوبيركيلو - هو محمد بن بير على ، من علماء الدين

اما كتابه : تعاليم الدين الاسلامى وتكاليفه والذى ظهرت طبعته الثـالثة (١٢) تحـت عنـوان (L'Islamisme D'spres de Coran,

L'enseignementdoctrinal et la pratique) .

فانه يتناول ــ بعد مقدمـة قصـيرة ، وبعـد ايـراد الآيـات القـرآنية المتعلقة بمحمد وبعثته ــ يتناول « تعاليم الدين الاسلامى وتكاليفه » فى اربعة وعشرين فصلا باقتباسات من القرآن رتبت حسب الموضوعات ، ويتناول ترجمة لكتاب اسلامى عن الصلاة ظهر فى كلكتا .

* * *

٥ ــ راينهارت دوزى (Reinhart Dozy) :

اما كتاب « راينهارت دوزى »(١٣) عن تاريخ الاسـلام (Essai surl'histoire de L'Islamisme) والذى ظهرفىالأصل باللغة الهولندية فى (هارلم Haarlem) عام ١٨٦٣ تحت عنوان (Het islamisme)

الأتراك فى القرن العاشر الهجـرى (٩٢٨ ــ ٩٨١ هـ) ، تلقى علومه فى القسطنطينية والتحق هناك بالطريقة البيرامية التى هى فرع من الطريقة النقشبندية . اشتغل بالتدريس فى مدرسة « بركى Birge » ، وله مؤلفات وكتب تعليمية فى علوم العقيدة معظمها باللغة العربية ، وله مؤلفات أخرى فى علم القراءات والنحو العربى وبعض المسائل الفقهية .

وقد اشتهر على وجه الخصوص عن طريق كتابه المدرسى فى العقيدة باللغة التركية وهو رسالة بركوى ويطلق عليه أيضا اسم « وصيت نامه » وهو الكتاب الذى قام « جارسين دى تاسى » بترجمته الى الفرنسـية عام ١٨٢٢ ، وقد طبع الكتاب مرارا وترجم ترجمات مختلفة ، وقد أورد بروكلمان قائمة بمؤلفات بركوى . انظر أيضا : على بن بالى : « العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم » ص ٤٣٠ وما بعدها على هامش كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان طبعة القاهرة ١٣١٠ هـ .

راجع : (Handwoerterbuch des Islam. (Leiden, 1976)

(١٢) ظهر الكتاب عام ١٨٢٦ وأعيد طبعه عام ١٨٤٠ ، وظهرت الطبعة الثالثة بالعنوان الجديد عام ١٧٨٤ .

(١٣) ولد دوزى فى ليدن بهولنده (١٨٢٠ ــ ١٨٨٣) من أسرة فرنسية عرف معظم أفرادها بحب الاستشراق . كان متضلعا فى اللغـات السامية وعمل أستاذا للعربية فى جامعة ليدن من عام ١٨٥٠ الى ١٨٧٨ ، وكان يكتب باللاتينية والفرنسية والانجليزية والأسبانية والألمانية والهولندية .

فانه ــ وان لم يكن أيضا مبنيا على نظرات وتأملات شخصية ــ مبنى على دراسات عميقة ، وقراءات شاملة ، ومعرفة دقيقة بالموضوع ٠

وقد اهتم المؤلف بتتبع الاسلام عبر عصور تاريخه كلها حتى الآن ، وعبر حدوده الواسعة كلها ، لكى يبين مسار تطوره ، ويبين فى الوقت نفسه صوره المتميزة ، التى اتخذها فى البلاد المختلفة ، تحت تأثير ظروف خاصة ، وتحت تأثير شخصيات واتجاهات عقلية لها شأنها ٠

وعلى الرغم من هذا الشمول الظاهرى فان الكتاب يعانى فى أحد جوانبه من اتجاه واحدى ، فنحن نحصل منه على تاريخ « الكنيسة » الاسلامية فقط ــ اذا جاز هذا التعبير ــ ولكننا لا نعرف من الكتاب شيئا عن تاريخ الاسلام السياسى ، وعن تاريخ حضارته على وجه الخصوص الا أقل القليل ٠

وانه لمن المستحيل رسم صورة للاسلام حسب ظهوره فى التاريخ العالمى كله ، اذا لم يلق المرء فى الوقت نفسه نظرة على تاريخه الخارجى ،

=

ويعد فى أوساط المستشرقين أول رائد فى الدراسات الأندلسية ، وتعتبر مؤلفاته فى هذا المجال مرجعا هاما فى تاريخ الأندلس وثقافتها وحضارتها . ومن بين المؤلفات المختلفة والدراسات العديدة التى قام بها نخص بالذكر ما يأتى :

— ملاحظات على بعض المخطوطات العربية — فى ٢٦٠ صفحة — (ليدن ١٨٤٧ — ١٨٥١) .

— فهرس المخطوطات الشرقية فى جامعة ليدن ١٨٥١ .

— تاريخ المسلمين فى أسبانيا الى فتح المرابطين لها — فى أربعة أجزاء (ليدن ١٨٤٩ — ١٨٦١) — ويقع الكتاب فى ١٤٦٠ صفحة — وقد تناول فى الجزء الأول الحروب الأهلية ، وفى الثانى النصارى والمرتدين — وفى الثالث الخلفاء ، وفى الرابع ملوك الطوائف .

— نظرات فى تاريخ الاسلام وبحوث فى تاريخ أسبانيا وآدابها فى العصر الوسيط — فى جزءين — الطبعة الثالثة ١٨٨١ .

— فهرس المخطوطات الشرقية فى المجمع الهولندى بامستردام (ليدن ١٨٥١) .

— تاريخ الاسلام منذ فجره حتى عام ١٨٦٣ ، وقد كتبه بالهولندية ونقله شوفين الى الفرنسية (ليدن ١٨٧٩) .

وعلى الخلافة وانقساماتها ، وتطور اهم الدول الرئيسية ، والأسر الحاكمة ، والعناية بصفة خاصة بوصف انجازات الاسلام ، أو احواله فى المجال الحضارى ، والاجتماعى ، أى فى العلم والشعر والمؤسسات القانونية ومؤسسات الدولة وشئون المدارس والحياة المنزلية والمؤسسات الاجتماعية ، أو على الأقل محاولة تحديد خصائصها ، وقد مر « دوزى » على هذه المجالات الهامة كلها مرورا عابرا .

وفى فصل تمهيدى قام « دوزى » ببحث مسألة الدين الأصلى لبلاد العرب ، معتمدا بصفة أساسية على آراء (شبرنجر Sprenger) (١٤) .

أما عن دين محمد فانه يضيف قائلا : انه ليس شيئا آخر غير الحنيفية القديمة ، أو التوحيد الحنيفى ، الذى حقق له « محمد » عقيدة ثابتة وتنظيمات معينة ، وأشكالا للعبادة ، وحقق له على وجه الخصوص تبريرا الهيا ، وأما الشىء الوحيد فى ذلك فقد كان هو ادعاؤه بأنه رسول الله .

ولكن « دوزى » لم يدع مجالا للحديث عما ثبت أن « محمدا » أخذه من اليهودية والمسيحية والديانة الفارسية (Parsismus) (١٥) .

---

(١٤) شبرنجر (١٨١٣ — ١٨٩٣) مستشرق نمساوى الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ . أرسلته شركة الهند الشرقية الى الهند ، وولته الحكومة رئاسة الكلية الاسلامية فى دلهى ثم مدرسة كلكتا ، وعينته مترجما للفارسية . أصدر فى دلهى أول صحيفة أسبوعية بالهندستانية . وفى عام ١٨٥٧ عين أستاذا للغات الشرقية فى جامعة برن بسويسرا ثم اعتزل التعليم وانقطع للتأليف فى هايدلبرج . وله مؤلفات عديدة ، ونشر الكثير من المخطوطات العربية ، ومن بينها : الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وتاريخ الغزنوية للعتبى ، والرسالة الشمسية لنجم الدين الكعبى ، واصطلاحات الصوفية لعبد الرازق السمرقندى ، والاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى . ومن مؤلفاته : أصول الطب العربى على عهد الخلفاء ، وسيرة محمد — فى ثلاثة أجزاء — بمعاونة نولدكه .

(١٥) هناك اصرار من جانب أغلب المستشرقين على أن الاسلام دين بشرى . ومن هذا المنطلق يحاولون جاهدين البحث عن جذور هذا الدين فى الديانات القديمة السماوية والطبيعية والوثنية — وقد أعماهم هذا الافتراض الباطل عن ادراك جوهر الاسلام وفهم رسالته ، فراحوا يتخبطون فى أحكامهم عليه وعلى نبيه .

ثم يتحدث « دوزى » بعد ذلك فى فصلين : أولهما بعنوان « محمد قبل الهجرة » وثانيهما بعنوان « محمد بعد الهجرة » ـ يتحدث عن شخصية النبى ، وحياته ، وتعاليمه ، والظروف التى مرت به ، وتأثيره ، وكذلك يتحدث عن تطور دينه وانتشاره الى حين وفاته .

أما عن موقف محمد الباطنى بالنسبة لعمله ، فان المرء لا يستطيع أن يستخلص من كتاب « دوزى » حكما محددا بهذا الخصوص : فتارة يظهر « محمد » كشخص مريض ، وكذاب ، وغشاش عن عمد ، وتارة أخرى يظهر مقتنعا بأنه صاحب عقيدة جيدة ، ومقتنعا بمهمته الالهية مثل « بولس » أو أى شخص آخر .

وبعد ذلك يأتى فصل عن « القرآن والسنة والأساطير » .

ويقول « دوزى » عن « القرآن » انه كتاب ذو ذوق ردىء للغاية ، وليس فيه شىء جديد الا أقل القليل وفيه اطناب بالغ وممل الى حد بعيد(١٦) .

أما قراءة السنة فانها أمر أكثر جاذبية ، ولكنها اشتملت على المعجزات التى لم يعرفها « القرآن » .

ويتحدث الفصل التالى لذلك عن التعاليم والعبادات : أما التعاليم فقد عولجت بطريقة مختصرة للغاية ، فقد تم الحديث عن العقيدة فى

=

ويوم تزول الغشاوة عن الأعين ويتجهون الى بحث الاسلام وهم ينشدون الحقيقة المجردة ، غير متأثرين بأفكار مسبقة أو أحقاد صليبية قديمة كانت أم حديثة ـــ عندئذ فقط سيكون من السهل عليهم التوصل الى رؤية حقيقة الاسلام الناصعة وهى أنه دين الله .

(١٦) ليس بغريب أن يصدر مثل هذا الهراء من دوزى وأمثاله ما دام يبنى أحكامه على افتراضات باطلة . ولا شك أن دوزى لم يفهم القرآن ؛ أو بمعنى أصح لم يرد أن يفهم القرآن ، ولم يدرك ما ينطوى عليه من أعجاز وفصاحة وبلاغة أجبرت المشركين على الاعتراف بها ، فراح مندوبهم الوليد ابن المغيرة يردد بعد سماعه للقرآن « والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى ، وأنه ليحطم ما تحته » .

ولدوزى وأمثاله يقول القرآن : « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** »؟ (محمد : ٢٤) .

صورة خطوط عريضة فى صفحتين فقط ، واما التعاليم الخلقية فقد جاء الحديث عنها بصفة عرضية فقط(١٧) .

وفى الفصلين التاليين يعود « دوزى » لاستكمال الحديث عن التاريخ ، ابتداء من وفاة « محمد » ولكن التاريخ السياسى لم يجد العناية المناسبة .

وفى الفصول التالية لذلك يتناول الفرق الكثيرة ، والاتجاهات الكلامية ، والحركات الخاصة المماثلة داخل الاسلام السنى ، وذلك تحت العناوين التالية : « الفرق الأولى » و « الاسلام فى عهد الحكم العباسى الأول » و « الاسماعيلية » و « الصوفية » ، ويبدو أن المؤلف قد وضع الثقل الرئيسى للبحث فى هذا القسم .

اما الفصل الدى جاء بعنوان « الاسلام فى الغرب » فانه يتناول فيه اسبانيا وشمال افريقيا .

وبعد الحديث عن « الأتراك والمنغوليين والهند والصين » وبعد الحديث باسهاب عن « الوهابيين » وجهودهم الاصلاحية فى تطهير العقيدة ، يأتى فصل ختامى تفصيلى عن « وضع الاسلام فى العصر الحاضر » .

وفى هذا الفصل يلقى المؤلف نظرة عامة على البلاد المحمدية فى العصر الحاضر ويصفها بناء على العقيدة الدينية والحياة ودور العبادة والعادات ، كما يتمثل ذلك كله فى الحياة العملية . وقد خصص نصف هذا الفصل تقريبا لبلاد الفرس ويأتى فى المقابل لها الدولة التركية التى تعد المقر الرئيسى للاتجاه السنى .

---

(١٧) من الغريب أن يتحدث « دوزى » فى مجلدات مطولة عن الجوانب التاريخية للاسلام ، ثم يتحدث عن التعاليم الخلقية للاسلام بصفة عرضية ، وهو يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد لخص رسالته كلها فى تلك العبارة الجامعة حين قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . ولكن يبدو أن القصد هو اخفاء الصورة المشرقة لتعاليم الاسلام ، والتركيز فى عرض الاسلام على جوانب معينة ، تبدو لدوزى وأمثاله نقاط ضعف ، أو جوانب سلبية .. وهكذا العين المريضة لا تستطيع أن ترى الشىء على حقيقته — فما بالك اذا كان القلب مريضا وعليه أقفال ثقيلة .. !

وفى النهاية يعرض المؤلف لمسألة المصير المستقبلى لهذا الدين ، وعما اذا كانت المسيحية ستتغلب عليه وتزاحمه ؟ ويرى ان انهيار الاسلام أمر غير متصور ، وأنه بالأحرى سيعيش طويلا ثابت الأركان ، مثل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

* * *

٦ — الفريد فون كريمر (Alfred von kremer) :

يرجع الفضل العظيم الى « الفريد فون كريمر » (١٨) فى أنه كان أول من نظر الى الاسلام من جانب تاريخ الحضارة ، وقد رسم فى كتابه « تاريخ الأفكار السائدة فى الاسلام » الخطوط الرئيسية لتاريخ الحضارة العام للاسلام .

وغاية الكتاب هى ابراز الأفكار السائدة فى الاسلام بوصفها « قوانين لا تتغير أبدا » لتطور الحضارة وفى الوقت نفسه باعتبارها دليلا لكتابة التاريخ فى المستقبل .

وقد بدت مثل هذه الأفكار للمؤلف متمثلة فى مفهوم : الله ، والنبوة وفكرة الدولة .

ولكن هذه الأفكار الثلاثة لا تمثل الا الاطارات فحسب ، التى أراد المؤلف أن يلخص فيها تأملاته وأبحاثه ، وهى اطارات ضيقة جدا ، بالنسبة لعرض التطور الحضارى الاسلامى الشامل ، كما ان التقسيم فى حد ذاته غير متين .

فالباب الأول والثانى كثيرا ما يتداخلان ، اما الباب الثالث فقد

---

(١٨) هو البارون فون كريمر (١٨٢٨ — ١٨٨٩) ولد فى فيينا وتخرج فى جامعتها ، أرسلته دولته قنصلا لها فى مصر ثم فى بيروت (١٨٧٠) ثم استدعته لوزارة الخارجية وغيرها من الوزارات فعرف بجده السياسى ونشاطه الاستشراقى . وقد نشر كثيرا من المخطوطات العربية منها : المغازى للواقدى ، والأحكام السلطانية للماوردى ، والاستبصار فى عجائب الأمصار. وله مقالات وبحوث عديدة فى شعراء الاسلام . ومن مؤلفاته : آثار اليمن ، وتاريخ الفرق فى الاسلام ، وتاريخ الحضارة فى المشرق تحت حكم الخلفاء — فى جزئين — (نقله الى العربية مصطفى بدر ١٩٥٧) ، وتاريخ الأفكار السائدة فى الاسلام .

كان ينبغى ان يتقدمهما . واذا كان هناك قصور فى الكتاب من حيث الشكل فان المهمة التى اخذها المؤلف على عاتقه من حيث المادة قد تم حلها بطريقة شاملة .

وقد كان دقيقا - على وجه الخصوص - فى تصوير المراتب الثلاثة للتطور فى شكل الدولة ، وكذلك ما يتمثل فى داخل هذه المراتب من فترات التطور الدينى ، ويتمثل التألق - بوجه خاص - فى تصوير خصائص التصوف .

والمؤلف مولع بتناول العصر المتأخر للاسلام ، فهو لا يتطرق الى الازدهار الكلاسيكى للاسلام فى القرن الأول الا فى أقل القليل ، ويركز على العصر اللاحق ، الذى يمتد حتى العصر الحديث ، واكثر اقسام الباب الثالث أصالة هو القسم الذى يصور فيه الخطوط العريضة للسلطنة ، باعتبارها الصورة الحديثة للدولة ، أما الباب الأول والثانى فانهما لا يستطيعان ان يقدما الا القليل بجانب التصوير الرائع لدوزى وابحاث شبرنجر .

ويعد كتاب « فون كريمر » (جولات تاريخية حضارية فى حقل الاسلام) تكملة لكتابه « تاريخ الأفكار السائدة فى الاسلام » . وقد بدا فيه ولوع المؤلف ببحث تلك الجوانب التى حدثت فيها التأثيرات الأجنبية على الاسلام ، وتلك التى يمكن فيها اثبات بقايا لأشكال الحضارة القديمة ، تحت الطبقة الكثيفة للأفكار المحمدية ، وتحت أنقاض القرون ، وان كانت هذه البقايا غالبا ما تكون أيضا مشوهة الى حد الطمس(١٩) .

وبهذه الطريقة نشأت صورة على شاكلة الفسيفساء وان كانت فى الغالب أيضا صورة غير تامة - للتأثيرات الأجنبية على الاسلام . وقد

---

(١٩) سبق أن أشرنا الى الأسلوب الخاطىء للمستشرقين فى تناولهم للاسلام كدين من حيث البحث عن التأثيرات الأجنبية عليه بناء على فرضيات باطلة . وهنا نشير الى أنه اذا كان المقصود بيان أن هناك تأثيرات أجنبية على حضارة الاسلام فان الأمر يختلف ، اذ أن الاسلام لم يرفض أى عنصر من العناصر الايجابية التى وجدها فى الحضارات السابقة . ومن هذا المنطلق لم يرفض المسلمون ما وجدوه فى حضارة غيرهم نافعا لهم فى مسيرتهم الحضارية فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، والمبدأ القرآنى يقول : « **فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** » (الرعد : ١٧) .

اقتصر كريمر هنا على عصور الخلافة ، وحاول وصف بعض التحولات التى لها أهمية أكثر من غيرها ، والتى حدثت بتأثير من الأفكار الأجنبية ، وهى ليست مجرد تحولات دينية ، وانما هى أيضا تحولات اجتماعية وتاريخية حضــارية .

* * *

٧ ــ سنوك هورجرونجه (Snouck Hurgronje) :

فى عام ١٨٨٦ نشر بحث اساسى لــ « سنوك هورجرونجه »(٢٠) بعنوان (الاســلام De Islam) فى المجلة الهولندية (De gids) وهو عبارة عن عرض كلاسيكى لتطور العقل الاسلامى . فبعد القاء نظــرة عامة قصيرة على تاريخ البحوث المتعلقة بحياة محمد من (هوتنجر Hottinger) (٢١) الى (نولدكه Noeldeke) (٢٢) يقــدم سنوك هورجرونجه فى البداية نبذة عن حياة محمد وتعاليمه .

---

(٢٠) سنوك هورجورونجه (١٨٥٧ ــ ١٩٣٦) مستشرق هولندى زار مكة عام ١٨٨٤ منتحلا اسما اسلاميا هو عبد الغفار ، وأقام هناك فى سوق الليل مدة خمسة أشهر ثم غادرها قبل موسم الحج ــ عين أستاذا للعربية فى جامعة ليدن (١٩٠٧ ــ ١٩٢٧) وكان يجيد اللغة العربيـــــة اجادة تامة ــ يعد عميد العربية بعد جولدتسيهر وفى طليعة الرواد فى دراسات الفقه الاسلامى والأصول والتفسير والحديث فى أوروبا . ومن مؤلفاته : الحج الى مكة (بالهولندية) ، والمهدى (بالألمانية) ، ومكــة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر ــ فى جزئين بالألمانية ــ وقد وصفها وصفا دقيقا شاملا مع خرائط عديدة ــ وله بحوث كثيرة عن طابع الاسلام ، وانتشاره ، وابراهيم فى القرآن ، والاسلام والمشكلة العنصرية ، وسياسة النبى الدينية ، ومجموعة دراسات عن الاسلام وتاريخه وشريعته ، وبلاد العرب وتركيا والهند ، واللغة والأدب .

(٢١) هوتنجر (١٦٢٠ ــ ١٦٦٧) مستشرق سويسرى ، ولد فى زيوريخ ، عمل أستاذا للغات السامية فى كل من ريوريخ وهايدلبرج . ومن مؤلفاته : تاريخ الشعوب الشرقية ، وفهرس المصنفات الشرقية (هايدلبرج ١٦٥٨) ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحــث شرقية .

(٢٢) تيودور نولدكه (١٨٣٦ ــ ١٩٣٠) مستشرق ألمانى ، عمل أستاذا للغات السامية والتاريخ الاسلامى فى جامعــات جوتنجن وكيــل واشتراسبورج .

وفى الفصل الثانى يتناول صراع « محمد » مع اليهودية والمسيحية فى المدينة ، وتصالحه مع الوثنية العربية (٢٣) أما الفصل الثالث فيخصصه للحديث عن كتاب الله وسنة رسوله وقضية الاجماع ، وفى الفصل الرابع يصور عقيدة الاسلام ، ويتحدث عن علم العقيدة ، ويتناول التصوف على وجه الخصوص ، أما الفصل الختامى فانه يعرض فيه لعلاقة الاسلام بأوروبا ، وواجب أوروبا تجاه الاسلام ٠

وقد قدم سنوك هورجرونجه فى كتابه (Groote Godsdiensten) عرضا شعبيا شاملا للدين الاسلامى ، اشتمل على الانتشار ، والبدايات ، وتقسيمات الفرق ، والتطور التشريعى ، ومضمون التشريع ، والتطور العقدى ، ومضمون الكتب الدينية ، والتصوف ، وتقديس الأولياء ٠

وتعد ايضا المحاضرات الأربع التى القاها « سنوك هورجرونجه » بناء على طلب من « اللجنة الأمريكية للمحاضرات المتعلقة بتاريخ الأديان » ذات قيمة كبيرة ، وفى هذه المحاضرات يتحدث عن مصدر الاسلام ، وعن تطوره الدينى ، وتطوره السياسى ، وعلاقة الاسلام بعالم الأفكار فى العصر الحديث ٠

* * *

٨ ـ اجناتس جولدتسيهر (Ignaz Goldziher) :

ان أعظم الباحثين فى الاسلام فى العصر الحاضر ـ بجانب « سنوك هورجرونجه » هو « اجناتس جولدتسيهر »(٢٤) ٠ وأول مؤلفاته

=

وكان متضلعا فى العربية واللغات السامية والفارسية والتركية والحبشية والآرامية ، بالاضافة الى اتقانه لليونانية والألمانية والانجليزية والفرنسية والأسبانية والايطالية ٠ ومن مؤلفاته : تاريخ القرآن ، وفكرة عامة عن حياة محمد . وقد عاون شبرنجر فى كتابه سيرة محمد ، وأسهم فى نشر تاريخ البلدان للطبرى ، وترجم الى الألمانية الجزء الخاص بالساسانيين ، وله أيضا قواعد اللغة السريانية ، وتاريخ الشعوب السامية ، ودراسات فى قواعد اللغة العربية ، وعشرات البحوث والمقالات عن شعراء العرب واللغات الشرقية والدراسات الاسلامية ، وترجمات لبعض المؤلفات العربية .

(٢٣) يقصد صلح الحديبية .

(٢٤) اجناتس جولد تسيهر (١٨٥٠ — ١٩٢١) مستشرق من أصل

=

الكبيرةعنتاريخ الدين المحمدى ــ الذى كتبه للأسف باللغة المجرية ــ لا يقدم صورة كاملة للاسلام وتطوره ، ولكنه يقدم نظرة اكثر عمقا فى الظواهر الجزئية ، وعوامل تاريخ الدين المحمدى ، ويحتوى هذا الكتاب بصورة تقريبية على ما يأتى :

١ ــ دين الصحراء والاسلام .

وهنا يريد جولدتسيهر ــ على العكس من (دولنجر Doellinger) و (شـــبرنجر Sprenger) و (كريل Krehl) (٢٥) و (رينان Renan) (٢٦) ــ أن يثبت الدعويين التاليتين :

مجرى . عمل أستاذا فى جامعة بودابست ، سافر الى سوريا وصحب هناك الشيخ طاهر الجزائرى ثم رحل الى فلسطين ومصر والتقى هناك بالشيـــخ محمد عبده وغيره من مشايخ الأزهر ــ يعد من أعلام المستشرقين المشهود لهم بطول الباع ، كما يعد من كبار أئمة الدراسات الاسلامية فى أوروبا . كتب العديد من المقالات عن الاسلام فى المجلات الآسيوية والغربية بالألمانيـــة والانجليزية والفرنسية والروسية والمجرية والعربية . أما أشهر مؤلفاتـــه فقد كتبها بالألمانية والانجليزية والفرنسية . وكانت مكتبته تضم ما يربو على أربعين ألف مجلد .

ومن مؤلفاته : العقيدة والشريعة فى الاسلام (ترجمه الى العربية د . محمد يوسف موسى وآخرون) ، ودراسات اسلامية ــ فى جزئين ــ ومحاضرات فى الاسلام ، وتاريخ مذاهب التفسير الاســـلامى (مترجم الى العربية) .

وقد نشر بعض المخطوطات العربية منها : فضائح الباطنية للغزالى ، ونقل الى الألمـــانية بعض المؤلفات العربية . وله دراسات اسلامية عديدة عن القدرية ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والحلاج ، والبخارى ، والاجماع ، والبدعة ، وتكريم الأوليـــاء فى الاســـلام ، والحديث النبوى ، والتقية فى الاســـلام .

(٢٥) كريل (١٨٢٥ ــ ١٩٠١) مستشرق ألمـــانى ، له كتاب عن حياة محمد ودعوته (١٨٨٥) ، وقد شارك فى نشر الجزءين الأولين من نفح الطيب للمقريزى (١٨٥٥ ــ ١٨٦١) ، ونشر من الجامع الصحيح للبخارى ثلاثة أجزاء (ليدن ١٨٦٢ ــ ١٨٦٨) .

(٢٦) أرنست رينان (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢) فيلسوف ومفكر فرنسى ، درس اللاهوت وتضلع فى اللغات الشرقية وأخذ بمذهب حرية الفكر ، ورحل الى الشرق ونزل لبنان وعنى بالعقائد الاسلامية .

(أ) محمد لم يكن تعبيرا عن روح الشعب العربى وانما كان على النقيض من هــذه الروح ·

(ب) وهذا ما جعل من سكان الصحراء من البدو الخصوم الطبيعيين لتعاليم النبى ·

٢ ــ مأثورات الاسلام : عرض لحقيقة السنة النبوية ونشأتها وجمعها ، تلك الســنة التى لولاها لكان القــرآن لا يقدم الا صــورة غير مكتملة للاســلام (٢٧) ·

٣ ــ تقديس الأولياء وبقايا الأديان القديمة فى الاســلام : مفهوم الولى وتطور التقديس الممنوح للأولياء والعقيدة الشعبية المتعلقة بذلك ·

٤ ــ العمارة فى الاســلام ·

٥ ــ حياة الجامعات المحمدية : الجامع الأزهر فى القاهرة أشهر جامعات الاســلام ·

٦ ــ آراء خاطئة عن الاســلام ·

= ومن مؤلفاته : ابن رشد والرشدية (مترجم الى العربية) ، وتاريخ اللغات السامية ، وتاريخ الأديان ، وحياة يسوع ، وتقدم الآداب الشرقية .

(٢٧) السنة ــ كما يقول الامام الشاطبى ــ « راجعة فى معناها الى الكتاب ، فهى تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره » ولا تجد فى السنة أمرا الا والقرآن قد دل على معناه دلالة اجمالية أو تفصيلية . والسنة ليست قاضية على الكتاب وانما هى مفسرة له وشارحة لمعانى أحكامه . (راجع الموافقات للشاطبى ج ٤ ص ١٠ ــ ١٢) .

والأمر الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان فى هذا الصدد هو أن ما جاء فى السنة الصحيحة من بيان أو تفصيل أو شرح لمـــا فى القرآن أو حتى ما جاء فيها من أحكام لم ترد فى القرآن لم يكن من عنديات الرسول وانما كل ذلك مرده الى الله . فالسنة شأنها شـــأن الكتـــاب فى أنها من عند الله وقد أشار اليها القرآن فى كثير من الآيات بلفظ الحكمة **« واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به »** (البقرة : ٢٣١) .. **« واذكـــرن ما يتلـــى فى بيـــوتكن من آيـــات الله والحكمـــة »** (الأحزاب : ٣٤) ــ .. وجمهور المفسرين على أن المراد بالحكمة هو السنة . ويقول الامام الشافعى أيضا : « كل ما سن رسول الله مما ليس فيه كتاب ، وفيما كتبنا فى كتابنا هــذا ، من ذكر ما من الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة دليل على أن الحكمة سنة رسول الله » ــ الرسالة ص ٣٢ .

ويقدم لنا جولدتسيهر فى كتابه « دراسات محمدية » سلسلة من البحوث المتفرقة التى يربط بينها رباط وثيق عن تاريخ الاسلام فى القرنين الأولى ، وموضوع هذه البحوث هو :

(أ) صراع المبادىء الاسلامية مع النظرة العربية الموروثة الى الحياة ، تلك النظرة التى تتعارض معها تعارضا صارخا الى حد ما .

(ب) النصر التدريجى لفكرة المساواة ـ التى تعد فكرة أساسية من افكار الدين الجديد ـ وذلك عن طريق النهوض الذى حققه الناس وحققته شعوب كاملة تحت السيادة الأجنبية ، ويخص بالذكر من هذه الشعوب الفرس .

ويبحث « جولدتسيهر » كيف اضطرت عقلية العرب ، ونظرتهم الى الحياة ، ووضعهم السياسى لاتخاذ موقف ازاء العقيدة الجديدة ، وأى تأثيرات مارستها خصوصيات العقلية العربية على التطور الداخلى للاسلام فى عصر الخلفاء ، وقد اهتم « جولدتسيهر » اهتماما خاصا بتاريخ الحديث النبوى (ص ٢٣٣ وما بعدها) ويتناول مسألة تقديس الأولياء (ص ٣٠٣ وما بعدها) .

ويقدم لنا « جولدتسيهر » عرضا ممتازا للدين الاسلامى فى سلسلة « حضارة العصر الحاضر » ، فبعد مقدمة يصور فيها دين العرب قبل الاسلام ، ونظرتهم الى الحياة يعطى « جولدتسيهر » فى خطوط عريضة قوية تاريخ تطور الاسلام فى ستة فصول (على النحو التالى) :

١ ـ حياة محمد وتعاليمه .

٢ ـ نمو الاسلام .

٣ ـ تكوين علم العقيدة الاسلامى وتأثير العناصر الفارسية فى عصر العباسيين (٧٥٠ ـ ١٢٥٨) .

٤ ـ الانقسامات العقدية وتكوين الفرق الأولى .

٥ ـ المهدية .

٦ ـ الفرق الجديدة .

ويشهد الكتاب لمؤلفه بالاطلاع الواسع والتمكن من الموضوع . وفى كل مكان يعتمد « جولدتسيهر » على المصادر ، وفى كل مكان يجعل حملة التقدم الفكرى انفسهم يتحدثون فى اقتباسات قصيرة وسديدة .

وتكملة لهذا التناول الرائع يقـدم جولدتسيهر ايضا على الصعيد الفلسفى بـحثا بعنوان : « الفلسفة الاسلامية واليهودية فى العصر الوسيط » فى سلسلة « حضارة العصر الحاضر » .

واخيرا يقـدم « جولدتسيهر » تلخيصا لعمله طوال حياته ، على صعيد تاريخ الدين الاسلامى فى كتابه « محاضرات عن الاسلام » وبناء هذه المحاضرات تاريخى وليس نسقيا .

فنحن نرى الأفكار تنشأ وتنمو وتؤثر وتفنى . وهنـا يفترض ان الأحداث الخارجية معروفة .

وهكذا ، لا يقدم لنا فى الفصل الأول الذى عنوانه « محمد والاسلام » شيئا عن الظروف الخارجية لحياة النبى ، ولكنه بدلا من ذلك يقدم لنا الشىء الكثير عما هو اكثر أهمية ، اى عن محمد الانسان المتدين ! ، ويتناول فى الفصـل الثانى « تطور التشريع » ، اما تاريخ الحديث النبوى ، الذى ندين فيه بالفضل للمؤلف ، فانه يقدمه لنا هنا فى خطوط عريضة مصحوبا ببعض الأسانيد الجديدة .

ويبرز فى وضوح شديد كيف تحول الدين فى عهد العباسيين الى « شأن مركزى من شئون الدولة » وبعد ذلك يقدم لنا وصفا لبدايات التشريع ، ثم يكتب بعـد ذلك ـ بولوع خاص ـ الفصـل الثالث عن « التطـور العقدى » ، اما الفصـل الرابع فقد خصصه للحـديث عن « الزهد والتصوف » .

وهنا يعرض لمنشأ الزهد ويعرض للتأثيرات « الأفلاطونية الحديثة » « والبوذية » ، وقد خصص الفصـلين الأخيرين للحديث عن « شـئون الفرق » و « الصور المتأخرة » ، ويتحدث على وجه الخصوص باسهاب عن الشـيعة ! كما يعرض ايضـا عرضا عميقا لكل من « الوهابيـة » « والبابية » ، ويختم الكتاب بمحاولات وامكانيات حدوث تفاهم بين السنة والشـيعة .

وهناك تكملة صغيرة لهذا الكتاب يقدمها فى بحثه عن « الاتجاه التوحيدى والتفرق فى الاسلام » .

وفى البداية يعرض « جولدتسيهر » فى هذا البحث للمجال الواسع الذى يوفره الاسلام للخلاف فى الراى ، على صعيد العبادات والتشريع

والعقيدة ، ولكنه يبين بعد ذلك كيف تكون بالتدريج رد الفعل ضد هذه التمزقات ، فكلما ازداد الاعتراف بجواز الاختلافات من ناحية ، كلما ازداد من ناحية أخرى وجوب التأكيد على ذلك الذى يحظى بالاتفاق من جانب كل الجماعة الاسلامية » ، ومن هذا الاعتبار انبثقت نظرية « الاجماع » انبثاقا ذاتيا بوصفها معيارا للتصحيح الدينى .

وتشتمل موسوعة (Jewish Encyclopedia) أخيرا على مقال ممتاز عن « الاسلام » بقلم « جولدتسيهر » يدل على اطلاع واسع .

* * *

٩ ـ ماكدونالد (Duncan B. Macdonald) :

أما «دنكان ب . ماكدونالد» (٢٨) الأستاذ بمعهد اللاهوت بهارتفورد (connecticut) فقد وضع بحوثه وخبراته الغنيـة على صعيد تاريخ الدين الاسلامى فى ثلاث مؤلفات أساسية :

وأول هـذه المؤلفات هو « تطور علم الكلام والفقـه ، والنظرية الدستورية فى الاسلام »
(Development of Muslim Theology; Jurisprudence and Constitutional Theory)

وفيه يلقى نظرة شاملة على تطور علم الكلام ، وتطور المؤسسات التشريعية ، والنظرية السياسية فى الاسلام ، ويتناول القسم الأول : موضوع تطور مؤسسات الاسـلام السياسية ، منـذ النشأة حتى ظهور الحركة الحديثة للوهابيين ، واتجاه الوحدة الاسلامية .

---

(٢٨) ماكدونالد (١٨٦٣ ــ ١٩٤٣) مستشرق أمريكى ، أشرف على القسم الاسـلامى بهارتفورد بأمريكا لسـنوات طويلة وأنشأ مجلة عالم الاسـلام بمعاونة صمويـل زويمر ، كما أنشأ بمعاونـة سارتون مجلة ايزيس .

وله دراسـات عديدة عن الدين الاسـلامى وعلم الكلام والتصوف والفلسفة والفقه ودراسات فى ألف ليلة وليلة والشعر العربى واللهجـات العربية والعلوم الطبيعية فى الاسلام . وقد قام بترجمة كثير من النصوص العربية الى الانجليزية منها رسـالة النفس لابن سـينا ، وله كتاب فى (عرض المسيحية للمسلمين) ، ويصدر ماكدونالد فى كتاباته عن روح تبشيرية واضـحة .

وفى القسم الثانى : يتناول « ماكدونالد » مبادىء التشريع المحمدى وتطوره ، فى صلتها بتطور المؤسسات السياسية ، ويبين بصفة خاصة تأثير القانون الرومانى ، ويكشف عن وجوه الشبه(٢٩) ٠

وفى القسم الثالث : يتناول تاريخ الحركات الكلامية والفلسفية فى الاسلام ، وفضلا عن ذلك يعرض للفرق الكلامية وللمسائل التى طبعت كلا منها ، ويصور تكوين « المدرسة الاعتزالية » وتطورها بكل الفروق الدقيقة المعقدة ، حتى حدوث التصالح بين النزعة العقلية والنزعة السنية ، بفضل علم الكلام الأشعرى ، كما يتناول تأثير الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية ، والمعارضة التى لقيتها هذه الفلسفة من جانب « الغزالى » المتكلم الكبير ، ويصف الأصوات الصوفية للنزعة التصوفية المحمدية والحكمة الالهية ، والمحاولات المتجددة باستمرار للعودة الى التقاليد الأولى ٠

ويعد القسم الخاص بتصوير التصوف من احسن اقسام الكتاب ٠ وينبىء التصوف ــ بناء على وجهة نظر ماكدونالد ــ عن تأثيرات افلاطونية حديثة ، وليس عن تأثيرات بوذية ، كما يذهب الى ذلك ايضا كل من نيكلسون ، وبراون ، وكارادى فو ٠

---

(٢٩) ذهب فريق من المستشرقين الى الزعم بتأثر الشريعة الاسلامية بالقانون الرومانى ، جريا على عادتهم فى رد كل شىء فى الاسلام الى مؤثرات أجنبية . وقد ناقش هذا الزعم وأبطله فريق من العلماء منهم الأساتذة عبد الرزاق السنهورى وشفيق شحاته ومحمد يوسف موسى ومحمد سلام مدكور وغيرهم . يقول الدكتور السنهورى فى معرض مقارنته بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى : « فان هذا القانون بدأ عادات ... ونما وازدهر عن طريق الدعوى والاجراءات الشكلية . أما الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتابا منزلا من عند الله ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقى والأحكام الموضوعية ... الا أن فقهاء المسلمين امتازوا عن فقهاء الرومان ، بل امتازوا عن فقهاء العالم باستخلاصهم أصولا ومبادىء عامة من نوع آخر هى أصول استنباط الأحكام من مصادرها وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه » . (أصول القانون ص ١٣٢) . فالصلة ــ كما يقول العالم الفرنسى « زيس Zeys » منقطعة تماما بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى لاعتماد هذا على العقل البشرى بينما تقوم الشريعة الاسلامية على الوحى الالهى .. فكيف يتصور التوفيق بين نظامين قانونيين وصلا الى هذه الدرجة من الاختلاف ؟

(انظر : المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان ــ مكتبة القدس ــ بغداد ١٩٨١ ص ٧٣ ــ ٨٩) .

والصحيح هو ان الصوفية قد نشأت تحت تأثيرات قوية مسيحية ، وافلاطونية حديثة ، غير انه لا يمكن تجاهل التأثير البوذى فى التطور المتأخر للصوفية (٣٠) .

---

(٣٠) لابد لنا هنا من أن نشير الى أمرين هامين :

أولا : التصوف بوجــه عام من الأمور التى تتعلق بصفة أساسية بالشعور والوجدان . والنفس الانسانية واحدة لدى البشر على الرغم من اختلاف الشعوب والأجناس . ومن هذا المنطلق نجد أنه يمكن أن تصل نفس بشرية عن طريق المجاهدات والرياضات الروحية الى ما تصــل اليــه نفس أخرى دون أن يكون قد تم بينهما أى اتصال .

وهذا يعنى وحدة التجربة الصوفية ولا يعنى مجرد النقل أو التأثر .

ثانيا : هناك نوعان من التصوف فى الاسلام : أحدهما هو التصوف السنى الذى يمثله أغلب متصوفة الاسلام . وهذا النوع اسلامى النشأة والتطور ترسم فى خطاه حياة النبى وصحابته والزهاد الأوائل ، وثانيهما هو التصوف الفلسفى وهو النوع المتأخر الذى يمكن أن يكون قد تأثر بطريقة أو بأخرى بعناصر أجنبية . ولسنا ننكر أن يكون بعض متفلسفة الصوفية قد تأثروا بمؤثرات أجنبية ، ولكن يجب أن يكون واضحا أن هــذا النوع من التصوف قد ظهر بعد أن كان زهد الزهاد قد استقر فى القرنين الأولين من الهجرة على أساس اسلامى خالص ، وأصبح دعامة لكل تصوف لاحق .

وعلى هذا فان ما ذهب اليه الأوائل من المستشرقين من رد التصوف الاسلامى كله الى أحد المؤثرات الأجنبية ما بين افلاطونية حديثة أو مسيحية أو فارسية أو هندية كان تعميما خاطئا . وقد تنبه الى ذلك كثير من متأخرى المستشرقين . فقد عدل نيكلسون موقفه الذى نشير اليه بفانبوللر ، وقرر أنه لا ضرورة للتحرى عن أصل مبادىء التصوف خارج دائرة الاسلام ، كما بحث ماسينيون مصطلحات الصوفية وأرجعها الى مصادر أربعة تتمثل فى القرآن وهو أهمها ، وفى العلوم العربية الاسلامية كالحديث والفقه وغيرهما ، وفى مصطلحات المتكلمين الأوائل ، وأخيرا فى اللغة العلمية التى تكونت فى الشرق فى القرون الستة المسيحية الأولى من لغات أخرى كاليونانية والفارسية وغيرهما . كما قرر أحد المستشرقين المعاصرين وهو « سبنسر ترمنجهام Spencer Trimingham » أن التصوف الاسلامى تطور طبيعى داخل حدود الاسلام ولا يمت الا بصلة طفيفة للمصادر غير الاسلامية .

(راجع : مدخل الى التصوف الاسلامى للدكتور أبو الوفا التفتازانى — دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٦ — ص ٢٩ — ٤٤) .

ويورد « ماكدونالد » ملحقا يقدم فيه — فى ترجمة إنجليزية جيدة — سلسلة من قضايا العقيدة المحمدية التى كانت تشكل اساس التعليم ، واساس الدراسة العقدية ·

واذا كان « ماكدونالد » قد عرض فى هذا الكتاب علم العقيدة الاسلامى فانه يصور فى كتابه الثانى «الموقف الدينى والحياة فى الاسلام» : (The religious Attitude and life in Islam.) السلوك الدينى وحياة المسلمين ، وقد استرشد فى ذلك بكتاب وليم جيمس(٣١) فى تنوع الخبرة الدينية (Varieties of religious Experience) . والأمر الجدير بالاعتبار فى هذا الكتاب الثانى لماكدونالد : هو اثبات أن التصوف يعد القوة الأكثر حيوية فى الدين الشخصى للمسلم ، والشىء الممتاز ايضا هو ما يذكره « ماكدونالد » عن علاقة الشرقى بما فوق الطبيعة · فالفرق بين الشرق والغرب لا يتمثل فى سرعة التصديق لدى الشرقى ، وانما فى عدم قدرته على بناء نسق ثابت منيع للظواهر ، فهو لا يعرف « قوانين طبيعية » ·

والذى يعرفه هو « ما فوق الطبيعة » ، وهو لا يحاول أن يخضعه لقانون ، فكل شىء ممكن(٣٢) ·

---

(٣١) وليم جيمس (١٨٤٢ — ١٩١٠) فيلسوف أمريكى ، يعد الممثل الرئيسى للنزعة البراجماتية فى الفلسفة . وله عدا ذلك نظريات فى الدين وعلم النفس والفسيولوجيا . ومن كتبه المترجمة الى العربية كتاب (ارادة الاعتقاد) الذى قام بترجمته المرحوم الدكتور محمود حب الله .

(٣٢) اذا كان المقصود بالشرقى هنا المسلم على وجه الخصوص فاننا نرى هنا تفسيرا خاطئا للعقيدة الاسلامية . فالزعم بأنه غير قادر على بناء نسق ثابت للظواهر لعدم معرفته بما يسمى بالقوانين الطبيعية زعم باطل . فالله فى الاسلام قد خلق هذا الكون ونظمه وسيره حسب خطة محكمة ونظام دقيق . والكون كله يسير وفق سنن الله ، وسنن الله لا تتبدل « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » (الأحزاب : ٦٢) وهذه السنن الالهية هى ما يعرف بالقوانين الطبيعية . فالمسلم اذن يعترف بالقوانين الطبيعية ويعترف بأنها ثابتة ، لأن الله أراد لها ذلك ولأنه هو خالقها . من هنا يستطيع المسلم أن يبنى نسقا ثابتا للظواهر الطبيعية لأنها لا تسير فى اعتقاده على غير هدى ، غير أنه لا يغيب عن ذهنه أن هذه القوانين الطبيعية من صنع الله . فأى ضير فى هذا ؟ !!

أما الكتاب الثالث وهو جوانب مختلفة فى الاسلام ، فيقوم على محاضرات القاها « ماكدونالد » فى المعهد اللاهوتى فى هارتفورد . وغاية هـذه المحاضرات أن تكون بمثابة مدخل لدراسة الاسلام الحاضر ، بالنسبة لهؤلاء الذين سيكونون مبشرين فى المستقبل .

وقد رسم المؤلف فى عشر محاضرات صورة واضحة وضوحا رائعا للشرق الاسلامى ، وشخص مؤسس الدعوة ، وتعاليمه ، والقرآن وعلم الكلام المحمدى ، والميتافيزيقا المحمدية ، والتصـوف ، والدراويش ، والموقف المحمدى تجاه المسيح ، والانجيل المسيحى والتبشير المحمدى ، والتربية والحياة الباطنية .

والنتيجة الرئيسية لأبحاثه : هى انه من الناحية العملية يعد كل الناس الذين يفكرون تفكيرا دينيا متصوفة ، وأنه يجب البحث عن الدين الاسلامى الحقيقى بين الدراويش(٣٣) . ولكن هناك نسبة ضئيلة من هؤلاء الدراويش يعيشون منقطعين لحياة الزوايا ، اما الغالبية منهم فانهم يعيشون فى عالم الناس ، ولكنهم مرتبطون بالطرق الصوفية عن طريق عهد ، أو نذر معين لأوقات معينة ، مثل أصحاب طريقة (الترتسيارير Tertiarier) (٣٤) فى العصور الوسطى .

وهذا الكتاب من الكتب التى ينصح بقراءتها على وجه الخصوص ، بوصفه دليلا عمليا لدراسة الاسلام الحديث ، وبوصفه عونا ذكيا للمبشرين فى تنصير الجماعات المحمدية .

* * *

---

(٣٣) لا يجوز البحث عن الدين الاسلامى الحقيقى بين الدراويش أو غيرهم من فرق اسلامية مختلفة ، وانما يجب أن يبحث عنه فى كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، فكل ما وافقهما فهو اسـلام وكل ما خالفهما فليس من الاسلام فى شىء ، فالاسلام ممثلا فى القرآن والسنة الصحيحة هو الحكم الفصل وهـو المقياس الأوحد الذى يحكم به على كل ما عـداه ، ولا يجوز اسلاميا ولا علميا قلب الحقائق واعتبار الفرق الاسلامية الشائعة أيا كان عدد أتباعها هى الحاكمة على الاسلام . وقد درج كثير من المستشرقين على الخلط بين الاسلام وواقع المسلمين ، ولا يزال يتبنى هـذا الاتجاه الخاطىء عدد من المستشرقين المعاصرين .

(٣٤) الترتسيارير هى احدى الطرق المسيحية الكاثوليكية التى تضم جماعات من الرجال أو جماعات من النساء بغرض السعى نحو حياة مسيحية مثالية تحت ارشاد الطريقة .

١٠ ـ مرجليوث (Margoliouth) :

عرض « مرجليوث »(٣٥) فى محاضرات (هيبرت (Hibbert) فى عام ١٩١٣ العناصر التى أسهمت فى صنع المذهب المحمدى الأصلى. ويعد القرآن أساس الاسلام ، وفى اثناء حياة النبى كان يوحى اليه من وقت الى آخر بآيات من النموذج الأصلى السماوى للقرآن ، وقد جعله ذلك فى وضع يستطيع فيه أن يفصل فى المسائل اليومية التى تعرض عليه بوصفه زعيم الجماعة الجديدة .

وبعد وفاة محمد قام الخليفة الأول بجمع كل آيات القرآن ، وبعد ذلك بحوالى اثنتى عشرة سنة تم اخراج نسخة رسمية للقرآن .

ولكن على الرغم من الاعتقاد القائل بأن القرآن يعد وحيا كافيا لكل العصور ، بالنسبة للعقيدة ، والأخلاقيات ، فانه قد برزت آلاف المسائل التى لم ترد لها اجابة فى القرآن ، ومن اجل ذلك كان لابد من اكماله

---

(٣٥) د . س . مرجليوث (١٨٥٨ ــ ١٩٤٠) مستشرق انجليزى ، يعد من أشهر أساتذة العربية ومن بين أئمة المستشرقين ، كان أستاذا لكرسى اللغة العربية فى جامعة أكسفورد منذ عام ١٨٨٩ ، كما كان يتمتع بعضوية عدة مجامع علمية كالمجمع اللغوى البريطانى والمجمع العلمى العربى بدمشق والجمعية الشرقية الألمانية . وله دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه والأدب العربى وأصوله . وقد قام بترجمة الكثير من النصوص العربية وتحقيق عدد من المخطوطات العربية .

ومن بين مؤلفاته : محمد ونهضة الاسلام (١٩٠٥) ، والاسلام (١٩١١) ، وانتشار الاسلام (١٩١٤) ، وجنوب الجزيرة العربية والاسلام ، والزندقة فى الاسلام والمسيحية ، وأصول الشعر العربى .

والبحث الأخير هو الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى كتابه عن الشعر الجاهلى الذى صدر عام ١٩٢٦ . ولم يشر بفانمولار هنا الى كتاب أصول الشعر العربى وما أثاره من ردود فعل مختلفة نظرا لأن مرجليوث قد نشر بحثه عام ١٩٢٥ أى بعد صدور كتاب بفانمولار بعامين . وقد قام الدكتور يحيى الجبورى بترجمة بحث مرجليوث الى العربية وقدم له بمقدمة قيمة عرض فيها « فكرة الانتحال : كيف نشأت ، وكيف عالجها الكاتبون قديما وحديثا والام انتهت » . وقد صدرت هذه الترجمة تحت عنوان : أصول الشعر العربى ــ مؤسسة الرسالة : بيروت الطبعة الثانية ١٩٨١ .

بطرق شتى : عن طريق التشريع ، والطقوس ، والأخلاق ، وعلم الكلام ، والفلسفة ، والتاريخ(٣٦) .

وقد كانت المهمة التى أخذها « مرجليوث » على عاتقه هى ارجاع هذه الأمور المكملة الى مصادرها الأصلية .

وقد قدم « مرجليوث » بالاضافة الى ذلك فى دليل كمبردج للعلوم والآداب : (Cambridge Manuals of Science and Literature) عرضا شعبيا جيدا للاسلام وتاريخه بوصفه صورة من صور الدين والحضارة .

* * *

(٣٦) لقد انبثقت النهضة العلمية التى شهدتها الأمة الاسلامية أساسا من منطلق أن القرآن هو مركز الدائرة لكل الجهود العلمية ، فكانت كلها جهودا من أجل خدمته والحفاظ عليه ومحاولة فهمه وادراك مقاصده . وقد راعى الاسلام ما سوف يجد من تطورات فى حياة الانسان وما سيطرأ على حياة المجتمعات من ظروف لم يكن لها نظير من قبل ، فلم يشأ أن يسد أمامه المنافذ ويكبل عقله ويجمد تفكيره ، وانما أعان الاسلام المسلم وشجعه على تكييف حياته طبقا لظروف العصر الذى يعيش فيه مع الحفاظ فى الوقت نفسه على الأسس الاسلامية الثابتة .

ومن المعروف أن هناك فى الاسلام ما يسمى بالأصول والفروع أو الثوابت والمتغيرات . فالثوابت أو الأصول لا مجال فيها للتعديل أو التغيير ، أما الفروع فهى مجال التغيير أو التعديل طبقا لظروف العصر ، على أساس من القواعد الاسلامية الثابتة . فالحياة الاسلامية الصحيحة اذن لا تبتعد على الاطلاق فى ظل المتغيرات المختلفة عن أصولها وقواعدها الأساسية . ومرجليوث لم يفهم هذه المرونة التى يقصدها الاسلام فى الأمور الفرعية وفهم أن هناك قصورا فى القرآن كان فى حاجة الى اكمال ، وهذا أمر غير وارد اطلاقا . فانطلاق المسلم فى بناء نهضة علمية شملت الفقه الاسلامى بمدارسه المختلفة وعلم الكلام والفلسفة والتاريخ والأخلاق وغير ذلك من علوم دينية أو دنيوية كان استجابة أصيلة لنداء القرآن الذى حض على العلم ورفع من شأن العلماء واحترم العقل الانسانى وشجعه على السير فى طريق البحث والتأمل والابداع . وكان الاسلام فى كل ذلك حانيا عليه الى أقصى الحدود حين قرر أن المسلم اذا اجتهد فأخطأ فله أجر واذا اجتهد فأصاب فله أجران .

١١ ـ مارتين هارتمان (Martin Hartmann) :

اما « مارتين هارتمان»(٣٧) ـ الأستاذ بمعهد اللغات الشرقية فى برلين ، والذى توفى منذ وقت قصير ـ فاننا مدينون له بالفضل ، لبحوثه القيمة عن الدين الاسلامى ، والقائمة على ملاحظات وخبرات خاصة ، وان اصطبغت ايضا فى بعض الأحيان بصبغة ذاتية بدرجة كبيرة .

ويقدم لنا « هارتمان » فى الباب الأول من كتابه « الاسلام »(٣٨) وهو القسم التاريخى ـ بعد نبذة قصيرة عن تاريخ العرب القديم ـ يقدم صورة لحياة « محمد » وتعاليمه ، على اساس من القرآن والأحاديث النبوية ويتتبع بعد ذلك تطور الجماعة الاسلامية ، من عصر الخليفة الأول « ابى بكر » الى مؤتمر (الجيسيراز Algeciras) (٣٩) .

اما الباب الثانى فقد خصصه للعقيدة والشريعة ، ويتضمن حصرا للمبادىء الأساسية للعقيدة وتكاليف العبادات .

---

(٣٧) مارتين هارتمان (١٨٥١ ـ ١٩١٨) مستشرق ألمانى . عمل مترجما ومستشارا للقنصلية الألمانية فى بيروت أكثر من عشر سنوات ، فأتقن العربية كأحد أبنائها ، ثم عين أستاذا للسريانية والدراسات الاسلامية فى برلين . وقام بعد ذلك برحلات الى سوريا ولبنان ومصر وتركستان . وقد شارك فى تحرير دائرة المعارف الاسلامية وأسس الجمعية الشرقية الألمانية للدراسات الاسلامية ، وكان يعد عميد هذه الدراسات فى ألمانيا . وله دراسات عديدة فى اللغة العربية والأدب العربى والعروض والقوافى ودراسات عن الاسلام وتاريخه وثقافته ، وقام بتحقيق ونشر بعض المخطوطات العربية ، وترجم بعضها الى الألمانية . وله مئات المقالات فى مجلات مختلفة .

ومن مؤلفاته : الاسلام تاريخا وعقيدة وشريعة ، والشرق الاسلامى ـ فى جزئين ، والاسلام أفريقيا ، وتاريخ الاسلام فى الصين .

(٣٨) هو الكتاب الذى أشرنا اليه فى الهامش السابق تحت عنوان : الاسلام تاريخا وعقيدة وشريعة . وقد صدر عام ١٩٠٩ فى ليبتزج .

(٣٩) الجيسيراز تعد أول مدينة أوروبية احتلها العرب فى الأندلس عام ٧١١ م . تقع فى جنوب أسبانيا بالقرب من جبل طارق ، ويبلغ تعداد سكانها حاليا حوالى ٨٢٠٠٠ نسمة : وأما مؤتمر الجيسيراز (أو مؤتمر الجزيرة) فقد عقد فى عام ١٩٠٦ لتنظيم وضع فرنسا وأسبانيا فى المغرب .

وبعد ذلك يتحدث « هارتمان » على وجه الخصوص باسهاب عن الحق الخاص ، والحق العام ، وفقا للمذهب الشافعى ، وتشكل خاتمة الكتاب نبذة عن المجتمع الاسلامى ، وفصلا عن انتشار الاسلام ، مع ملاحظات تاريخية واحصائية قيمة .

والمعلومات الخاصة بمادة الكتاب عن حياة « محمد » وعن القرآن ، والعقيدة ، والتكاليف الدينية ، تستند على دراسة خاصة للمصادر ، وهى معلومات موثوق بها وان كانت أيضا غير كافية ، فهارتمان لم يخصص للحديث عن التصوف الا بضع سطور فقط ، مع أن التصوف يعد ذا اهمية قصوى ، وبدونه لا يمكن فهم الاسلام ، كما ان « هارتمان » لم يشر الى أمور السحر(٤٠) ، وبصفة خاصة نجد أن النسق الاجتماعى لمفهوم « الحاجة الى التجمع » (Gesellungen) لدى « هارتمان » يسود تناوله للموضوع كله ، وقد كان يجب عليه أن يبرهن أولا على صحة هذا النسق .

ويتجه هارتمان بكتابه « خمس محاضرات عن الاسلام »(٤١) الى الجمهور العريض .

يتحدث فى المحاضرة الأولى عن تاريخ ما قبل « محمد » ، وعن

---

(٤٠) من الخطأ الاعتقاد بأن الفهم الصحيح للاسلام يتوقف على فهم التصوف . فاذا كان المقصود بالتصوف هو الاتجاه الزهدى فى الاسلام أو التصوف السنى فان هذا قد انبثق من الاسلام نفسه ، وبالتالى فان فهم هذا التيار يتوقف على فهم الاسلام نفسه وليس العكس . وأما اذا كان المقصود بالتصوف هو تلك العناصر الأجنبية التى أقحمت على الحركة الصوفية فان فهم الاسلام لا يتوقف عليها بأى حال من الأحوال لأنها ليست من الاسلام فى شىء . وأما ادخال أمور السحر فى عرض الاسلام أو فى فهمه فانه لأمر يدعو الى الغرابة حقا . فقد قضى الاسلام على الخرافات والأوهام والشعوذة والكهانة وأفسح الطريق للعقل الانسانى ليفهم ويدرك ويميز بناء على أسس واضحة لا التواء فيها ولا اعوجاج .
فما شأن الاسلام بالسحر اذن ؟

وهكذا نجد أنه ليس هناك مبرر على الاطلاق لهذا النقد الذى وجهه بفاموللر الى هارتمان لأنه لم يذكر التصوف الا فى بضعة أسطر ولم يشر الى أمور السحر ... الخ .

(٤١) نشرت هذه المحاضرات فى ليبتزج عام ١٩٠٢ .

« محمد » والخلفاء الأول ، وفى المحاضرة الثانية : يتحدث عن القرآن وتعاليم « محمد » ، وفى المحاضرة الثالثة : يتحدث عن عصر ازدهار الخلافة وعن عصر الانهيار ٠

وهذه المحاضرات الثلاث ذات طبيعة تاريخية ، ولا تتجاوز المعلومات التى نجدها فى المراجع المتعلقة بذلك بما فيها كتابه هو عن « الاسلام » ٠

أما المحاضرتان الأخيرتان : الرابعة : عن نظم الدولة الاسلامية حتى العصر الحديث ، والخامسة : عن الوضع الراهن للعالم الاسلامى ، فانهما على العكس من ذلك ٠ يمكن ان يقدما أيضا شيئا لكل من المؤرخ ، وعالم الاجتماع ، والمستشرق – كما يرى هارتمان نفسه – ٠

* * *

١٢ – برونو فيوليت (Bruno Violet) : ...

يتحدث « فيوليت »(٤٢) فى محاضرة قصيرة عن مسألتين : المسألة الأولى هى : هل الاسلام دين مستقل ؟ والمسألة الثانية هى : هل هناك حضارة للاسلام تجمعها وحدة واحدة ؟

وتقول الاجابة : ان الاسلام دين يعبر بطريقة استقلالية ، عن شعور الاعتماد على الله ، وهو حضارة تنبىء عن وحدة معينة ، عن طريق الدين ، على الرغم من الاختلافات العميقة لحضارة العديد من شعوبه ، وبلاده ، وعصوره ٠

ولم يستخدم المؤلف للأسف الا مصدرا واحدا فقط وهو القرآن ، ولا شك أننا نحصل منه على الصورة الأقدم للاسلام ، ولكننا لا نحصل منه على صورة الاسلام الراهن(٤٣) ، وقد كان يتحتم على المؤلف عندما يعرض الاسلام الراهن أن يضم الى القرآن بحوثا دينية حديثة ، ومن خلال ذلك تنشأ صورة أخرى تماما ٠

* * *

---

(٤٢) برونو فيوليت مستشرق ألمانى ، وقد صدر له عام ١٩١٦ فى برلين كتاب عن الاسلام بعنوان : الدين الاسلامى وحضارته ٠

(٤٣) تعبير (الاسلام الأقدم) و (الاسلام الراهن) يوحى بأن هناك أنواعا مختلفة من الاسلام عبر التاريخ ، كما نسمع اليوم أيضا نغمة شعوبية تحاول أن تضفى شعوبيتها على الاسلام ، وعلى ذلك يمكن أن =

١٣ - شوبرت (Schubert) :

يبحث « شوبرت »(٤٤) الوضع الدينى الكنسى فى صلاته التاريخية ويتحدث فى بادىء الأمر عن « المسيحية فى أوساط الأديان » . وهنا يفرد فصلا خاصا عن « اديان التوحيد غير المسيحية ، وبصفة خاصة الدين الاسلامى » . وفى هذا الفصل يوجد أحدث البحوث فى صورة رائعة .

***

١٤ - زايتس (Seitz) :

يتناول « زايتس »(٤٥) شخصية محمد وصفاته ، وكذلك تأسيسه لدينه ، وذلك فى أغلب الأحيان فى صورة اقتباسات حرفية ، من المراجع الاسلامية الحديثة ، ويبرز فضائل محمد ، ولكنه يذهب الى أبعد من ذلك كثيرا فى ابراز جوانب ضعفه ، أى ابراز الحاسة الدنيوية « لرسول الله » وقصور التبرير الالهى « للنبى » . ويتعرض أيضا عمل « محمد » لمثل هذا النقد السلبى(٤٦) .

***

= تكون هناك عدة أنواع مختلفة من الاسلام تعيش فى العصر الواحد فى شعوب مختلفة ، والأسلوب العلمى الصحيح يفرض على الباحث أن يدرس الاسلام — الذى هو دين الله — فى مصادره الأصلية ، لا فى ممارسات الشعوب التى قد تقترب أو تبتعد عن الاسلام .

(٤٤) هانز فون شوبرت باحث ألمانى . وقد صدر كتابه الذى تحدث فيه عن الاسلام عام ١٩٢٠ فى توبنجن بعنوان (وضعنا الدينى الكنسى فى صلاته التاريخية) .

(٤٥) أنطون زايتس مستشرق ألمانى ، وقد صدر كتابه عام ١٩٢١ فى بادربورن (Paderborn) بعنوان : تأسيس محمد للدين .

(٤٦) الاسلام دين ودنيا ، ولهذا اهتم الاسلام بأمور الدنيا كما اهتم بأمور الآخرة . واعتبار اهتمام النبى بالأمور الدنيوية نقطة ضعف أمر يدل على عدم فهم الاسلام . ويعنى أن الباحث يأخذ الفهم المسيحى للمسيح ويجعله مقياسا يطبقه على محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا أسلوب غير علمى وغير مقبول . أما التبرير الالهى للنبى فيجب أن يبحث عنه فى القرآن الكريم نفسه ، فهو أفضل سبيل لبيان أن رسالة محمد من عند الله . ولكن يبدو أن الباحث يريد هنا أيضا أن يجعل من الفهم المسيحى للمسيح من حيث الصلب والفداء .. الخ مقياسا للتبرير الالهى يطبقه على النبى . وهذا أيضا أمر مردود لا يمكن قبوله .

١٥ ـ ليبيـــل (Lippl) :

يقدم « ليبل »(٤٧) نبذة عن نشأة الاســلام وتطوره وتعاليمه : كثمرة لسلسلة من المحاضرات العامة · وهى محاضرات « لعلها تكون وسيلة مساعدة مناسبة لتمهيد أولى لتاريخ الدين المحمدى وجوهره » · وفى الخاتمة نجد قائمة بالمراجع المختارة بعناية ·

* * *

١٦ ـ شبنجلر (Spengler) :

يوجه « شبنجلر »(٤٨) اهتمامه الخاص لمشكلات الحضارة العربية ، ويصور الاسلام على انه (النزعة التطهرية Puritanismus) لمجمــوعة الأديان السحرية المبكرة كلها ، والذى ظهر فقط فى صورة دين جديد ، وقد حدث هــذا فى محيط الكنيســة الجنوبية واليهــودية التلمودية ، وسر النجاح الأسطورى الذى حققه الاسلام يكمن فى هذا المعنى العميق جــدا(٤٩) ، وليس فى عنف الاكتساح الحربى ·

وعلى الرغم من ان الاسلام قد مارس تسامحا عجيبا لأسباب سياسية ، فان اليهودية ، والديانة الفارسية (Mazdaismus) والكنيسة المسيحية الجنوبية والشرقية قد اختفت فيه بسرعة فائقة وبشكل تام ···

ان الاســلام ليس دينا صــحراويا ، كمــا أن عقيــدة (تسفنجلى Zwingli) (٥٠) ليست دينا لسكان الجبال العالية ، وانه لمن قبيل

---

(٤٧) جوزيف ليبل : مستشرق ألمانى . وقد صدر كتابه عن الاسلام عام ١٩٢٢ بعنوان : الاسلام فى نشأته وتطوره وتعاليمه .

(٤٨) هو أسفالد شبنجلر (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦) أحد فلاسفة الحضارة الألمــان . وقد نال كتابه (غروب الحضارة الغربية) شهرة واسعة . وقد تناول فيه مشاكل الحضــارة العربية فى الفصــل الثالث من الجزء الثانى . وقد صدر الكتاب لأول مرة عام ١٩٢٢ ·

(٤٩) يقصد بذلك النزعة التطهرية المشار اليها .

(٥٠) تسفنجلى (١٤٨٤ ــ ١٥٣١) زعيم الاصلاح الدينى فى سويسرا ضد الكنيسة الكاثوليكية . كان معاصرا لمارتن لوثر ولكنه اختلف معه فى بعض الأمور ·

المصادفة (!) أن تكون الحركة التطهرية – التى كانت الظروف فى العالم السحرى قد تكاملت لظهورها – قد انطلقت من عند رجل من مكة ، وليس من عند رجل من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح (Monophysit) أو من عند رجل من اليهود »(٥١) .

* * *

١٧ – فرانتس بول (Frants Buhl) :

لقد قدم لنا علم الاسلاميات فى بلاد الشمال بحثين قيمين . ففى سلسلة كتيبات دينية تاريخية يلقى كتاب « فرانتس بول »(٥٢)

---

(٥١) ينطلق شبنجلر من افتراض مسبق وهو أن الاسلام دين بشرى جاء حصيلة بشرية لتطور ديانات السحر . ولهذا لا نعجب من استنتاجاته المبنية على هذا الافتراض الباطل . فالمصادفة فى رأيه هى التى لعبت دورها فى ظهور محمد بهذا الدين الجديد ، وقد كان الأولى أن يظهر به أحد اتباع المسيحية أو اليهودية . ومثل هذه المزاعم معروفة من قديم . وقد قص علينا القرآن أن مشركى مكة اعترضوا عندما جاءهم الحق من عند الله على يد محمد وقالوا : **«لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»** (الزخرف: ٣١) أى هلا أنزل القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من أهل مكة أو الطائف . وقد كان اليهود أيضا ينتظرون ظهور النبى ويستنصرون به على مشركى العرب داعين الله أن يبعث هذا النبى الذى يجدونه مكتوبا عندهم لينصرهم على المشركين . فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه ليس من بين صفوفهم كفروا به . يقول القرآن فى ذلك : « **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين** » (البقرة : ٨٩) .

ان القضية ليست قضية مصادفة كما يتخيل شبنجلر ، وليست قضية تمن كما تمنى المشركون واليهود ، وانما هى قضية اصطفاء الهى « **الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس** » (الحج : ٥٧) . وهو اصطفاء لا يخضع لمقاييس البشر ، ولكن مقدماته كانت ظاهرة كالشمس لكل من عرف محمدا قبل البعثة أو اتصل به من قريب أو بعيد .

أما ارجاع تسامح الاسلام الذى شهد به الاعداء الى مجرد أسباب سياسية . فهذا من قبيل تجريد الاسلام من كل القيم والمبادىء الأصيلة مع أنه الدين الذى جاء لترسيخ كل القيم والمبادىء السامية — وقد أعلن ذلك محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

(٥٢) فرانتس بول مستشرق دانماركى . وقد صدر كتابه عن الدين الاسلامى فى كوبنهاجن عام ١٩١٤ .

« المذهب المحمدى بوصفه دينا عالميا » — فى عرض مركز — نظرة على تاريخ الدين الاسلامى وكيف ينعكس هذا الدين فى البحوث الحديثة ٠

وبعد ان يقدم وصفا للدين القرآنى ، يبين كيف تطور هذا الدين الى نسق عظيم للاجماع فى العالم الهلينستى ، على صعيد العقيدة والعبادة والقانون ، ويصف من جوانب مختلفة أهمية التصوف ، وأثر تقديس الأولياء على الحياة الدينية اليومية ، مع مراعاة خاصة لأهمية التصوف بالنسبة لتقدير النبى ، الأمر الذى يمكن تصويره بأبيات من قصيدة البردة المشهورة فى مدح « محمد » ٠

***

١٨ — أويستروب (Oestrup) :

أما البحث الثانى ٠٠٠

فهو كتاب « أويستروب »(٥٣) الذى الفه لجمهور عريض بعنوان « الاسلام ٠٠ الدين المحمدى وتطوره فى عرض اجمالى » ، ويتضمن هـذا الكتاب بعض الأمور التى لم يكن لها مكان فى كتاب « بول » ، وذلك مثل الحديث عن الفرق التى يندرج تحتها الحديث عن الشيعة ، ووصف اكثر عمومية للظروف المتعلقة بأمور العبادة فى الشرق مع مراعاة للظروف السياسية فى البلاد المختلفة للشرق المعاصر ٠ ويشير أويستروب ايضا الى حركة الوحدة الاسلامية (Panislamismus) ويهتم بصفة خاصة بالفرق بين الاسلام الآسيوى والاسلام العربى الافريقى ٠ ويلتزم فى عرضه للدين القديم بالصورة المتوارثة بشكل اكثر مما يصنعه البحث الحديث فى هذا الصدد ٠

***

---

(٥٣) أويستروب (١٨٦٧ — ١٩٣٨) مستشرق دانماركى ٠ حصل على الدكتوراه برسالته عن ألف ليلة وليلة ، وقد أرجعها فى هذه الرسالة الى جذورها الأصلية ، ولم ينازعه فى ذلك أحد حتى اليوم ، قام برحلات كثيرة الى الشرق الأوسط ٠

ومن مؤلفاته : موجز تاريخ الدين الاسلامى ، واللغة العربية ، وكـان ما كان ؟ وقانون وأنواع المجاملات الشرقية ، وبيـان العملة العربيـة والتركية ٠

وله بحوث أخرى منها : الاسلام فى القرن التاسع عشر ، والمغاربة والمغرب ، ومصر الحديثة ، وتركيا الفتاة ٠

١٩ – كاستريز (H. de Castries) :

وهناك مؤلفات تعد اقل أصالة من البحوث المشار اليها حتى الآن ، لاثنين من الفرنسيين المشتغلين بالدراسات الاسلامية وهما : (دى كاستريز وكارا دى فو) .

أما كتاب اولهما : وهو « الاسلام »(٥٤) فانه لا يشتمل الا على انطباعات عن الاسلام ، ولكنه لا يتضمن صورة محايدة عن الاسلام ، فهو يرى فى الاسلام حلقة وسطى وضرورية بين عبادة الأوثان والمسيحية ، وهو يأسف ، لأن الغالبية من المستشرقين – باستثناء عدد قليل من بينهم ، ممن ليس له تاثير فى السياسة – يميلون الى القول بأن الدين المحمدى يعد صورة من صور الوثنية .

ويبدو له أن الاسلام يختلف عن المسيحية فى ثلاث نقاط وهى : تعدد الزوجات ، وتصور الجنة ، والتواكلية(٥٥) .

وفى نهاية الكتاب نجد بعض الملاحق الهامة ، وعلى وجه الخصوص نجد فصلا شاملا عن « افكار العصر الوسيط عن « محمد » وعن الدين الاسلامى » .

(Les idées au moyen âge sur Mahomet et la religion musulmane)

ولكن المؤلف كان يمكنه هنا أيضا ان يستفيد من السابقين له فى هذا المجال ، ونخص بالذكر (دانكونا D'ancona) (ص١٥١، ١٥٤ وما بعدها) .

---

(٥٤) صدر الكتاب فى باريس عام ١٨٩٦ تحت عنوان :
(L'Islam : Impressions et études)

(٥٥) التواكلية (Fatalism) ليست من الاسلام فى شىء . فالاسلام يعرف التوكل ولكنه يرفض التواكل . فالتوكل مقرون بالأخذ بالأسباب . أما التواكل فهو توكل كاذب لأنه لا يأخذ بالأسباب . وقد خلط كثير من المستشرقين بين المفهوم الحقيقى للتوكل فى الاسلام وما رأوه شائعا فى أوساط المسلمين فى عصور التأخر والانحطاط من تواكلية بغيضة وسلبية مقيتة جعلت المسلمين فى مؤخرة ركب التقدم والحضارة . وقد نسب المستشرقون هذه التواكلية للاسلام والاسلام منها براء ..

ان رأى كاستريز فى « محمد » ايجابى اكثر مما ينبغى ، كما انه يرى فى القرآن ايضا من البداية حتى النهاية عملا فريدا ورائعا ، وباختصار : انها انطباعات وليست دراسة علمية !(٥٦) ٠

وقد وجهت الى المؤلف انتقادات مفصلة ، من جانب كل من (رينيه باسيه Basset) و (كارادى فو Carra de Vaux) وهما يعترفان للمؤلف بالصدق الذاتى ، والحماس للاسلام ، وان كانت لهما ايضا مآخذ كثيرة على الكتاب من ناحية التعمق العلمى ٠

* * *

٢٠ ــ كارا دى فو (Carra de Vaux)

يقول « رينيه باسيه » : انه لا يوجد فى الفرنسية كتاب الفه مستشرق ، وخصصه للجمهور العريض مثل كتاب «كارا دى فو»(٥٧) (المذهب المحمدى Le Mahométisme) الذى يقدم – فى موضوعه – معرفة واضحة وعرضا سلسا ٠

ويبدأ « كارا دى فو » كتابه بتقديم صورة حية لبلاد العرب قبل الاسلام ، حتى الوقت الذى بدأ فيه محمد دعوته ، ثم يتحدث عن الظهور الأول لمحمد واصطفائه ٠

---

(٥٦) اذا كان كاستريز — وهو غير مسلم — لم يجد فى سيرة محمد الا كل ما هو ايجابى ومشرق ، ولم يجد فى القرآن الا الروعة والتفرد ، فلماذا ينكر عليه بفانموللر ذلك باسم البحث العلمى ؟ ألا تكون دراسة الاسلام دراسة علمية الا اذا أتت بمثالب ؟ ان هذا حقا موقف غريب لا مبرر له فى سوق العلم ٠

(٥٧) هو البارون كارا دى فو المولود عام ١٨٦٧ ٠ درس العربية وقام بتدريسها فى المعهد الكاثوليكى فى باريس ٠ وقد كان أكثر اهتمامه موجها الى مجالات الرياضيات والفلسفة والتاريخ ، وله فيها دراسات عديدة ٠ وقام أيضا بنشر وترجمة نصوص عربية مختلفة ٠

ومن مؤلفاته : الاسلام والعبقرية السامية والعبقرية الآرية (١٨٩٨) ، والغزالى (ترجمه عادل زعيتر الى العربية) ، وابن سينا ، ومفكرو الاسلام (فى خمسة اجزاء) ونظرية الاسلام (١٩٠٩) ٠

ويتبع المؤلف ذلك بالحديث عن تاريخ « محمد » حتى وفاته ، وقد شرح المؤلف بطريقة واضحة الموضوعات التالية ـ حسب ترتيب ذكرها :

عرض احداث العصور الأولى بعد موت محمد ـ الصراعات حول خلافته ـ التحرير النهائى للقرآن ـ التثبت من المأثورات النبوية ـ رد فعل الروح والعقل والحرية ضد استبداد التعاليم الاعتقادية ، وبوجه خاص ضد استبداد التواكلية ـ القضاء على نظرية حرية الارادة ـ انتصار نظريات الغزالى ، ذلك الانتصار الذى كان وخيم العواقب بالنسبة لمستقبل الاسلام(٥٨) . (والمؤلف يقارن بين الغزالى وبين توماس الاكوينى) مولد الصوفية الغريبة عن الروح الأصلية للاسلام ـ وتكون الطرق الدينية كنتيجة لها .

ويتناول « كارا دى فو » فى القسم الثانى ـ كما فعل (ليترى Littré) من قبله ـ رد فعل العقل الآرى ضد النزعة السامية للاسلام الأصلى ، وبصفة رئيسية فى الاتجاهات الشيعية والصوفية ، ولكنه هنا يبالغ فى تقدير القيمة الحضارية لصورة « الظاهرة الشيعية » للاسلام ، ويعرض هذه الصورة بطريقة متحيزة ، بوصفها صراع الفكر الحر الجرىء ضد المذهب العقدى الأصلى ، الموصوف بضيق الأفق وعدم الحركية
(la lutte D'une pensée libre et large contre une orthodoxie étroite et inflexible)

والأحرى هو ما أثبته « جولدتسيهر » من ان ما اتى به الفرس لم يكن ابدا سعة افق دينية ولا تسامحا ، ولا تزال هذه الآراء حول اهمية التناقضات العرقية السامية الآرية بالنسبة لتطور الاسلام ـ لا تزال فى حاجة الى مراجعة وتدقيق .

اما الكتاب الثانى لكارا دى فو وهو (نظرية الاسلام **La Doctrine de l'Islam'**) فقد اهتم فيه بتقديم عرض شعبى للدين الاسلامى الأصلى ، بطريقة فلسفية مع مقارنته باديان اخرى ، وهكذا يتناول فى عشر فصول الموضوعات التالية :

---

(٥٨) لقد أسىء فهم الغزالى من جانب اكثر الباحثين ، وحملوه مسئولية انهيار الحضارة الاسلامية . وهذا تبسيط غير مقبول لمشكلة معقدة لها أسباب عديدة . ولنا فى الغزالى رؤية مختلفة عن هذا الفهم السائد بسطناها فى كتابنا : « المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت » .

الصلاة والحياة الآخرة والتواكلية والزكاة ، والأساطير حول عيسى ومريم ، والحج الى مكة ، والجهاد ، ومكانة المرأة ، وتربية الأطفـال ، والتصوف ، ومستقبل الاسلام ٠

ثم يتبع ذلك بفصل ختامى يتناول فيه جزئيات شتى : قائمة مراجع قاصرة وملاحظات عن المآذن والأجراس ، والموسيقى ، والتصوير ، والضرائب ، والتقويم الفلكى ، والأعياد والصوم ورجال الدين ، وما الى ذلك من موضوعات ، وقد تناول ذلك كله فى اسهاب كثير وسطحية !

* * *

دراسات تبشيرية عن الاســلام

يعتبر تصوير المبشرين للدين الاسلامى ذا نوعية خاصة ، وفيما يلى نورد بعض النماذج من دراسات المبشرين للاسلام :

١ ـ ارنولــد (J. M. Arnold) :

لقـد عمـل « ج ٠ م ٠ أرنولد » مبشرا فى أوسـاط المحمـديين فى يافا ، ، وفى جنـوب افريقيـا ، وله كتـاب كان يحمل ابتـداء العنوان التالى : « اسماعيل أو الكتاب المقدس والقرآن » وقد طبع هـذا الكتاب فى انجلترا أربع طبعات ، وصادف أيضا نجاحا عمليا ، أدى الى تكوين « جمعية تبشير المسلمين » لتحويل المحمديين الى المسيحية . وقد ترجم الكتاب الى اللغة الألمانية (٥٩) بناء على رغبة هيئـة تحرير « مجلة التبشير العام » (الألمانية) .

وينقسم الكتاب الى اثنى عشر فصلا وهى :

١ ـ مهبط الاسلام .
٢ ـ عصر محمد وصفاته .
٣ ـ تاريخ القرآن وعقائده .
٤ ، ٥ ـ ما أخذه محمد من اليهودية والمسيحية (٦٠) .
٦ ـ انتشار الاسلام ونجاحه .
٧ ـ خصائص الاسلام وتأثيره .
٨ ، ٩ ـ وحدة العهدين القديم والجديد .
١٠ـ الكتاب المقدس والقرآن .
١١ـ مقارنات عامة .
١٢ـ المساعى المضادة من جانب الكنيسة .

* * *

(٥٩) ظهرت الترجمة الألمانية عام ١٨٧٨ تحت عنوان : الاسلام : تاريخه وخصائصه وعلاقته بالمسيحية .

(٦٠) سبق أن نبهنا فى هوامش أخرى على أن مثل هذه المزاعم مبنية على افتراض باطل وهو أن الاسلام دين بشرى .

٢ ــ ادوارد ســل (Sell) :

اما « ادوارد سل » المبشر بجمعية التبشير الكنسى الانجليزى ، فانه يقدم الصورة التى يعيشها الاسلام اليوم لدى اتباعه ، وذلك فى اشكاله العقدية واشكاله العملية(٦١) ٠ ويتناول فى ستة فصول رئيسية الموضوعات التاليــة :

١ ــ أسس الاسلام ٠
٢ ــ تفسير القرآن والأحاديث ٠
٣ ــ الفرق فى الاسلام ٠
٤ ــ عقيدة الاسلام ٠
٥ ــ التكاليف العملية فى الاسلام ٠
٦ ــ اعياد الاسلام ، وصوم الاسلام ٠

ويسهب « سل » فى تناوله للحركات الروحية الجديده فى الاسلام مثل الحركة « الوهابية » ٠

***

٣ ــ زويمــر (Zwemer) :

هناك دراســات ممتازة عن الدين المحمدى ، ومشـكلات العالم المحمدى ، من وجهة نظر التبشير المسيحى ٠ نجدها فى كتاب « الاسلام » للمبشر الشهير « س ٠ م ٠ زويمر »(٦٢) الذى كان يعمل مبشرا فى اوساط المحمديين ، ويتضمن الكتاب الموضوعات التاليــة :

١ ــ أصل الاسلام ومصادره ٠
٢ ــ محمــد النبى ٠

---

(٦١) صــدر كتابه بعنوان عقيدة الاســلام (Faith of Islam) فى لندن عام ١٨٨٠ وظهرت طبعته الثانية عام ١٨٩٦ والثالثة عام ١٩٠٧ ٠

(٦٢) صمويل زويمر (١٨٦٧ ــ ١٩٥٢) : كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط ، وله مؤلفات فى صلة الاسلام بالمسيحية يتضح فيها اتجاهه المبنى على التعصب والتضليل ٠ ومن هذه المؤلفات : الاسلام تحد لعقيــدة ؟ (نيويورك ١٩٠٧ ــ ترجم الى الألمانية عام ١٩٠٩) ، ويسوع فى احيــاء الغزالى ، وداخل عالم الاسلام ٠

وله دراسات كثيرة فى مجلة الاســلام التى كان يرأس تحريرها منها : الاسلام فى العالم ، وترجمات القرآن ، وأمية النبى ، والحديث القــدسى ، وتنوع الاسلام فى الهنــد ٠

٣ ـ انتشار الاسلام ٠

٤ـ٦ ـ العقيدة والعبادات والأخلاق فى الاسلام ٠

٧ ـ التفرق والتمزق والاصلاح ٠

٨ ـ الوضع الراهن للعالم المحمدى ٠

٩ ـ التبشير فى أوساط المحمديين ٠

١٠ ـ مناهج ونتائج ٠

١١ ـ المشكلة والخطر ٠

١٢ ـ استفزاز العقيدة ٠

وبجانب زويمر يعد كتاب (جاردنر **Gairdner**) (لوم الاسلام **The Reproach of Islam**) افضل مدخل الى الاسلام ومشكلة التبشير ٠

* * *

اتجاهات اسلامية هندية حديثة

١ ـ سيد أمير على :

هناك اتجاه عقلى وعصرى فى أوساط المذهب المحمدى فى الهند يستحق اهتماما خاصا ، ويقود هذا الاتجاه سيد « أمير على »(٦٣) وهو من كبار الموظفين الهنود ، ومن قضاة المحكمة العليا فى البنغال ، وقد اغترف من علومنا الغربية ، ويعد من ابرز أتباع الاسلام واكثرهم تنورا ٠

وقد اهتم بالدفاع عن الاسلام ضد الأحكام المسبقة للمسيحيين ، واهتم بعرض الروح الفلسفية والأخلاقية للاسلام ، على امل أن يعمل المسلمون فى الهند على اقامة بعثهم الروحى والأخلاقى ٠

ويعقد المؤلف مقارنة بين الاسلام والمسيحية ، فيما يتعلق بالتقدم الأخلاقى ، والاجتماعى ، والسياسى ، ويضعهما بجوار بعضهما ، من حيث العقيدة بوصفهما مصدرا للأخلاق السامية ، وبوصفهما هاديين فى الحياة ويتناول تأثيرهما الانسانى والتمدنى ٠

ويعارض على وجه الخصوص القول بأن الاسلام دين غير متسامح ، وانه يساعد على العبودية ، وعلى تعدد الزوجات ، وأنه يضع المراة فى وضع أدنى ، وانه يقول بجنة حسية خالصة ، وانه دين التواكلية ، وانه يؤدى الى التردد السياسى والأخلاقى ٠

ولكن المؤلف يعترف بأن من الصعب عليه أن يعثر على توافق تصالحى ، بين التعاليم السامية والأخلاقيات للاسلام الأصلى ، وبين الشكلية المتحجرة التى انتهى اليها اليوم ٠

* * *

---

(٦٣) توفى عام ١٩٢٨ . ومن مؤلفاته بالانجليزية : حياة محمد وتعاليمه أو روح الاسلام (لندن ١٨٧٣) — وقد ترجم الى العربية تحت عنوان « روح الاسلام » وقام بترجمته أمين محمود الشريف وراجعه محمد بدران ونشر ضمن سلسلة الألف كتاب بالقاهرة ١٩٦١ . واخلاق الاسلام (كلكتا ١٨٩٤) ، والاسلام (لندن ١٩٠٦) ، والاسلام ونقاده .

٢ ـ خـودا بخش (Khuda Baksh) :

ويحذو « خودا بخش »(٦٤) حذو سيد أمير على ، ولكن تصوراته تعنى تقدما من الدفاع العقلى الى المعرفة الدينية التاريخية · والمؤلف مسلم ذو عقلية تقدمية متحررة ، وقد عاش فى انجلترا تسع سنوات ، وتعلم اللغة الألمـانية أيضا لدرجة مكنته من دراسة كتاب جولدتسيهر « دراسات محمدية » ودراسة مؤلفات ألمانية أخرى ·

وتتناول بحوثه على سـبيل المثال الموضوعات التاليـة : « روح الاسلام » ، « رأى الاسلام فى السيادة أو الحكم » ، « حركة الشعوبية فى الاسـلام » · أما الفصـول التى تتناول « الأدب الهندوسـتانى » و « أفكار عن الظروف الراهنة » فهى بصفة خاصة فصول قيمة ·

والمؤلف ـ الذى تعمق فى عالم الفكر الغربى ومع ذلك يتمسك بتراثه الذى ولد عليه ـ يعد مراقبا شجاعا للوضع الراهن ، ولسيادة الانجليز فى الهنـد :

« ان الشرق بالنسبة لى شرق والغرب غرب ، والهند لم يعد يمكن ان تكون انجلترا ، كما لا يمكن أن تصير انجلترا الهند ، وقد قدر لنا أن نتتلمذ على أوروبا ، ولكن ذلك لن يكون بالتضحية بذاتيتنا الشرقية »·

* * *

٣ ـ ليوناردز (Major Leonards) :

وهنـاك دفاع أوروبى عن الاسـلام صدر عن المقـدم الانجليزى « ليوناردز »(٦٥) ، غير أنه دفاع ذاتى ، وغير تاريخى بالمرة ، وتتمثل

---

(٦٤) انظر كتاب خودا بخش بالانجليزية : مقالات هندية واسلامية (Essays Indian and Islamic) لندن ١٩١٢ ·

(٦٥) انظر فى ذلك كتابه بعنوان (الاسلام) :

(Arthur Glyn Leonards : Islam' London 1909) .

قدوته العقلية فى كل من « كارليل »(٦٦) وسـيد « امير على » ٠ وهكـذا يمتزج لديه نموذج أوروبى غير تاريخى اطلاقا لعبقرية دينية اصيلة ، بأفكار العلماء المحدثين الهنود أو المصريين ، الذين تثقفوا ثقافة أوروبية ، والذين يحاولون ـ عن طريق استخدام نتائج البحث الغربى ـ تحديث الاسلام والدفاع عنه ٠

وهم يضعون الاسـلام فى مقابل المسيحية بوصـفه الدين الوحيد المتمشى مع الطبيعة والعقل ٠

* * *

(٦٦) لعله يقصد توماس كارليل (١٧٩٥ ـــ ١٨٨١) صاحب كتاب (الأبطال) الذى عقد فيه فصلا رائعا عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقد نقله الى العربية الأستاذ على أدهم .

الاسلام فى كتب تاريخ الأديان

١ — هوتسما (M. Th . Houtsma) :

اما الفصول الخاصة بوصف الاسلام المتضمنة فى الكتب التعليمية لتاريخ الأديان العام ، فانها تستحق تقديرا خاصا ، ويأتى هنا فى المقام الأول ذلك العرض الممتاز للاسلام ، القائم على معرفة تامة بالمصادر من جانب « م . ث . هوتسما »(٦٧) فى الكتاب الذى اخرجه (شانتبى دى لاســـوساى Chantepie de La Saussaye) وهو « كتاب تعليمى فى تاريخ الأديان » .

ويعد ما كتبه « هوتسما » من افضل ما كتب عن هدا الموضوع الى حين ظهور كتاب جولدتسيهر « محاضرات عن الاسلام » .

ويصور « هوتسما » فى البداية الأوضاع الدينية فى بلاد العرب عند ظهور « محمد » ، ثم يصور حياة « محمد » فى فصـل مطـول ، وفى الفصل الثالث : يتناول اسس تطور الاسلام ، القرآن والحديث ، والفقــه .

اما الفصول التالية فتتناول : التشريع الدينى ، النزاع العقائدى ، نسق العقيدة السنى ، التصوف . وقد خصص « هوتسما » فصلا خاصا للشيعة ، فى حين يلقى فى الفصل الختامى نظرة على الأوضاع الراهنة .

ومما له قيمـــة على وجه الخصوص تلك القوائم بالمراجع الملحقة بكل فصـــل .

* * *

---

(٦٧) هوتسما (١٨٥١ — ١٩٤٣) مستشرق هولندى . اضطلع بمهمة الاشراف على دائرة المعارف الاسلامية (١٩١٣ — ١٩٢٤) ، وكان يتمتع بعضوية عدد من المجامع والجمعيات العلمية منها المجمع العلمى العربى بدمشق . وقد نشر عددا من المخطوطات العربية وترجم بعض النصوص العربية . ومن الكتب التى نشرها : تاريخ اليعقوبى (فى جزئين) ، كما ساعد فى نشر الطبرى (فى خمسة عشر جزءا) .
وله دراسات فى الأدب العربى والتاريخ الاسلامى . ومن بين مؤلفاته : العقيدة الاسلامية والاشعرى .

٢ ـ كونراد فون أوريللى (Conrad Von Orelli) :

اما كتاب « كونراد فون أوريللى » « تاريخ الأديان العام »(٦٨) فيتوحد فيه علم شامل مع تركيز قوى على ما هو جوهرى مع حكم معتدل ، وهو لا يخشى فى اى موضع من كتابه من أن يقيس التصورات التاريخية بمقياسه اللاهوتى الوضعى ، ولكن المرء يرى فى كل موضع ظهور سعيه نحو تقدير عادل .

وهو يتناول الاسلام فى خمسة فصول :

١ ـ دين العرب قبل الاسلام .
٢ ـ محمد : حياته وصفاته الشخصية .
٣ ـ القرآن .
٤ ـ التعاليم والعبادة فى الاسلام .
٥ ـ الانتشار والانقسامات فى الاسلام .

* * *

٣ ـ تيلى (Tiele) :

وكذلك يقدم « تيلى » فى كتابه « موجز تاريخ الأديان »(٦٩) عرضا ممتازا لدين العرب فى خمسة عشر فصلا :

١ ـ دين العرب القديم .
٢ ـ دين العرب عند ظهور محمد .
٣ ـ اليهودية والمسيحية والحنفاء .
٤ ـ اصطفاء محمد .
٥ ـ الأتباع الأول .
٦ ـ الدين العالمى العربى الجديد .
٧ ـ انتشار الاسلام . وفاة محمد .
٨ ـ محمد كمؤسس للدين .
٩ ـ قواعد الاسلام الخمسة .

---

(٦٨) ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٩١١ فى بون بألمانيا والطبعة الثالثة عام ١٩٢٢ .

(٦٩) ظهرت الطبعة الرابعة منه بتعديلات شاملة عام ١٩١٢ فى برلين وقام باخراجها ناثان سودربلوم .

١٠ ــ الله والنبى ٠
١١ ــ القــرآن ٠
١٢ ــ الحديث ٠ معيار القانون الدينى ٠
١٣ ــ الشــيعة ٠
١٤ ــ التصوف ٠
١٥ ــ خصائص الاسلام ٠

* * *

٤ ــ فــورم (Wurm) :

يقدم « باول فورم » فى كتابه « المرجع فى تاريخ الأديان »(٧٠) ٠ عرضا شعبيا للاسلام قصد به ان يكون لدائرة من القراء أكثر اتساعا ، وبصفة خاصــة للمدرسين والمبشرين واصــدقاء التبشير ، مستخدما فى عرضه مراجع التبشير فى حماس ، وينقسم الكتاب الى أربعة فصول :

١ ــ مكانة الاسلام فى تاريخ الأديان ٠
٢ ــ حياة محمد ٠
٣ ــ القرآن ، التعاليم والعبادة والحياة الدينية فى الاسلام ٠
٤ ــ التطور الدينى فى الاسلام بعد وفاة محمد ٠

* * *

٥ ــ جيريمياس (Jeremias) :

يخصص « الفريد جيريمياس » لعصر ما قبل الاسلام ولدين العرب ما يقرب من نصف ما كتبه عن الاسلام فى كتابه «تاريخ الأديان العام»(٧١) ويتناول بعد ذلك فى فصل مطول حياة محمد وبدايات الاسلام ٠ اما كل ما عدا ذلك فقد تناوله تناولا قاصرا جدا (فكرة المخلص فى الاســلام الأصلى ، الشيعة : نظريتهم فى الامام ونظريتهم فى الخلاص والمصالحة ، التصوف ، الموت والحياة الآخرة فى الاســلام الأصلى اليوم ، انتشار الاســلام) ٠ ويتناول المؤلف التصوف فى تسعة عشر سطرا ٠

* * *

(٧٠) ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب فى شتوتجارت بألمانيا عام ١٩٠٤ ٠

(٧١) ظهر الكتاب فى ميونيخ بألمانيا عام ١٩١٨ ٠

٦ ـ فوللرز (Vollers) :

وكذلك يقدم « كارل فوللرز » نبذة قصيرة جدا عن الاسلام فى كتابه « اديان العالم »(٧٢) اما فضله الرئيسى فانه يتمثل فى انه كان أول من عقد فى دقة مقارنة بين الأدب الانجيلى والحديث النبوى الاسلامى ٠

* * *

٧ ـ بفليديرر (Pfleiderer) :

وقد تحدث « اوتو بفليديرر »(٧٣) ايضا باختصار عن الاسلام وصلته باليهودية والمسيحية ، ودين ما قبل محمد ، وحياة محمد وتعاليمه ، والسنة والشيعة ، والمعتزلة والأشعرية والتصوف ، وفى الخاتمة قدم بعض اقتباسات من الشعر الصوفى لجلال الدين الرومى ٠

* * *

٨ ـ سودربلوم (Soederblom) :

اما « ناتان سودربلوم » الذى كان له الفضل فى اعادة النظر فى كتاب تيلى « موجز تاريخ الأديان » واكماله ، فانه لم يخصص للاسلام فى كتابه « مدخل الى تاريخ الأديان »(٧٤) الا ثلاثة فصول فقط :

وفى الفصل الأول منها : يلقى نظرة سريعة على حياة « محمد » وتعاليمه ، ويقدم بعض الملاحظات عن القرآن ، اما الفصل الثانى : فانه يصور فيه التقوى الاسلامية (قواعد الاسلام الخمس والتصوف) ، وفى الفصل الثالث : يتحدث عن انتشار الاسلام ٠

والكتاب لا يقدم للأسف أية قوائم ، أو بيانات عن المراجع ٠

وقد تحدث المؤلف أيضا عن الاسلام باقتضاب شديد ، فى أربع صفحات فى كتاب سابق له بعنوان « اديان الأرض »(٧٥) ٠

---

(٧٢) ظهر الكتاب فى بينا بألمانيا عام ١٩٠٧ ٠

(٧٣) فى كتابه (الدين والأديان) برلين ١٩٠٦ ٠

(٧٤) ظهر الكتاب فى ليبزج عام ١٩٢٠ (فى سلسلة العلم والثقافة المجلد رقم ١٣١) ٠

(٧٥) ظهر الكتاب فى توبنجن بألمانيا عام ١٩٠٥ ٠

(قارن ك · بث Beth) : ناتان سودربلوم كمؤرخ للأديـان فى مجـلد : العالم المسيحى ١٩٢٠ عمود ٢١٤ ـ ٢١٨) ·

* * *

٩ ـ كليمن (Clemen) :

وفى مقابل ذلك يقدم « كارل كليمن »(٧٦) عرضا للاسلام فى وضعه الراهن اكثر تفصيلا ، فبعد مقدمة قصيرة عن « تاريخ الاسـلام وانتشاره » يتناول الموضوع فى ستة فصول :

١ ـ الشريعة الاسلامية : (مدارس الفقـه ، احكام العبادات ، الأحكام القانونية والسياسية) ·

٢ ـ علم العقيدة الاسلامى : (النظريات فى موضوعات : الله ، والملائكة ، والأنبياء ، وأمور الآخرة والقضاء والقدر ، على أساس من الكتب التعليمية الدينية المعروفة) ·

٣ ـ التصوف الاسلامى : (علم العقيدة والتصوف ، الغزالى ، الدراويش) ·

٤ ـ الاسلام الشعبى : (تقديس الأولياء ، الكهانة ، السحر) ·

٥ ـ الفرق الاسلامية : (الخوارج ، والشيعة وانقساماتهما ، البابية ، والبهائية ، الأحمدية ، الوهابية) ·

٦ ـ تحديث الاسلام : (الجهود العقلانية فى الهند ، وسوريا ، وتركيـا) ·

وتقدم الخاتمة قائمة تفصيلية بالمراجع ·

(راجع للمؤلف أيضا فيما يتعلق بتصور المحمديين عن الحياة بعـد الموت كتاب « الحياة بعد الموت فى عقائد الانسانية »)(٧٧) ·

* * *

١٠ ـ بوسـيه (Bousset) :

لقد جمع « فلهلم بوسيه »(٧٨) الاسلام واليهودية والزرادشتية تحت عنوان « ديانات التشريع » وحاول أن يبين الصور المميزة والخصائص التى تجمع الديانات على هذه الدرجة (أى درجة ديانات التشريع) ·

* * *

---

(٧٦) فى كتابه : أديان الحضارة غير المسيحية فى وضعها الراهن . ليبتزج وبرلين عام ١٩٢١ .

(٧٧) ظهر الكتاب فى ليبتزج وبرلين عام ١٩٢٠ ·

(٧٨) راجع كتابه : ماهية الدين توبنجن (ألمانيا) ١٩٢٠ .

١١ ـ ابرهاردت (Eberhardt) :

يتناول « باول ابرهاردت »(٧٩) الاسلام تناولا مفعما بالحب بصفة خاصة ، فهو فى حديثه عن « محمد » يتحدث عن « العظمة والروعة اللتين لا يمكن انكارهما » ويشير الى أن محمدا لم يتنكر لانسانيته قط ، حتى وهو فى قمة انتصارته ، ولم يتعاظم ابدا ويعتبر نفسه نوعا خاصا أكثر سموا ، وتظهر للمؤلف ايضا أخلاق الاسلام « أعظم ما تكون فى طهرها وعمقها » .

وفى النهاية يخصص المؤلف للتصوف الاسلامى ـ والتصوف الفارسى على وجه الخصوص ـ بعض التفصيلات الحماسية .

* * *

١٢ ـ كابشتاين (Kappstein) :

يقدم « تيودور كابشتاين » (٨٠) الى حد ما عرضا سطحيا للاسلام وفى البداية يضع امامنا صورتين : الدراويش البكائين فى القاهرة ، وقبة الصخرة فى القدس مع الحجر المقدس ، وفى الخاتمة يصور مراسم دفن على الطريقة المحمدية ، ويعرض الأقوال عن حكمة صحراء العرب ، وفى اثناء ذلك يتحدث باختصار عن حياة « محمد » وتعاليمه ، وعن الفرق الاسلامية والتكاليف الدينية .

* * *

١٣ ـ فيبج (Fiebig) :

يجمع « باول فيبج »(٨١) فى صورة (كراسة املاء Diktatheft) ما هو ضرورى لمعرفة الاسلام فى فصول ثلاثة :

١ ـ الدين العربى قبل محمد .
٢ ـ محمد .
٣ ـ من محمد الى العصر الحاضر .

ويذكر فى الخاتمة اهم المراجع عن الاسلام .

* * *

---

(٧٩) انظر كتابه (علم الأديان) :
(Religionskunde . Gotha 1920)

(٨٠) راجع كتابه: اديان البشرية ـ برلين ١٩٢٠ .

(٨١) يرجع الى كتابه : تاريخ الدين وفلسفته لطلاب وطالبات المعاهد العليا . توبنجن (ألمانيا) ١٩٢١ .

١٤ ـ بيث (Beth) :

يقدم « كارل بيث » اشارات قيمة لتفهم لاسلام ومقارنته بالديانات الأخرى فى كتابه « مدخل الى تاريخ الأديان المقارن »(٨٢) .

***

١٥ ـ فتـه (J . Witte) :

أما « فته » فانه يأتى بمقدمة(٨٣) تتضمن « الدين والأديان » ، « الشىء القيم فى الأديان غير المسيحية » ، « صراع الأديان والقضية الرئيسية للدين » ، وبعد ذلك يجيب عن السـؤال التالى : ما موقف الأديان العالمية ـ غير المسيحية ـ من الأعداء الثلاثة الكبار للانسانية وهى : الشر ، والألم ، والموت ؟ .

ثم يصور المجالات الرئيسية الثلاثة التى تتضمن العنصر الايجابى ، الذى تريد الديانات غير المسيحية أن تقدمه للانسان ، وهذه المجالات هى : مسألة الألوهية ، والهدف ، والطريق الى الهدف .

وفى القسم الثانى من كتابه يتحدث المؤلف عن العمل التبشيرى الذى تقوم به الأديان العالمية غير المسيحية والذى يقوم به الاسلام بصفة خاصة .

***

١٦ ـ شوميروس (H.W. Schomerus) :

يرسـم « شوميروس »(٨٤) فى خطوط عريضة مهمة المسـيحية بالنسبة للشعوب غير المسيحية ، وضرورة تهيئة العمل التبشيرى للحياة الروحية للشعوب غير المسيحية ، وفى النصف الثانى من كتابه يستنتج من ذلك ضرورة حوار المسيحية مع الحياة الروحية للشعوب غير المسيحية ، ويذكر متطلبات هـذا الحوار .

***

---

(٨٢) صدر الكتاب فى كل من ليبتزج وبرلين عام ١٩٢٠ .

(٨٣) انظر كتابه : صراع الأديان العالمية حول النفس البشرية . برلين ١٩٢١ .

(٨٤) فى كتابه : الحياة الروحية للشعوب غير المسيحية والدين المسيحى . ليبتزج ١٩١٤ .

١٧ ـ مــــور (C. F Moore) :

من بين الكتب الانجليزية فى التاريخ العـــام للأديان ـ والتى لم يتيسر لى الاطلاع على البعض منها ـ نبرز هنا كتاب اديان العالم الكبرى ، (Great Religions of the World) وكتاب تاريخ الأديان (٨٥) من تأليف (س . ف . مور) .

***

١٨ ـ رايناخ (Reinach) :

أما تصوير « سالمون رايناخ » (٨٦) للاسلام فى اثنتى عشرة صفحة من القطع الصغير ، فانه حقا تصوير غير كاف ، كما ان قوائم المراجع الملحقة قاصرة الى حد بعيد .

***

١٩ ـ هوداس (O. Houdas) :

وكــذلك نجــد ان كتــاب « هــوداس » (المذهــب الاســـلامى L'Islamisme) (٨٧) قاصر ايضا ، وبدون النقد الضرورى ، وبدون اطلاع على البحوث الألمــانية فى العقــود الأخيرة ، وقد اسىء تمــاما فهم دور النبى .

***

٢٠ ـ بريكو (J . Bricout) ، أوبى (Huby) :

وقد تناول أيضا كل من « بريكو » و « جوزيف أوبى » الاســلام تناولا سيئا فى كتاب كل منهما عن تاريخ الأديان العام (٨٨) .

***

---

(٨٥) صدر فى نيويورك عام ١٩١٤ وما بعدها .

(٨٦) فى كتابه بالفرنسية بعنوان : أورفيوس . التاريخ العام للدين ـ باريس ١٩٠٩ .

(٨٧) صدر فى باريس عام ١٩٠٤

(٨٨) صدر كتاب بريكو فى باريس عام ١٩١١ بعنوان : حول تاريـــخ الأديان . وصدر كتاب أوبى أيضا فى باريس عام ١٩١٢ بعنوان : المســيح ـ الموجز فى تاريخ الأديان .

٢١– بـزى (J . Pizzi) :

وأول عرض للاسلام اكثر تفصيلا بعض الشىء فى اللغة الايطالية ، قام به «بزى » فى كتابه (المذهب الاسلامى **L'Islamismo**) (٨٩) ٠

ويقدم هذا الكتاب بصفة اساسية نظرة عامة عن الدين الاســلامى ، مستندا فى ذلك الى مراجع لشخصيات معروفة لها وزنها ٠ ولكنه بجانب ذلك يأخذ فى الاعتبار ايضا حضارة الاسلام وسياسته ويفتقد المرء فى هــذا الكتاب تاريخ تطور الاسلام ٠

* * *

---

(٨٩) صدر هذا الكتاب فى ميلانو عام ١٩٠٣ ٠

(أ) وقد أتاحت لنا بعض الكتب النصية لتاريخ الأديان ، والتى ظهرت فى ترجمات جيدة ـ فرصة التعرف على مصادر الدين الاسلامى ، فقد ظهر فى عام ١٩٠٨ ـ فى وقت واحد تقريبا ـ كتابان من الكتب النصية فى تاريخ الأديان ، لكل من (ناتان سودربلوم Soederblom) و (الفريد برتوليت Bertholet) غير ان كتاب اولهما لم يظهر ـ للأسف ـ الا باللغة السويدية(٩٠) . وقد تناول (ك . ف . تسترستين Zettersteen) الاسلام فى كتاب « سودربلوم » ، وتناوله (أ . ميز Mez) فى كتاب « برتوليت »(٩١) ولكن الأخير لم يقدم الا مقتطفات من القرآن .

(ب) اما « الكتاب النصى لتاريخ الأديان »(٩٢) لمؤلفه (ادوارد ليمان Lehmann) فانه يقدم عدا ذلك أحكاما مختلفة ، تتعلق بالصلاة ، وشعائر صلاة الجمعة ، والزكاة ، وصوم رمضان ، والحج ، والجهاد ، والأكل ، والشرب ، والزواج ، والعقائد للسنوسى (المتوفى عام ١٤٩٠ م) التى تستخدم كثيرا جدا فى العالم المحمدى ، بوصفها كتابا تعليميا فى قواعد الدين .

وقد أضيفت فى الطبعة الثانية لكتاب « ليمان » مقتطفات من صحيح البخارى ، ومن قصيدة البردة فى مدح « محمد » كما اضيفت ايضا على وجه الخصوص نصوص كثيرة فى التصوف للحلاج ، والغزالى ، ومن التصوف الفارسى ، واضيفت ايضا خمس قصائد لـ (زيا جوك ـ ألب Zia Goek - Alp) فى تصوير الاسلام الحديث فى الوقت الراهن .

(جـ) وهناك كتاب مفصل يقدم مصادر لتاريخ الدين الاسلامى وهو

---

(٩٠) ظهر الكتاب فى ستوكهولم عام ١٩٠٨ .

(٩١) ظهر كتاب برتوليت فى توبنجن بألمانيا عام ١٩٠٨ بعنوان : كتاب للمطالعة فى تاريخ الأديان .

(٩٢) ظهر الكتاب فى طبعته الأولى فى ليبتزج عام ١٩١٢ ، وظهرت الطبعة الثانية عام ١٩٢٢ .

كتاب « الدين الاسلامى » من تأليف (جوزيف هل Hell) (٩٣) فى سلسلة « الأصوات الدينية للشعوب » . فبعد مقدمة قصيرة عن تطور علم العقيدة الاسلامى ، حتى عصر الغزالى ، يقدم ترجمة للنصوص التالية :

١ ـ مختارات من القرآن مرتبة حسب وجهة نظر موضوعية .

٢ ـ الفقه الأكبر لأبى حنيفة .

٣ ـ العقيدة للطحاوى (المتوفى عام ٩٣٣م) .

٤ ـ مختارات من كتاب اللمع للاشعرى (المتوفى ٩٣٥ م) .

٥ ـ اسرار الوحى للسمرقندى (توفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى) .

٦ ـ بداية الهداية للغزالى (المتوفى ١١١١ م) .

وهناك مجلد ثان ، يزمع ان يشمل التصوف من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر الميلادى .

(د) وهناك كتيب جذاب جدا عن الدين الاسلامى (٩٤) للسفير التركى فى برلين محمود مختار باشا ، وهو يريد أن يواجه به سوء الفهم للاسلام ، لأنه من النادر ان يجد المرء كتبا عن الاسلام باللغة الألمانية ، ألف من وجهة النظر الاسلامية ، وغاية الكتاب هى سد هذا الفراغ .

ويتناول الكتاب ـ معتمدا على القرآن ، وعلى مجموع الأحاديث النبوية الذى اصدره « عارف بك » منذ وقت قصير ، ووجد لدى الأتراك اقبالا عظيما فى اسطنبول ـ يتناول الموضوعات التالية :

الله فى الاسلام ، بعثة النبى ، تسامح الاسلام ، القرآن ، المسيح والأنبياء ، الخلق ، البعث ، الجنة والنار ، الصلاة ، الحج ، الدراويش ، العناية الالهية ، الزواج والنساء ، الأخلاق الاسلامية . الاسلام بوصفه عنصر الحضارة .

---

(٩٣) جوزيف هل (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠) مستشرق ألمانى ، كان يعمل أستاذا بجامعة ارلانجن بألمانيا ، وكان يهتم بصفة خاصة بالشعر العربى . والعنوان الكامل لكتابه عن الاسلام هو : الدين الاسلامى : ترجمة من المؤلفات الأساسية ، وقدم له جوزيف هل ـ يينا ١٩١٥ ـ الجزء الأول : من محمد الى الغزالى .

(٩٤) صدر الكتاب فى فايمار بألمانيا عام ١٩١٥ بعنوان عالم الاسلام فى ضوء القرآن والحديث .

وهذا الجمع لأقوال القرآن والحديث عمل جدير بالترحيب ، لأنه يعرض ما يراه المسلمون المثقفون المعاصرون معيارا للعقيدة والسلوك ·

(هـ) ويقـدم (فينل Weinel) المختارات النصية التالية لتصوير الدين الاسـلامى ·

١ ـ من السورة الثانية للقرآن ·

٢ ـ من السورة السادسة والخمسين ·

٣ ـ من كتاب بداية الهداية للغزالى (حوالى ١١٠٠ م) ·

(و) وتزمع ايضا سلسلة « مصادر تاريخ الأديان » ان تأتى بأصوات دينية من الاسلام ، وتشتمل الخطة على ما يأتى :

ـ القـرآن من ترجمـة (ف · شولتهس Schulthess)(٩٥) ·

ـ مختارات من كتاب « الاحياء » للغزالى · من ترجمة (هانز باور Bauer) ·

ـ المواقف للايجى ، من ترجمة (ماكس هورتن Horten)(٩٦) ·

ـ الانسان الكامل · من ترجمة هورتن ايضا

(ز) واخـيرا ·· فان السلسلة التى قـام بانشـائها واصـدارها (جوستاف بفانموللر Pfannmueller) عـن « كلاسـيكيى الأديـان » ستخصص ايضا كتابا عن « شـخصية محمـد » وتعاليمه ، وكتابا عن « الغـزالى » ·

* * *

---

(٩٥) مستشرق المانى توفى عام ١٩٢٢ وكان جل اهتمامه موجها الى الأدب العربى ·

(٩٦) ماكس هورتن (١٨٧٤ ـ ١٩٤٥) من مشاهير المستشرقين الألمان . اهتم بصفة خاصة بالفلسفة الاسلامية وتاريخها .

ومن مؤلفاته : ما وراء الطبيعة لابن رشد ، ورد ابن رشد على الغزالى ، وفلسفة الاسلام وعلاقتها بالأفكار الفلسفية فى المشرق العربى ، وابن سينا ، والدين والفلسفة فى الاسلام ، ومحمد عبده والاصلاح .
وله دراسات أخرى فى التصوف الاسلامى والحلاج وفلسفة ابن سينا والفارابى ..

الفصـــل الثـالث

سيـــرة الرســـول
فى تصـوّرات الغــربيّين

(١)

● **تمهيـــــد :**

يعد هــذا البحث امتدادا للبحث السابق الذى ترجمنا فيه بعض الفصول ـ المتعلقة بوجه عام بالدراسات الاستشراقية حول الاســلام ـ من كتـــاب المستشرق الألمــانى (جوســتاف بفانمـوللر Gustav Pfannmueller) ٠ موجـز فى أدب علـوم الاســلام (Handbuch der Islamliteratur) الـــذى أورد فيـه المؤلف اهم المراجـــع فى علم الاسلاميات فى الغرب ، وصنفها تصنيفا موضوعيا ، وقام بتقديم عرض مختصر لمضمون كل مرجع ٠

وفى الصفحات التالية نتابع ترجمة بعض الفصول المختارة المتعلقة بتصورات الغربيين لسيرة الرســول عليه الصلاة والسلام(١) ٠ ونظــرا لطول هــذا الموضوع فسنضطر الى تقسيمه الى حلقات ، وذلك بهدف وضع صورة اجمالية ـ امام الباحثين ـ للتصورات الغربية بصــفة عامة والتصورات الاستشراقية بصــفة خاصة فى المجالات الأساسية المتعلقــة بالاســلام ونبيه وتعاليمه ، لعل فى ذلك ما يدفع بعض الباحثين الى التوفر على دراســة هذا الجانب فى التراث الغربى ٠

واذا كنا لم نحاول أن ندرس التراث الغربى ونحلله وننقده كما فعل الغربيون بتراثنا ، فلا اقل من أن ندرس ما كتبوه عنا حتى نعرف الأسباب التى من أجلها كانت حملتهم الظالمة علينا وعلى ديننا ومقدساتنا ٠ ومن هنا تتضح حاجتنا المــاسة الى دراسة كل ما يكتب عنا وعن ديننا فى الســابق واللاحق دراسة عميقة واعية ، لأن هــذه الكتابات تمس

---

(١) انظر الصفحات من ١١٥ الى ١٢٥ ، ومن ١٥٠ الى ١٥٦ ، ومن ١٦٨ الى ١٩٦ من كتاب بفانمولر ٠

اقدس ما لدينا ، تمسنا فى أخص خصائصنا وهو عقيدتنا التى نعتز بها ، وتمس شخص نبينا الذى جعله الله لنا « أسوة حسنة » وتمس قرآننا الذى جعله الله « **تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**»(٢) ، وتمس سنة نبينا التى هى مصدرنا الثانى للتشريع ، وبصفة عامة تمس تاريخنا كله .

وربما تكون بعض هذه التصورات الغربية عن الاسلام ونبيه قد دخلت الى عالم النسيان ، وعفا عليها الزمن ، وخاصة ما يتعلق منها بأساطير العصور الوسطى عن النبى ﷺ ، ولكنها مع ذلك لا تزال وستظل جزءا اساسيا من تراث الغربيين لابد لنا من الاطلاع عليه ومعرفته .

ومن المعلوم ان الكتابات الغربية عن الاسلام ونبيه تتراوح بين الجهل التام والمعرفة الموجهة ، بين الاسفاف الشنيع والموضوعية النسبية ، بين الافتراء والانصاف ، بين الاستعلاء والنزاهة ، بين الفحش الصارخ والتسامح العاقل .

ونحن اذ نترجم هنا هذه الصفحات بما تتضمنه أحيانا من أوصاف شنيعة للنبى ﷺ ، وهجوم دنىء عليه وعلى دينه ، دون أن نحذف من ذلك شيئا ، فذلك لأننا على يقين من أنه لن يجدى نفعا اخفاء شئ من ذلك ، فهذا الكلام منشور بشتى اللغات الحية . وكما لا يجدى النعامة فى شئ اخفاء رأسها فى الرمال ظنا منها أنها ستكون بمنجاة من الصياد ، فكذلك لا يجدينا فى شئ أن نتجاهل كل ما ينشر عنا وعن ديننا ، لأننا بذلك لن نستطيع أن نمحوه من تراث الغربيين ، أو نبعده من رفوف المكتبات فى بلاد الغرب المختلفة ، أو نمنعه من الوصول الى ايدى الباحثين .

وسيلاحظ القارئ فى ثنايا النص الذى ننقله هنا تكرارا لبعض الأمور ، وخاصة للأسطورة التى نسجها خيال الغرب حول وفاة محمد ﷺ . والسبب فى هذا التكرار يرجع الى ان بفانموللر يعرض هنا مؤلفات مختلفة تتردد فيها هذه الأساطير حيث يعزف الجميع نفس اللحن . ومن خلال هذا التكرار نتبين مدى الانتشار الواسع لمثل هذه الأساطير فى تلك الأزمنة التى احتفلت بهذا اللون من الأساطير .

---

(٢) النحل : ٨٩

والفصول المختارة التى نترجمها هنا لم يضع لها المؤلف أية هوامش أو عناوين جانبية ، وسنسمح لأنفسنا بتقسيم الموضوع الى فقرات ووضع عناوين خاصـة لهده الفقرات تحمل فى أغلبها اسم الكاتب الذى تتناوله كل فقرة على حدة . وبالاضافة الى ذلك سنقوم بوضع هوامش مختلفة نعرف فيها بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض المزاعم أو المفتريات على الاسـلام ونبيـه ، ونوضح فيهـا أيضا بعض المفاهيم الواردة فى ثنايا النص طالمـا كان ذلك ضروريا .



ترجمة وتعليقات

١ ـ فكتور شوفان (Victor Chauvin) :

يقدم لنا (فيكتور شوفان)(٣) فهرسا مفصلا للكتابات التى صدرت حول محمد وذلك فى الجزء التاسع من كتابه الشيق : « فهرس المصنفات العربية او المصنفات المتصلة بالعرب »
(Bibliographie des ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes)

وفى القسم الأول من هذا المؤلف يتناول شوفان المؤلفات الحديثة ، اى المؤلفات التى صدرت حول محمد فى الفترة الممتدة من عام ١٨١٠ حتى عام ١٩٠٨ . وبجانب ذكره لعناوين هذه المؤلفات بكل دقة فانه يقدم لنا أيضا بيانا بمحتويات المؤلفات ذات الأهمية ، ويشير الى اهم ما وجه اليها من نقد .

اما القسم الثانى فانه يتضمن ذكر المؤلفات السابقة على عام ١٨١٠ ، ويتناول بالتفصيل بصفة خاصة المؤلفات البيزنطية والأسبانية ومؤلفات القرون الوسطى .

وفى القسم الثالث يتناول رسائل جامعية حول بعض المسائل الخاصة مثل : الوفود ، بدر ، بحيرى ، الصرع(٤) ، فاطمة ، نساء محمد ،

---

(٣) فكتور شوفان (١٨٤٤ — ١٩١٣) مستشرق بلجيكى ، تخرج من جامعة ليج(Liège) ، وعمل استاذا للعربية بها . وقد وضع الفهرس المشار اليه فى اثنى عشر جزءا ، أصدر منها احد عشر جزءا من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٠٩ ، ونشر (بولن) الجزء الثانى عشر فى عام ١٩٢٢ .

(٤) لعل القارىء يلاحظ هنا أن موضوع « الصرع »مقحم بين هذه الموضوعات التى تتحدث عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمر هنا ربما يدور حول خطأ مطبعى او خطأ فى الترجمة ! ولكن الأمر ليس كذلك .. فالحديث عن الصرع هنا حديث مقصود ، اذ يحلو لبعض المستشرقين أن يفسروا ظاهرة وحى الله الى نبيه عليه الصلاة والسلام بانها كانت عبارة عن نوبات من الصرع تعتريه بين الحين والحين ، وذلك انطلاقا من مبدأ عدم الاعتراف بنبوته ، وبالتالى فليس هناك أصلا — فى زعمهم — وحى كان يأتيه .

وهذا الموقف يدخل فى باب التعصب الأعمى الذى هو نفسه مرض لا امل فى شفائه ولا جدوى من علاجه . وسنعود للحديث مرة اخرى عن هذا الموضوع فى تعليق آخر على كلام يدور حول نفس المعنى .

شجرة النسب ، المعجـــزات ، وفاة محمـــد ، مولده ، نبالة نسـبه ، أسماء محمد ، صورته الجسمية وأخلاقه .... الخ(٥) .

وأما القسم الرابع فانه يخصصه للأساطير الغربية عن محمد ، كما يخصص القسم الخامس للحديث عن محمد فى الأدب . أما ختام الكتاب فيتكون من تقييم للمؤلفات واضافات وتصويبات وملحق (يتضمن قائمة بأسـماء المؤلفين العرب من كتاب السـيرة المحمدية طبقا لما أورده بروكلمان) ، وبيان بالمحتويات .

وقد بذل شوفان جهـدا هائلا فى جمع المـادة ، ولكن الموضوعات قد تم ترتيبها للأسف ترتيبا أبجديا وليس حسب تسلسلها الزمنى .

وبالمناسبة فان كل المؤلفات حول الاسلام تكاد جميعها أن تكون مشتملة على أوصاف لحياة محمد (ص ١٦٤ ـ ١٩٨)(٦) وعلى مادة ببليوجرافية ثرية عن حياة مؤسس هذا الدين وأعماله .

* * *

● **مؤلفات أخرى :**

وفى بحثه عن : « محمد واصول علم الاسلاميات »

(Mahomet et les origines de l'islamisme)

يصف « رينـــان »(٧) الأفكار المختلفـة ـ التى كونتها العصـور

(٥) أورد شوفان هـــذه المسائل حسب الترتيب الأبجـــدى فى الفرنسية . ولهذا يتحدث عن وفاة محمد صلى الله عليه وسلم قبل حديثه عن مولده . وقد انتقد بفانموللر هذا الترتيب ـ كما سيأتى بعد قليـــل ـ .

(٦) هذه اشارة الى صفحات من كتاب (بفانموللر) الذى نترجم منه هـــذه الفصول ويدور حديث بفانموللر فى هـــذه الصفحات حـــول المؤلفات الحديثة فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٧) ارنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسى . من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) وقد ترجمه الى العربية عادل زعيتر . وفيه يذهب رينان الى القول بأنه لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو . ومن مؤلفاته أيضا : تاريخ الأديان وحياة يسوع (ألفه فى أحد الأديرة اليسوعية فى لبنان) .

=

والشعوب المختلفة عن محمد – وبيان الصلة بينها ، بأنها عمل مشكور من جانب علم التاريخ . ولكن رينان نفسه لم يقدم لنا الا بعض الاشارات .

ويقدم لنا (سنوك هورجرونيه S. Hurgronje) (٨) فى حديثه عن سيرة محمد التى قام بتاليفها (جريمه Grimme) (٩) يقدم عرضا مختصرا عن اقدم كتب السيرة المحمدية (فى أوروبا) . وينطلق هورجرونيه فى ذلك من كتاب (ج . هـ . هوتنجر Hottinger) (١٠) «تاريخ الشرق Historia orientalis » (الصادر فى زيوريخ عام ١٦٥١) . والهدف الذى يضعه هوتنجر نصب عينيه ليس هو تقدم التفسير وتقدم التاريخ العام فحسب ، وانما هو بالأحرى يرمى الى بلوغ هدفين آخرين : ففى مقابل الاتهام الذى وجهه الكاثوليك الى دعاة الاصلاح بأنهم ينهجون نهج تعاليم الاسلام بطريقة خفية يقوم هوتنجر – من ناحية – بمحاولة البرهنة على عكس ذلك ، اى البرهنة على أن حجج (بلارمين

= وقد كان رينان أول من قرر أن الجنس السامى دون الجنس الآرى كما صرح بذلك فى كتابه : تاريخ اللغات السامية . تعرف على جمال الدين الأفغانى فى باريس ودار بينهما نقاش حول الاسلام فى جريدة (الديبا) الفرنسية .

(انظر المستشرقون للعقيقى ١٩١/١ ، وزعماء الاصلاح لأحمد أمين) .

(٨) سنوك هورجرونيه (١٨٥٧ — ١٩٣٦) مستشرق هولندى . يعد عميد العربية بعد جولدتسيهر وفى طليعة الرواد فى دراسات الفقه الاسلامى والأصول والتفسير والحديث فى أوروبا . له بحوث ودراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه وشريعته ، وحول طابع الاسلام وانتشاره ، وابراهيم فى القرآن ، والاسلام والمشكلة العنصرية ، وسياسة النبى الدينية . ومن مؤلفاته أيضا : الحج الى مكة ، والمهدى ، ومكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر .

(٩) هـ . جريمه (١٨٦٤ — ١٩٤٢) كان استاذا للغات الشرقية فى مونستر بألمانيا . ومن أعماله : محمد (فى جزئين) ، وترجمة القرآن . وله دراسات عديدة حول : اللغات السامية ، وعلماء الكلام ، والاسلام واليهودية ، واسم محمد ، وغير ذلك من موضوعات .

(١٠) هوتنجر (١٦٢٠ — ١٦٦٧) مستشرق سويسرى ، كان استاذا للغات السامية فى كل من زيوريخ وهايدلبرج . ومن أعماله : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

(١١) للدفـــاع عن تعـــاليم الكنيسة الكاثوليكيـــة قـــد Bellarmin)
استعيرت من علم العقيدة الاسلامى . ثم رغب هوتنجر (من ناحية اخرى)
كما فعل (ببلياندر Bibliander) من قبل (ص ١٤٧)(١٢)
بنقضه للقرآن – فى الاسهام فى مكافحة الخرافات المحمدية والسيادة التركية
التى قامت مع الدين وسقطت معه . ولكن كتاب هوتنجر كله مملوء بالأحكام
السابقة التى كان لا يزال يحس بها حينذاك عالم من العلماء ضد المذهـــب
المحمدى .

ونصادف أيضا نفس النفور الداخلى ازاء محمد وتعاليمه لدى الأب
(ماراتشـــــى Marracci) (١٣) الذى قام بنشر ترجمة لاتينية للقرآن
فى عام ١٦٩٨ مع نقض مفصل للقرآن (ص ٢١٤) ، وكذلك نجد هذا
النفـــور لـــدى (بريـــدو Prideaux) (١٤) الذى جعل كتابه (حياة

---

(١١) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ — ١٦٢١) كاردينال يسوعى ،
كان فى طليعة المهاجمين للاصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

(١٢) يحيل بفانمولار هنا الى ص ١٤٧ من كتابه ، وقد أشار هناك
الى أن كتاب القسيس السويسرى ببلياندر — والذى صدر عام ١٥٤٣ م
فى ثلاثة مجلدات — يمثل الوضع الذى وصل اليه الجدل كله ضد الاسلام
حتى ذلك العصر ، كما يمثل حاصل هـــذا الجدل . فالكتاب لا يشتمل
فقط على الترجمة اللاتينية للقرآن والتى تمت قبل ذلك بأربعمائة عام ،
وانما يشتمل أيضا على عدد كبير من الكتابات المضادة للقرآن وللاسلام
ابتداء من عصر بطرس الموقر حتى عصر الاصلاح الدينى .

(١٣) يحيل بفانمولار هنا أيضا الى ص ٢١٤ من كتابه ، وهناك يشـــير
الى أن الأب الايطالى لودفيج ماراتشى أمضى أربعين عاما فى دراسة القرآن
وكتب التفسير العربية لكى يحارب محمـــدا بنفس سلاحه . وقد كانت
حصيلة هـــذه الدراسة هـــذا العمل « الضخم » الذى انجزه ، والذى
تضمن النص العربى الكامل للقرآن مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش
توضيحية ونقض لكل فقرة قرآنية على حدة . وقد أصدر ماراتشى قبل
ذلك — فى عام ١٦٩١ — كتابا حول نقض القرآن ، قدم فيه لمحة عن حياة
محمد وعن القرآن ثم برهن — كما يزعم — على بطلان الاسلام وحقيقة
الديانة المســـيحية .

(١٤) هو همفرى بريدو (١٦٤٨ — ١٧٢٤) مستشرق انجليزى .
ويعلق نجيب العقيقى على كتاب حياة محمد لبريدو بقوله : انه « ترجمة
تافهة لا غناء فيها » (المستشرقون ٢/٤٥ الطبعة الرابعة) .

محمد) مرآة تعكس الصورة الخاصة لكل من الكفار والزنادقة وأصحاب مذهب التأليه الطبيعى والاباحيين ٠

* * *

٢ ـ ريلانـــد (Hadrian Reland) :

اما الكتاب الصغير الممتاز الذى ألفه (هادريان ريلاند)(١٥) فى عام ١٧٠٥ بعنوان « الديانة المحمدية « De religione Mohammedica (ص ٦٣ وما بعدها) فانه يفصح عن طابع مختلف تمام الاختلاف ٠ فالاهداء المختصر لشقيقه والمقدمة الطويلةالتى لا تزال قراءتها حتى اليوم على جانب من الأهمية يبينان لنا كيف كان هذا العالم مدفوعا بحبه للحقيقة وبحسه للعدالة التاريخية الى رسم صورة أمينة للاسلام ٠

هل من الممكن ان تجد ديانة متناقضة ـ كما يصفهـا المؤلفـون المسيحيون ـ ملايين الأتباع ؟

دعوا المسلمين أنفسهم يصفون لنا دينهم !

وفضلا عن ذلك فانه يتحتم على المرء ان يعرف الاسلام جيدا لكـى يستطيع أن يحاربه بطريقة فعالة ٠ ولكن ضرورة محاربته تنمو مع كل يوم لأن علاقات الأوروبيين بالمحمديين ـ فى تركيا وأفريقيا وسوريا وايران وجزر الهند التابعة لهولندا ـ تتسع دائرتها باستمرار ٠ وفى وسع المرء عن

---

(١٥) هادريان ريلاند (١٧٧٦ ـــ ١٧١٨) مستشرق هولندى ، كان أستاذا للغات الشرقية فى جامعة أوترشت بهولندا . ومن مؤلفاته التى كان لها صدى بعيد فى أوروبا كتابه عن الاسلام فى مجلدين ، أحدهما عن الديانة الاسلامية والثانى حول تصويب فكرة الأوروبيين الخاطئة عن الاسلام . وقد ترجم الكتاب الى عدة لغات أوروبية . وله أيضا : تعليم المتعلم للزرنوجى ، وفى مقدمته فهرس لجميع النصوص العربية المطبوعة فى أوروبا حتى أيامه ، وله كتاب فى الجهـــاد ، والجغرافيا والآثار فى فلسطين . (المستشرقون ٢/٣٠٤) ٠

ويحيل بفانموللر هنا الى ص ٦٣ وما بعدها من كتابه . وهناك يبين بفانموللر أن ريلاند كان أول من قام بعرض علمى للاســـلام فى أوروبا ٠ ويشير الى ردود الفعل التى أحدثها كتاب ريلاند عن الاســـلام . (انظر ترجمتنا لذلك فى ص ١٠٧ وما بعدها فى العدد الثانى من حولية كليـــة الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة قطر) ٠

طريق النقاش الدينى ـ أن يكسب المسلمين الى صف العقيدة الحقة ، وهذا أفضل بكثير من القيام بتوجيه الشتائم لهم بطريقة حمقاء .

والمعرفة الدقيقة بالاسلام وأتباعه ستجعلنا نضع مكان الكبرياء الساذجة الاحساس بالشكر لله الذى أنعم علينا من فضله بالمسيحية . وعلى الرغم من كل ذلك فانه لم يدر بخلد ريلاند أن يقوم بتمجيد الاسلام . فهو بالأحرى يستفظعه ـ كما يوضح هو ذلك(١٦) ـ انه يريد فقط أن يتعرف المرء على الاسلام تعرفا حقيقيا ، وألا يكون لنفسه عنه تصورات غير معقولة .

* * *

٣ ـ بولانفلييه (Boulainvillier) :

ولم يتأخر رد الفعل طويلا ضد علماء من امثال ماراتشى وبريدو الذين لم يستطيعا أن يريا فى الاسلام أى شىء طيب . ففى عام ١٧٣٠ ظهر فى لندن كتاب (حياة محمد) ـ وهو كتاب لم يكتمل ـ من تأليف الكونت (بولانفلييه) وقد مجد المؤلف فيه مؤسس الاسلام بوصفه واحدا من الحكماء ، وأحل دينه فى جوانب كثيرة فى محل أرفع من المسيحية المألوفة .

ولم يكن الأمر الذى دفع هذا الكونت الى هذا المديح لنبى مكة هو فقط المحبة الخالصة للحقيقة والعدالة ، فقد صور لنفسه ـ بمساعدة بعض المؤلفات الأوروبية ـ نبيا يرضى حاجة فى نفسه ، وكان يرى فى محمد نبيا قام بتمدين شعبه وأنشأ دينا عقليا ، ويقرر بولانفلييه بسرور خفى أن محمدا ، فى الوقت الذى يحترم فيه تقوى الزهاد والرهبان ، يندد بالكهانة الدينية أشد تنديد . وهذا الميل المعادى لرجال الكهنوت فى رواية بولانفلييه سرعان ما اكتشفه معاصروه أيضا(١٧) .

* * *

---

(١٦) نعتقد أن صدور مثل هـذه الأوصاف من ريلاند كان مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بمثل هـذه المبررات ، فحرمت تداول الكتاب . لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس (راجع أيضا كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، ص ٣٣ ـ ٣٥ ، الدوحة ١٤٠٤ هـ) .

(١٧) عندما نشر بولانفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد باعتباره رسولا للعناية الالهية (انظر الشرق والاسلام =

٤ ـ جان جانييه (Jean Gagnier) :

وبعد ذلك بوقت قصير رأينا (جان جانييه)(١٨) يتجه ضـد بولانفلييه وضد طريقة عرضه المنحازة ، وفى عام ١٧٢٣ قام جانييه بترجمة سيرة عربية لمحمد ـ حديثة نسبيا ـ الى اللغة اللاتينية . وبعد قيـام الكونت بولانفلييه بنشر روايته شعر جانييه بأنه يتحتم عليه أن يصـف بطريقة غير متحيزة ـ حسب المصادر المتوفرة لديه ـ ماذا يقول المحمديون عن نبيهم ، وذلك لكى يحافظ على الخط الوسط الصحيح بين الحمـاس الحاقد لكل من ماراتشى وبريدو من ناحية والمبالغات المضحكة من جانب الكونت بولانفلييه من ناحية أخرى . ولكن مقدمة كتـاب جانييه ، التى يصف فيها محمدا بأنه أكثر الناس شرا ، وبأنه عدو لدود لله ، تبين لنا ماذا ينبغى أن يفهم المرء من « حياده »(١٩) .

* * *

= فى أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢١) ، ويحاول بفانموللر هنا أن يقلل من شأن النظرة الايجابية لبولانفلييه الى الاسلام ونبيه ، وذلك بارجاعها الى ميول ذاتية ونزعة معادية للكنيسة ، وفيما يلى سـنجد أيضـا جانييه يصف محاولات بولانفلييه بأنها مبالغات مضحكة .

وهكذا نجد أنه كلما اقترب كاتب غربى من رؤية حقيقة الاسـلام انبرت الأصوات من كل مكان فى الغرب تتهمه بالمبالغة أو الغرض أو العداء للكنيسة وما شاكل ذلك من اتهامات ، فهل هـذا من العلم والموضوعية فى شىء ؟

ألا تكون دراسة الاسلام دراسة علمية موضوعية الا اذا أبرزت مثالب وأظهرت نقائض تلصق بالاسلام ؟

ان هذا حقا موقف غريب ليس له مبرر علمى أو أخلاقى .

(١٨) جان جانييه (١٦٧٠ — ١٧٤٠) كان أستاذا العبرية ثم العربية فى أكسفورد . قام بترجمة رسـالة الرازى عن الجدرى ، ونشر من كتاب أبى الفداء « مختصر تاريخ البشر » (سيرة النبى) متنا وترجمـة لاتينية ، ثم نشر المختصر كله مع ترجمة فرنسية . وقد ألف كتابا عن حياة محمد فى جزئين بالفرنسية (امستردام ١٧٣٢) . راجع : المستشرقـون ٢ / ٤٥ .

(١٩) يفهم المرء من ذلك بطبيعة الحال عداوة صريحة وتحيزا مبدئيا ، اذ ما معنى أن يتقدم جانييه لكتابه بهذه الأحكام الباطلة والأوصاف الكاذبة ؟ =

٥ ـ سـيل (Sale) :

اما (سيل)(٢٠) الانجليزى فانه فى مقدمته التمهيدية التى صدر بها ترجمته للقرآن قد حاول فى البداية تقدير محمد تقديرا عادلا ، ولكنه لم ينجح فى القضاء على الأحكام السابقة السائدة ، فقد ظل محمد مـدة طويلة ينظراليه على انه مضلل ·

* * *

٦ ـ فولتيـر (Voltaire) :

اما (فولتير)(٢١) فقد كتب روايته المأساوية « محمد او التعصب » دون أن يراعى الحقائق التاريخية · وقد كان فولتير نفسه مقتنعا بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضا حادا مع التاريخ · ومع ذلك فقد اراد

=

ان الأمر هنا ليس له لدينا الا تفسير واحد ، وهو قصد توجيـه القارىء من بادىء الأمر لقراءة الكتاب فى ضوء هـذه الأحكام ، وبهذا يؤثر جانبيه على القارىء ويضع قيدا على حريته ، ويقدم له بذلك نظارة سوداء تلون كل ما تقع عليه عينـه بهذا اللون القـاتم .. وهـذا ليس من العلم ولا من الانصاف فى شىء ، ولا يمت الى الأمانة العلمية بسبب .

ولا يشفع لجانبيه بعد ذلك أنه ـ كما يقول بفانموللر ص ١٧١ ـ كان يعتمد فى كتابه اعتمادا تاما على المؤلفين العرب ، ويدعهم يتحـدثون بأنفسهم ، مبتعدا تماما عن المدح أو الذم ، متجنبا اضافة أى شىء من آرائه ، وأن كل همه كان هو تعريف الأوروبيين بمحمد من واقع ما يرويه المسـلمون ويعتقدونه .

فالتناقض واضح بين المقدمات والنتائج ، وقصد الاساءة هو الذى يوجه جانبيه فى كتابه . وهكذا نرى أن « الحياد » الذى يعنيه هو مجرد لفظ فارغ لا معنى له .

(٢٠) جورج سيل (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦) مستشرق انجليزى ، ترجم القرآن الى الانجليزية ونشرت الترجمة فى لندن عام ١٧٣٤ وقد اشتملت على حواش وشروح ومقدمة مسهبة عن الدين الاسلامى تضمنت الكثير من الافك واللغو والتجريح .

(٢١) فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) فيلسوف واديب فرنسى شهير ، يعد قطب عصر التنوير فى فرنسا .

ان يعرض على الجمهور شخصية (تارتوف **Tartuffe**) (٢٢) ممسكا سلاحا فى يده ، وكان يعتقد انه يستطيع ان يعير محمدا هذا الدور . ولكن فولتير لم يكن له أن يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك هو أن محمدا يمثل التعصب والتضليل الدينى (٢٣) .

وهكذا كانت أوروبا تموج بآراء كثيرة حول عمل محمد ، ولكن الحس التاريخى الحقيقى الذى يتمتع به خيرة علماء عصرنا كان لا يزال معدوما تماما .

* * *

---

(٢٢) تارتوف اسم يطلق على شخصية الرجل المنافق فى احدى مسرحيات الأديب الفرنسى الشهير (موليير **Moliere**) (١٦٢٢ — ١٦٧٣) والتى تحمل نفس الاسم ايضا .

(٢٣) انه لأمر غريب حقا أن يلجأ فولتير الى التشهير بالنبى عليه الصلاة والسلام جاعلا منه فى هذه الرواية التى مثلت على المسرح « منافقا لا يعرف الحياء ومضللا وظالما تدفعه النوازع الحسية والتعطش للدماء . الخ » وهويعلم تمام العلم أن كل ذلك غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية . ولكن فولتير اراد بذلك أن يتخذ من محمد أداة حرب على الكنيسة على طريقة « اياك أعنى واسمعى يا جارة » ، ولذلك يقول بفانموللر : « لكن فولتير لم يرد اطلاقا بمأساته ان يصور شخصية محمد التاريخية ، وانما أراد بذلك فقط أن يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد التضليل الكهنوتى ، وضد الخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من تعصب » .

وقد مثلت المسرحية فى مدينــة « ليل » عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها « الكوميدى فرانسيز » فى باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركى لدى الحكومة الفرنسية وعقد مؤتمرا دعا اليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحــكومة تمثيلها حينذاك (انظر : الشرق والاســـلام فى أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢٣) .

وبجانب هذه الصورة الظالمة نجد فولتير فى مقالته (**Esai sur les moeurs**) يقدم لنا صورة أخرى يصف فيها محمدا بأنه « الرجل العظيم الذى جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والكاهن ، والذى لعب أعظم الأدوار التى يمكن أن يلعبها انســـان على ظهر الأرض » (انظر بفانموللر ١٧٢) . وفى وسط هــذا البحر المتلاطم بأمواج التخبط الواضح والتناقض الصارخ لم يكن هناك مكان للحقيقة التاريخية والموضوعية النزيهة . ومما هو جدير بالذكر أن فولتير كان يعد من الملاحدة حينا ومن منكرى النبوات عامة فى أكثر الأحايين .

٧ ـ جوستاف فايـــل (G. Weil) :

وعندما نشر الأستاذ (جوستاف فايل)(٢٤) فى عام ١٨٤٣ كتابــه عن سيرة محمد كان فى وسعه أن يقول بحق فى مقدمته أن آخر اسلافه الذى كان لمؤلفه قيمة شخصية كان جانييه الذى الف كتابه قبل ذلك بقــرن ونصف .

وقد قام فايل بخطوة كبيرة الى الامام ، وذلك بسعيه فى رســم صورة أكثر تاريخية لأصول الاسلام على اساس من مصادر اكثر جودة واوفر عددا مما لم يكن متوفرا لأسلافه . وقد حققت الدراسات الاستشراقية تقدما هائلا فى خلال الخمسين عاما التى مضت بعد ظهور كتاب فايل ، ولكن ذلك لم يقلل فى شىء من الخدمة التى اداها فايــل بوصفه أول من قــام ببحث نقدى تاريخى حول هذا الموضوع . والنتيجة التى ينتهى اليهــا فايل فى كتابه هى أن محمدا يمكن أن يرى ايضا فى أعين غير المحمديين بأنه « رسول الله » .

* * *

٨ ـ كوسان دى برسيفال (Caussin de Perceval) :

ومنذ ذلك الوقت بدا محيط العلماء يزداد ميلا الى مثل هذا التقدير . وهكذا يوضح (كوسان دى برسيفال)(٢٥) فى « مقالاته » أنه من غــير

---

(٢٤) يأتى التعريف بجوستاف فايل لدى نجيب العقيقى (المستشرقون ٣٦٦/٢) تحت اسم سيمون فــايل ، ولعله سهو ، فالمعلومات الواردة تحت هــذا الاسم تخص جوستاف فايل (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩) وهو مستشرق المـــانى شهير ، قام بنشر وترجمة العديد من المؤلفات العربية ... ومن مؤلفاته التى تعنينا هنا الكتاب الذى يشير اليه بفانهوللر وهو « محمد النبى : حياته وتعاليمه » شتوتجارت ١٨٤٣ .

(٢٥) هو ارمان كوسان دى برسيفال (١٧٩٥ ـ ١٨٧١) كان استاذا للعربية فى معهد فرنســا وعضوا فى المجمع اللغوى . ومن بحوثه : وقعة بدر ـ مرحلة من حياة الرسول (المجلة الأسبوعية ١٨٣٩) وباكورة تاريخ العرب فى ثلاثة مجلدات (١٨٤٧) وقد تناول فيه العرب قبل الاسلام ثم عصر النبى ، ثم انضواء القبائل تحت راية الاســـلام (المستشرقون ١٧٧/١) .

المعقول الا يستطيع المرء ان يرى فى محمد الا مخادعا ذكيا أو عبقرية طموحة . لقد كان محمد – حسب رأيه – على وجه الخصوص انسانا مقتنعا بأنه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على احيائه .

وقد كانت المصادر التى استطاع هؤلاء الكتاب ان يضعوها تحت تصرفهم مصادر ثرية جدا بالمقارنة الى ما كان متوفرا لأسلافهم ، ولكنها مع ذلك كانت اقل بكثير جدا مما أصبح متيسرا لنا فى خلال العشرين او الثلاثين سنة الأخيرة(٢٦) . وبالاضافة الى ذلك كانت لا تزال هناك ثغرات هامة فى منهج بحوثهم .

وقد عرف كل من فايل وكوسان – مثلما عرف أسلافهما – أن المؤلفات العربية غالبا ما دخلت عليها يد التغيير لأسباب عقدية او لأسباب حزبية طائفية . وقد ميزا ببصيرة اكثر من ذى قبل الجيد منها من الردىء . ولكنهما لم يلاحظا ملاحظة كافية ان سيرة محمد – على الأقل ما ينتسب منها الى الفرق الاسلامية – قد تطورت واعيد تشكيلها بنفس القدر الذى تطور به الدين المحمدى نفسه ، الأمر الذى يجعل التقدير الدقيق للمصادر لا يمكن أن يتم الا على اساس من الدراسة العميقة لتاريخ « الكنيسة » المحمدية(٢٧) .

وفضلا عن ذلك فانه لم يكن هناك حتى عصريهما من لاحظ ملاحظة كافية الفرق بين «تعاليم محمد» وبين « الاسلام » الذى انبثق عنها(٢٨) . ولو كان هناك من لاحظ ذلك لكان يطيب للمرء عندئذ ان يتحدث عن

---

(٢٦) يلاحظ أن بفانمولر قد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٣ .

(٢٧) استخدم بفانمولر هنا تعبير « الكنيسة المحمدية » وهو مصطلح غريب عن الاسلام وعن الدراسات الاسلامية بوجه عام . والمعروف لكل المستشرقين أنه لا توجد فى الاسلام مؤسسات كهنوتية لها سلطات روحية على أتباعها مثلما هو الحال بوجه خاص فى الكنيسة الكاثوليكية .

(٢٨) يثير بفانمولر هنا قضية غريبة ، حيث يفهم أن الاسلام شىء وتعاليم محمد شىء آخر ، فدين محمد وهو الاسلام يختلف عن تعاليم محمد ، على اعتبار أن الاسلام قد طرأت عليه تطورات مختلفة لم يكن لها وجود فى التعاليم الأصلية للنبى عليه الصلاة والسلام . وهذا اضطراب فى الفهم لا أساس له . فالاسلام وتعاليم محمد شىء واحد ومصدرهما هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

« دين محمد » وليس عن « تعاليمه » ولكانت الشهادة المسموح بها لهذا الدين هى القرآن وحده ، وذلك بتفسير تاريخى طبقا لأقدم الأحاديث . وبدلا من معرفة هذا الفرق راح المرء يخلط بين القديم والحديث وراح يمدح محمدا او يذمه لأمور لم يفكر فيها محمد على الاطلاق .

وقد تم أخيرا فتح الطريق الصحيح عن طريق المؤلفات التى ظهرت فى وقت واحد تقريبا لكل من نولدكه وموير واشبرنجر .

* * *

٩ – موير (Muir) :

اما (موير)(٢٩) فانه على الرغم من ارثوذوكسيته الانجليزية فانه قد اكتسب خلال دراسته تعاطفا معينا لرجل (يقصد محمدا) ظهر له انه

=

اما ما طرأ على الفكر الاسلامى (وليس على الاسلام) من تطورات مختلفة على مر العصور ، وما نتج عن ذلك من ظهور مذاهب أو فرق اسلامية مختلفة فهذا أمر لا يمس الاسلام او تعاليم محمد فى شىء . لأنه يتعلق فقط بأفهام اصحاب هذه المذاهب والفرق ، ولا يتحمل الاسلام مسئولية ما قد يكون فى هذه الأفهام فى بعض الأحيان من خلط أو اضطراب فى الفهم .

وعلى ذلك فان التفرقة الصحيحة التى كان على بفانمولر أن يدركها هى بين الاسلام والفكر الاسلامى ، على اعتبار أن الاسلام وحى الله لنبيه ليقوم بتبليغه وتبيينه للناس **«وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم»** (النحل : ٤٤) أما الفكر الاسلامى فهو فكر انسانى يخطىء ويصيب ويعتريه التطور والتغيير . وقد فتح الاسلام أمام المسلمين طريق الاجتهاد فى الأحكام الفرعية ، وقرر أن المجتهد اذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد واذا أصاب فله أجران ، وذلك تشجيعا على الاجتهاد والبحث عن الحلول لكل ما يجد فى المجتمع الاسلامى من مشكلات .

(٢٩) السير وليم موير (١٨١٩ — ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندى ، عمل فى الهند ثم اختير رئيسا لجامعة ادنبره . ومن مؤلفاته : (حياة محمد Life of Mohamet) فى أربعة أجزاء ، وقد صدر فى لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ . وله أيضا حوليات الخلافة ، ومصادر الاسلام ، ودولة المماليك فى مصر .

كان ضحية للشيطان (٣٠) . وعلى الرغم من ان موير كانت تنقصه المـادة الضرورية لسيرة حقيقية فان كتابه يتضمن مع ذلك سلسلة من الأبحـاث النقدية التى لها قيمة باقية .

***

١٠ ــ اشبرنجـــر (Sprenger) :

اما كتاب (اشبرنجر) (٣١) « حياة محمد وتعاليمه » فانه يبرهن من عنوانه على ان المؤلف لم يفرق تفرقة كافية بين دين محمد وبين الاسـلام . وغالبا ما وجدت الخدمات الجليلة التى قام بها اشبرنجر ما تستحقه من تقدير . ولكن فيلهاوزن وحده هو الذى قدم لنا تقديرا نقديا حقيقيا لكتاب اشبرنجر (انظر : محمد فى المدينة لفيلهاوزن ، برلين ١٨٨٢ ص ٢٠ وما بعدها) . وقد خلص اشبرنجر الى الاقتناع بأن محمدا كان انسانا هستيريا (٣٢) . فلنترك جانبا ضعف الوقائع التى يستند اليها التشخيص!

---

(٣٠) محمد صلى الله عليه وسلم ليس فى حاجة الى مثل هـذا التعاطف المردود على صاحبه . وقد سبق لمشركى مكة أن زعموا أن محمدا به مس من الجن ، فلا جديد فى زعم موير فهو ترديد لمزاعم قديمة فى صورة أخرى .

(٣١) الويس اشبرنجر (١٨١٣ ــ ١٨٩٣) مستشرق نمســاوى الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨، عمل فى الهند ثم عمـل استاذا للغات الشرقيه فى جامعة برن بسويسرا . نشر الكثير من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : أصول الطب العربى على عهد الخلفاء ، وحياة محمد فى ثلاثة أجزاء . وقد صدر الجزء الأول فى (الله آباد) عام ١٨٥١ بالانجليزية ، ثم صدرت الأجزاء الثلاثة بالألمانية فى برلين من ١٨٦١ حتـى ١٨٦٥ ، وأعيد طبعه عـام ١٨٦٩ . ويعلق المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » على كتاب اشبرنجر « حياة محمد » بأنه كتاب جاء مخيبـا للآمال فى أكثر من ناحية وانه لم يراع شروط ومتطلبات التقـرير العلمى (انظر : الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية لبارت ، ترجمة مصطفى ماهر ص ٢٣) .

(٣٢) سبق أن أشرنا فى تعليق سابق الى زعم بعض المستشرقين بأن ظاهرة الوحى للنبى لم تكن الا نوبات من الصرع تعتريه ، وينهج اشبرنجر هنا نفس المنهج حين يزعم أن محمدا صلى الله عليه وسـلم كان مصـابا بالهستيريا . واساس هذه المزاعم كلها يكمن فى محاولة استبعاد القـول بنبوته وانكار تلقيه الوحى من عند الله .

أنه على كل حال سيتحتم على المرء أن يعترف بأن القيمة الخاصة

=

وما دام هذا هو الموقف المبدئي لهذه المزاعم فلن يستطيع القائلون بها فهم ظاهرة الوحي . ولو طبقنا هذه المزاعم على جميع الأنبياء والمرسلين لأبطلنا الأديان السماوية جميعا .

وهذا الموقف ليس أمرا جديدا فقد سبق لمشركي مكة أن اتخذوا موقفا مماثلا من محمد صلى الله عليه وسلم ، كما اتخذ المعاندون من أقوام الأنبياء السابقين مواقف مشابهة . والقرآن نفسه يخبرنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام والمرسلين من قبله قد وجهت اليهم تهمة الجنون من أقوامهم . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عنهم : « **وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون** » (الحجر : ٦) وقوله : « **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون** » (الذاريات : ٥٢) ، وقوله : « **ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون** » (الدخان : ١٤) ، وقوله : « **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر** » (القمر : ٩) . ولسنا هنا فى حاجة الى مناقشة مستفيضة لأسطورتي الصرع والهستيريا ، فكل من يعرف أعراض هذين المرضين وما لهما من آثار فى شخصية المصاب بأى منهما ، ويعرف السيرة الصحيحة لمحمد صلى الله عليه وسلم يعرف حتما أن هذه المزاعم لغو باطل وافتراء كاذب لا يستحق أن يأخذه المرء مأخذ الجد .

وقد أساء المستشرقون عن جهل أو عن عمد فهم الظواهر التى كانت تصاحب الوحى عند نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم من أنه — كما يقول الرسول نفسه — كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وكما تقول عائشة : « رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا » كما روى ذلك البخارى فى صحيحه فى حديث مشهور .

ولو تأمل الباحث المنصف فى أن تلقى الوحى يعنى الانسلاخ عن حال البشرية الى حال الملكية ، لعرف أن هذه الظواهر المصاحبة لنزول الوحى ليست الا نتيجة لهذا الانسلاخ .

وقد كان الكتاب البيزنطيون ، وبوجه خاص (ثيوفانس Theophanes) ، هم أول من أذاع فى الغرب أسطورة الصرع . (انظر ص ٥٢٢ من : (Handwoerterbuch des Islam) . فقد كانوا هم المصدر الوحيد الذى تلقى منه الغرب معلوماته الأولى عن الاسلام ، واليهم ترجع أغلب الأساطير التى شاعت فى الغرب حول محمد صلى الله عليه وسلم فى العصور الوسطى . ويعترف المستشرقون أنفسهم بأن البيزنطيين كانوا مصدرا غير موثوق به فيما يتعلق بالاسلام ، كما يعرض علينا ذلك وفانموللر فى موضع آخر من هذا البحث) .

لمحمد يجب أن تتمثل فى هذا الذى يختلف فيه عن الهستيريين الاخرين ·
وليس فى الحالة المرضية التى يشترك فيها معهم ·

***

١١ ـ نولدكــــه (Nöldeke) :

واما كتاب (نولدكه) (٣٣) « تاريخ القرآن » فانه يفى بكل متطلبات العلم · انه كتاب عظيم القيمة لكل الذين يدرسون الاسلام ، ولكنه بالنسبة لغير المستشرقين كتاب شاق الاستعمال · اما كتاب « حياة محمد » لنفس المؤلف فانه كتاب شعبى ومختصر وهو يقينا افضل كتاب من هذا النـــوع ، ولكنه لا يستوفى سيرة النبى ·

● الكم والكيــف :

ومنذ أن مهد كل من موير واشبرنجر ونولدكه الطريق الصحيح لم يظهر كتاب واحد له قيمة ابداعية عن حياة محمد · وهناك عدد كبير من المؤلفين الذين قاموا بنهب مؤلفات هؤلاء العلماء بدرجـات متفاوتة فى الفهم ، وعرضوها على الجمهور فى صورة دراسات لا تحصى ، أما دون أى تغيير واما باضافة شىء من عندهم · وهذا احيانا ما يكون أكثر سوءا ·

وبظهور المؤلفات المشار اليها نما عدد المواد المتوفرة لسيرة محمد · وقد اصبح من الميسور عن طريق الطباعة الاطلاع على نصوص عربيــة هامة بأعداد كبيرة · ومن مؤلفات العلماء الأوروبيين يكفى أن نذكر هنــا بكتاب جولدتسيهر(٣٤) « دراسات محمدية » وكتاب فيلهاوزن (٣٥) « لمحات وأعمال أولية » ·

---

(٣٣) تيودور نولدكه (١٨٣٦ـ ١٩٣٠) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للغات الشرقية فى عدد من الجامعات الألمانية ، له انتاج غزير فى مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربى واللغات السامية والدراسات الاسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » فى هانوفر عام ١٨٦٣ ·

(٣٤) اجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ ـ ١٩٢١) مستشرق يهودى من أصل مجرى ، يعد من كبار أئمة الدراسات الاسلامية فى أوروبا . كان واسع الاطلاع غزير الانتاج بلغات مختلفة . وقد عرف قراء العربية له كتابين هما : العقيدة والشريعة فى الاسلام ، وتاريخ مذاهب التفسير الاسلامى .

(٣٥) فيلهاوزن (١٨٤٤ ـ ١٩١٨) مستشرق ألمانى ، له دراسات

وكل من يشعر لسبب او لآخر أنه يتحتم عليه ان يكتب سيرة محمد من جديد لا يستطيع ان يقتصر اليوم على النظر الى الأمور القديمة من زاوية جديدة ، وانما يجب عليه ان يضيف شيئا جديدا الى ما أتى به سابقوه .

والى هذا الحد كان العرض الذى قدمه سنوك هورجرونيه فى عام ١٨٩٤ .

* * *

١٢ – بيير مارتينو (Pierre Martino) :

يقدم لنا (بيير مارتينو) نظرة تاريخية على بدايات سيرة محمد فى فرنسا ، وذلك فى بحثه عن « محمد فى فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر » وهذا البحث مأخوذ من كتاب كبير للمؤلف بعنوان « الشرق فى الأدب الفرنسى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر » الصادر فى باريس عام ١٩٠٦ .

وفى الفصل الأول من هذا البحث الذى جعل عنوانه « ما قبل القرن السابع عشر » يقدم مارتينو نظرة سريعة على رأى العصر الوسيط فى محمد ، مترسما فى ذلك خطى (دانكونا d' Ancona) و (باسيه R. Basset) و (دوتيه Doutte) (٣٦) وقد كان للحروب المريرة بين المسيحيين والمحمديين فى عصور الحروب الصليبية أثرها فى عدم ظهور نظرة موضوعية عن النبى واعماله . ففى الرواية التى كتبها (ألكسندر دوبون A. du Pont) عن محمد (Roman de Mahomet) يظهر محمد بوصفه أحد قطاع الطرق ، وقد أصابه مس

=

اسلامية عديدة منها : السيادة العربية ، والخوارج والشيعة ، والدولة العربية وسقوطها من ظهور الاسلام حتى نهاية الدولة الأموية . وقد ترجمت هذه الكتب الثلاثة الى العربية وله أيضا " محمد فى المدينة ، والتمهيد للتاريخ الاسلامى فى ستة أجزاء ، ودستور المدينة أيام النبى ، والأحزاب المعارضة فى الاسلام قديما دينا وسياسة . وغير ذلك من دراسات (المستشرقون ٢ / ٣٨٦ وما بعدها) .

(٣٦) سيأتى الحديث فيما بعد عن كل من دانكونا وباسيه ودوتيه فى نهاية هذا البحث .

من الشـيطان ويقـوم بفعـــل كل نــوع من انواع الأفعـــال الدنيئـة والتضليل (٣٧) ٠

أما كتاب (القانون لدى المسلمين **Livre de la loi au Sarrasin)** فانه يتضمن تجميعا لأكثر خرافات المحمديين زراية ٠ وحقيقة الأمر هى ان ما كان يعرفه المرء عن المسلمين كان شيئا قليلا مثل الوضوء وبعض الأشياء عن الصلاة وتعدد الزوجات ٠ وقد كان ذلك تقريبا هو كل شىء ٠ وقد كان هناك اعتقاد بأن محمدا قد أكلته الخنازير ذات يوم عندما كان مخمورا ٠ وليس من العجيب اذن ان المحمديين لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحـم الخنزير ! ولكى يجعل المرء من النبى المزيف شخصية مكروهة تماما فقـد عمدوا الى جعله بسذاجة بالغة مسيحيا سيئا ، اى زنديقا مارقا ٠ اجل ، لقد جعلوا منه كاردينالا أسلم نفسه للشيطان ليأسه من أن يظفر بمنصب البابا ! وقد كان حكم العصر على شخصية محمد كلها هو الانغماس فى المتـع والخديعة (٣٨) ٠

---

(٣٧) سيأتى الحديث مرة أخرى عن هذه الرواية فى موضع آخر من هذا البحث . ونود أن نشير هنا — كما سيذكر بفانموللر فيما بعد — أن أساس هذه الرواية يتمثل فى الأساطير التى روجها بعض الشعراء عن محمد ، والتى انتشرت فى الغرب فى العصر الوسيط . وهى أساطير من وحى الخيال ولا تعتمد على أية معرفة حقيقية بالاسلام ونبيه .

ويعترف بفانموللر بأن ما كان يعرفه الناس عن المسلمين حينذاك لم يكن يتعدى أمورا قليلة مثل الوضوء وشيئا عن الصلاة وتعدد الزوجات ، فلا عجب أن جعلوا من محمد صلى الله عليه وسلم « كاردينالا » كان يطمع فى منصب البابوية ثم انشق على الكنيسة لعدم حصوله على هذا المنصب ، وراح خيالهم المريض ينسج قصة غريبة حول وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولعل القارىء كان ينتظر منا أن نحذف مثل هذه الأباطيل ، ولكنـا نحيل القارىء الكريم الى ما كتبناه عن ذلك فى مقدمة هـذا البحث . ومن ناحية أخرى لا بد لنا من التعرف على أسلوب تفكير الغرب نحونا فى تلك العصور الوسطى التى كانت تعد بحق عصورا مظلمة (**The Dark Ages**) باعتراف الغرب نفسه ، فى الوقت الذى كانت فيه لدى المسلمين حينذاك حضارة مزدهرة وفكر راق وعلم متقدم ، فلعل فى ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبـر .

(٣٨) انظر الهامش السابق .

أما الفصل الثانى (من بحث مارتينو) الذى يحمل عنوان « الدراسات الاسلامية الأولى » فانه يتناول بالبحث أولا كتاب ميشيل بودييه « تاريخ ديانة الأتراك ومولد وحياة ووفاة نبيهم المزيف محمد »(٣٩) الصادر فى (باريس) عام ١٦٢٥ (وقد أعيد طبعه عام ١٦٣٢ ، وعام ١٧٤١) وقد كان بودييه أول من قام بتأليف سيرة لمحمد بالفرنسية .

ثم تناول مارتينو بعد ذلك ترجمة (دورييه Du Ryer) (٤٠) للقرآن .

أما الفصل الثالث الذى جاء بعنوان « التأثير الكبير لمحاربة الكاثوليكية للاسلام » فانه يصف المحاربة والنقض المنظمين لمحمد من جانب كل من بسكال(٤١) وماراتشى وبريدو .

---

(٣٩) لقد كان بودييه يهدف بكتابه — كما يقول هو نفسه — الى « الكشف عن أباطيل ورذائل نبى الأتراك ، والكشف عن تضليله وتفاهة طائفته ووحشية تعاليمه المضحكة » .

فهل يمكن أن ينتظر احد بعد ذلك أن يقول بودييه كلمة حق فى محمد ؟ لقد كان كاثوليكيا متعصبا يستقى معلوماته — كما يقول بفانموللر — من المصادر الكنسية دون أدنى فحص أو تمحيص . وقد ساعد كتابه على حجب حقيقة الاسلام وحقيقة نبيه عن الأوروبيين طوال القرن السابع عشر (انظر بفانموللر ص ١٦٨) .

(٤٠) تعد ترجمة دورييه للقرآن التى ظهرت عام ١٦٤٧ أول ترجمة فرنسية للقرآن . وقد عمل دورييه مدة طويلة قنصلا لبلاده فى مصر ، وهناك تعلم العربية ، وقد طبعت هذه الترجمة مرات عديدة على مدى قرن ونصف ، وأقبل الناس على قراءتها اقبالا كبيرا . ولم يكن دورييه منصفا للاسلام بأى حال من الأحوال . وقد ظلت ترجمته تمارس تأثيرها الى أن قام (سافارى Savary) بانجاز ترجمة فرنسية أخرى للقرآن ظهرت عام ١٧٨٣ .

(٤١) (بليس بسكال Blaise Pascal) (١٦٢٣ — ١٦٦٢) هو الفيلسوف الفرنسى المعروف ، وقد صدر كتابه : خواطر حول الدين (Pensées sur la religion) فى باريس عام ١٦٧٠ . وقد كان بسكال يرى فى محمد العدو اللدود للكنيسة ، ولهذا كان حريصا كل الحرص على محاربته ، ففى كتابه السابق يتناول محمدا صلى الله عليه وسلم فى تسع

اما رد الاعتبار لمحمد ـ كما يتناول ذلك **الفصل الرابع** الذى يحمـل عنوان « رد الفعل البروتستانتى والفكر الحر » ـ فقد كان عملا من اعمال القرن الثامن عشر . فبعد العمل الذى قام به كل من هوتنجر و (مونى Moni) قاد كل من ريـلاند وجانييه الدعوة الى نظرة أكثر موضوعية لشخص محمد واعماله لدرجة ان الكونت بولانفلييه رأى فى محمد شخصية عبقرية ومشرعا وفاتحا عظيما .

وقد خصص المؤلف **الفصل الخامس** لموضوع « محمد فى الأعمال المسرحية » وهنا يركز مارتينو على كل من ليساج (٤٢) وفولتير .

وفى **الفصل السادس** الذى جاء بعنوان : « محمد والموسوعيـون » يعرض مارتينو عمل فولتير « مقال عن العادات » واعمال الموسوعيين .

ويختتم مارتينو هذا البحث الهام بالحديث عن ترجمة سـافارى للقرآن . ويأتى بعد ذلك ملحقان هما :

١ ـ المؤلفات الفرنسية الأساسية للقرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يتصل بالاسلام .

= شذرات من بين الشذرات التى يضمها هذا الكتاب ، ويعتقد فى أحدهـا مقارنة بين محمد والمسيح يقول فيها : ان محمدا لم يجر التنبؤ بظهوره فى العهد القديم فى حين جرى التنبؤ بظهور المسيح ، ومحمد كان يقترف القتـل فى حين كان المسيح يدع اتباعه يقتلون ، ومحمد كان يحرم القراءة فى حـين كان الحواريون يأمرون بالقراءة ، ومحمد صادف نجاحا دنيويا فى حين كان المسيح مغلوبا على أمره وانتهى به الأمر الى الصلب ..... الخ ... وكان بسكال يفتقد لدى محمد عدم اتيانه بالمعجزات ، كما أن تعاليمه لم تشتمل على أسرار (كما هو الشأن فى المسيحية) ، وينكر بسكال على محمد الأخلاق « السيئة » التى أتى بها ، كما ينكر عليه تصوراته الحسـية للجنة ، ويقول انه لم يجد فى هذا الدين سببا يحمله على قبوله لأنه دين ليس فيه أى أمارة من أمارات الحقيقة . (راجع بفانمولر ص ١٤٩) .

هذا هو بسكال الفيلسوف . والفلسفة تعنى البحث عن الحقيقة ، وتعنى التجرد التام والنزاهة والموضوعية ، وترفض التقليد وقبول الأحكام المسبقة . ولكن بسكال كان فى موقفه من الاسلام ونبيه يفتقد كل هذه الصفات ، وبرهن على جهل فاضح وراح يتبنى الآراء الكاذبة السائدة حينذاك حول الاسلام ونبيه شأنه فى ذلك شأن رجل الشارع ، فأساء لنفسـه وللفلسفة وللحقيقة بصفة عامة .

(٤٢) الان رينيه ليساج (١٦٦٨ ــ ١٧٤٧) أديب فرنسى .

٢ – ترجمات القرآن فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

* * *

١٣ – مينـــور (Minor) :

أما مينور فانه يقدم لنا فى الفصل الأول من بحثه « محمـد لـدى جوته »(٤٣) نظرة على تاريخ ما قبل محمد ، ويمس باختصار آراء العصر الوسيط فى محمد ، ويعرض علينا أولا سلسلة من « خليط لا ترابط فيه » عن تركيا والأتراك ، يتضمن أشد الأخبار خرافة عن محمد وقرآنـه مما هو منتشر على نطاق واسع . وقد استطاع جوته فى القرن الثامن عشر أن يطلع على آراء القرنين السابقين (فى محمد) فى تاريخ الأحداث لـ (جوتفريد Gottfried) وفى المقالة المطولة فى قاموس بايل .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور تاريخ ترجمات القرآن وتاريخ طبعاته . وفى حين أن الكنيسة الكاثوليكية قد أمرت باحراق نسخ طبعة القرآن التى صدرت فى البندقية عام ١٥٣٠ ، وفى حين أن البابا الكسندر السـابع (١٦٥٥ – ١٦٦٧) قد منع طبع القرآن ، كما منع أيضا ترجمته ، فـان مضمون القرآن قد اصبح سهل المنال عن طريق الترجمة من الجانب البروتستانتى ، ولكن مع اضافة نقض مفصل للقرآن من وجهة النظر المسيحية . وقد أعاد (ببلياندر Bibliander) – خليفة (تسفنجلى Zwingli) (٤٤) نشر الترجمـــة اللاتينيـــة الأولـــى للقـــرآن التى أنجزت عـــام ١١٤٣ م بايعاز من الأب بطرس الكلونى ، وذلك بعد أربعمائة عام من صدورها ، وأضاف اليها عديدا من الردود المفندة .

وقد توالت بعد ذلك الترجمات التى قام بها كل من (شـــفايجر Schweigger) (٤٥) و (دو رييه du Ryer) و (يوهان لانجـه Lange) و (نريتر Nerreter) و (ماراتشى Marracci) .

---

(٤٣) نشر مينور هذا البحث فى يينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

(٤٤) أولريش تسفنجلى (١٤٨٤ — ١٥٣١) قطب الاصلاح الدينى فى سويسرا ، سقط قتيلا فى الصراع ضد الكاثوليك .

(٤٥) قام سالمون شفايجر بانجاز هذه الترجمة الى الألمانية عن ترجمـة ايطالية معتمدة أساسا على النص العربى . وقد ظهرت ترجمة شفايجـر للقرآن فى ثلاثة أجزاء فى مدينة نورنبرج عام ١٦١٦ وعام ١٦٢٣ .

وقد حدث تحول فى الحكم على محمد عن طريق العلماء البروتستانت، ، وبوجه خاص عن طريق ريلاند ٠ وقد اخذ جانييه موقفا وسطا بين الاتجاه اللاعن الذى تبناه كل من ماراتشى وبريدو من ناحية ، والاتجاه الممجد لمحمد والذى يمثله بولانفلييه من ناحية اخرى ٠ وقد قص علينا جانييه حياة محمد بكل ما فيها من معجزات واساطير باذلا قصارى جهده فى استخدام مصادر جيدة ، وغالبا ما كان يقتبس منها حرفيا ٠ وبعد ذلك بعامين (أى عام ١٧٣٤) ظهرت فى انجلترا ترجمة انجليزية للقرآن قام بها سيل ، وقد حظيت هذه الترجمة بتقدير فائق وسمعة طيبة فى القرن الثامن عشر ٠

وبعد ذلك يعرض علينا مينور بالتفصيل صورة محمد فى عصر التنوير : ويصادفنا هنا فى عرضه أسماء كل من ليبنتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول (Wolfenbuettler) وهاجيدورن وجلايم وتوربين ، وبصفة خاصة فولتير « بطل عصر التنوير » ٠

وهناك أيضا ترجمتان المانيتان للقرآن قام بترجمتهما من الأصل العربى مباشرة كل من (ميجرلين Megerlin) (٤٦) و (بويزن Boysen) (٤٧) وقد لقيتا حقهما من التقدير ٠ ويختتم مينور الفصل الخاص بما قبل التاريخ بالحديث عن (جيبون Gibbon) وهردر ، و (أولزنر Oelsner) ٠

وبعد ذلك يتناول مينور بالتفصيل فى الفصل الثانى شذرات فرانكفورت لجوته ٠ وفى الفصل الثالث يتناول رواية فولتير الدرامية عن محمد ٠ وفى الفصل الرابع يتحدث عن الخطة فى « الشعر والحقيقة » لجوته ٠ ثم يتناول أخيرا فى الفصل الخامس الفترة الشرقية الغربية ٠ وهناك هوامش مفصلة تقدم اشارات ببليوجرافية قيمة بالاضافة الى ملحق يتضمن النصوص المتعلقة بمحمد من مؤلفات جوته (٤٨) ٠

* * *

---

(٤٦) ظهرت هذه الترجمة فى فرانكفورت عام ١٧٧٢ ٠

(٤٧) ظهرت ترجمة بويزن للقرآن فى هاله بألمانيا عام ١٧٧٣ وأعيد طبعها عام ١٧٧٥ ٠

(٤٨) جوته (Goethe) (١٧٤٩ — ١٨٣٢) هو أعظم الشعراء الألمان على الاطلاق ، وقد كان منصفا للشرق والاسلام ونبيه ٠

١٤ ـ فولفـــل (Adolf Wohlwill) .

أما أدولف فولفل فقد قام على نحو موفق بتكملة العرض الذى قدمه مينور ، وذلك فى بحثه المفصل « ألمانيا والاسلام وتركيا »(٤٩) .

وفى فصل تمهيدى يتناول باختصار العلاقات السياسية بين تركيـا والغرب عبر القرون . وبعد ذلك يصف لنا (فى فصل آخر) الخطر التركى كما يصوره الشعر الألمانى والدراما بصفة خاصة ، وذلك من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر . وفى الفصل الثالث يتناول انخفاض درجة العداء ضد الاسلام بتأثير عصر التنوير والمصالح السياسية . وهنـا يتناول فولفل النشرة العربية للقرآن التى قام بانجازها (هينكلمـان Hinckelmann) (٥٠) ، كما يتناول أيضا الترجمات الألمانية الأولى

=

قرأ القرآن بامعان فى ترجمتين احداهما لاتينية والأخرى ألمانية ، واقتبس منه الكثير ، ويظهر تأثره بالقرآن بوجه خاص فى الديوان الذى أسماه « الديوان الشرقى الغربى » . ومن بين ما نقرؤه له فى هذا الديوان قوله : « لله المشرق ولله المغرب ، وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علوا كبيرا » .

وفى بعض أشعار الحكمة من ديوانه يقول عن الاسلام : « من حماقة الانسان فى دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه ، واذا الاسلام كان معنـــاه التسليم لله فاننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين » .

وقد وضع جوته مشروع تمثيلية عن محمد تدل على اعجابه وتقديره لنبى الاسلام ، مما يدل على سعة أفقه وسمو فكره ونزاهة حكمه ، وترفعه عن التعصب الشعوبى والدينى . (انظر مزيدا من التفصيل عن ذلك فى كتاب : « الشرق والاسلام فى أدب جوته » للأستاذ عبد الرحمن صدقى ص ١٤ وما بعدها من سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٠) .

(٤٩) نشر هـــذا البحث فى العـــدد رقـــم ٢٢ من مجلة (ايفريون Euphorion) عـــــام ١٩١٥ ص ١ — ٢١ ، وص ٢٢٥ — ٢٦٧ .

(٥٠) كان القس أبراهام هنكلمان من هامبورج هو أول من تجرأ على نشر النص القرآنى بالعربية عام ١٦٩٤ وذلك بعد احراق أول طبعة عربية كاملة للقرآن فى أوروبا عام ١٥٣٠ فى البندقية بأمر البابا ، وبعد الحظـــر الذى قرره البابا الكسندر السابع (١٦٥٥ — ١٦٦٧) والذى كان يقضى بعدم نشر أو ترجمة القرآن .

للقرآن ، ويبين كيف ان العداء ضد الاسلام قد اخذ يضعف بالتدريج ويحل محله – فى تزايد مستمر – حسن النية لدى مؤلفى عصر التنوير (هادريان ريلاند ، ليبنتز ، ليسنج ، رايماروس) ٠

وفى الفصلين التاليين لذلك يقدم فولفل عرضا مختصرا لتاريخ الاسلام فى مرآة العلم والشعر اثناء عصر الكلاسيكيين لدينا ، واثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر ٠ وهنا يقوم أولا – بناء على دراسات متخصصة – بتقدير نشاط المستشرق (دافيد فريدريش ميجرلين **D. F. Megerlin**) الفورتمبرجى (نسبة الى مقاطعة (**Wuerttemberg**) بألمانيا) الذى يرجع اليه الفضل فى القيام بانجاز أول ترجمة ألمانية للقرآن على اساس النص العربى ٠ وبعد ذلك يصف لنا فولفل موقف شعرائنا الكبار – هردر ، وجوته ، وفيلاند ، وشيللر – من الاسلام ومن مؤسسه ٠

وبالاضافة الى ذلك يتحدث فولفل عن النشاط التأليفى لكل من أولزنر و (هامر بورجشتال **Hammer - Purgstall**)(٥١)٠وقد كان لهذا الأخير عن طريق تأثيره على جوته فضل لا ينسى ٠ وقد حظيت بالتقدير ، بجانب « الديوان الشرقى الغربى » لجوته ، الأعمال الشعرية المتعلقة بالشرق لشعراء من بينهم (روكرت **Rueckert**) (٥٢) و (بلاتين

---

(٥١) جوزيف فون هامر – بورجشتال (١٧٧٤ – ١٨٥٦) مستشرق نمساوى ، طوف فى مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وايران وتركيا ، وأنشأ فى فيينا مجمع العلوم ، وكان يحسن الكتابة بعشر لغات .، له دراسات وافرة ولا سيما فى تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام ٠ وقد حقق الكثير من النصوص العربية ونشرها وترجم بعضها الى الألمانية أو الانجليزية أو الفرنسية ٠ أصدر فى فيينا أول مجلة استشراقية متخصصة فى أورروبا هى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت من عام ١٨٠٩ حتى عام ١٨١٨ ٠ وأهم مصنفاته : تاريخ الدولة العثمانية فى عشرة مجلدات بالألمانية ثم ترجم الى الفرنسية ، وتاريخ الآداب العربية فى سبعة مجلدات ٠ (المستشرقون ٢ / ٢٧٤ وما بعدها) ٠

(٥٢) فريدريش روكرت (١٧٨٨ – ١٨٦٦) شاعر ألمانى ، اهتم بالأدب العربى وعمل أستاذا للغات الشرقية فى ارلنجن وبرلين ٠ له دراسات حول مقامات الحريرى ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، وامرىء القيس ، وديوان الحماسة لأبى تمام ، وقصيدة البردة لكعب بن زهير، وقد ترجم الى الألمانية كثيرا من هذه الآثار الأدبية ٠

Platen) (٥٣) ، وكذلك النشاط العلمى لكل من هامر بورجشتال ، و (جورج فريدريش داومر Daumer) وعدد من المستشرقين الألمان .

أما الفصل السادس فقد خصصه فولفل لرواد العلاقات الجديدة بين المانيا وتركيا من أمثال (مولتكه Moltke) و (كريستيان فريدريش فورم Wurm) و (فريدريش لست List) (٥٤) .
أما الفصل الختامى فانه يقدم نظرة سريعة على السياسة الألمانية والشعوب الاسلامية فى بداية القرن العشرين .

* * *

١٥ ـ هاز (Haas) :

ان ما أخذه هاز على عاتقه لم يكن هو عرض الصورة الحسية لمحمد عبر تحولات العصور (٥٥) ـ فالعرض التصويرى للانسان كان محرما بالنسبة للمحمديين ـ وانما أخذ على عاتقه رسم الصورة الروحية للرجل كما صورت فى رؤوس الناس على مدى العصور . وذلك لأن افضل سبيل ـ فى رأى المؤلف ـ لتكوين حكم على محمد يتمثل فى استحضار الأحكام الأساسية التى ذاعت خلال تحولات العصور وعبر القرون عن هذا الرجل ذى الأهمية التاريخية .

وفى البداية يصف هاز مدى تباين الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه الذين كان يعيش بينهم(٥٦) . وبعد ذلك يتحول هاز الى الحديث عن الآراء التى تكونت عن محمد خارج العالم الاسلامى .

---

(٥٣) بلاتين (١٧٩٦ — ١٨٣٥) شاعر المانى .

(٥٤) فريدريش ليست (١٧٨٩ — ١٨٤٦) من علماء الاقتصاد الألمان .

(٥٥) نشر هانز هاز بحثه عن محمد بعنوان « صورة محمد عبر العصور » فى مجلة التبشير وعلم الأديان . العدد رقم ٣١ عام ١٩١٦ .

(٥٦) من المعروف أن هذا التباين فى الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه لم يظهر الا بعد بعثته ودعوته الى دين الله ونبذ عبادة الأصنام . أما قبل البعثة فقد كان هناك اجماع على تقديره ، وشاع حينذاك وصفه بالصادق الأمين .

وعلى راس التفصيلات الى أوردها « هاز » نجد تقديرا لدراما فولتير « التعصب او محمد النبى » ولمحة ــ عن انتصارات الاسلام على العالم المسيحى ٠

وبعد ذلك يقدم لنا هاز لمحة تاريخية مختصرة عن الجدل المسيحى ضد محمد وضد القرآن بدءاً من يوحنا الدمشقى(٥٧) حتى نهاية القرن السابع عشر ٠ وفى أثناء العصر الوسيط كله ، وكذلك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كان الحكم على محمد حكما سيئا الى أبعد الحدود ٠ اذ يوصف بأنه دجال ونبى مزيف ومؤسس طائفة(٥٨) وتجسيد لشتى الوان الرذائل والمنكرات ٠

اما رد الاعتبار لمحمد فقد جاء أولا من جانب مؤلفين بروتستانت ، وبصفة خاصة من جانب كل من هوتنجر ، وريلاند ، وسيل ٠ وقد كان عصر التنوير والغليان على وجه الخصوص يولى شخصية محمد اهتماما كبيرا ٠ وهنا يعرض « هاز » تصورات كل من فولتير وبايل وجيبون وليبنتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول وهردر وغيرهم ، ويسهب بصفة خاصة فى عرض تصورات جوته عن النبى العظيم ٠

واخيرا جاء القرن التاسع عشر بعرض تاريخى نقدى لحياة النبى العربى وأعماله ٠ وقد وضع حجر الأساس فى هـذا السبيل « فايل » بكتابه عن سيرة محمد ٠ وقد تبع ذلك فى الستينيات من القرن المـاضى المؤلفات الكبيرة عن محمد لكل من موير واشبرنجر ونولدكه ، وقد سار على دربهم كل المتأخرين من امثال كريل واوجست موللر ٠

وفى نهاية البحث يقدم « هاز » عرضا قصيرا لأهم المؤلفات الحـديثة عن محمد والاسلام ٠ والأمر الذى له ايضا قيمة خاصة هو تلك الاقتباسات المطولة من المؤلفين المعنيين الذين ظهروا على وجه الخصوص ابتداء من القرن الثامن عشر بأعداد كبيرة ٠

* * *

---

(٥٧) يوحنا الدمشقى (٦٧٦ ــ ٧٤٩ م) عالم مسيحى عاش فى ظل الدولة الأموية وخدم فى القصر الأموى ، ومن بين مصنفاته كتاب « محاورة مع مسلم » ، وكتاب « ارشادات النصارى فى جدل المسلمين » ٠

(انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٩) ٠

(٥٨) يعنى مؤسس طائفة منشقة على المسيحية ٠

١٦ ـ تور أندريه (Tor Andrae) :

يبحث (تور أندريه)(٥٩) ـ على أساس من اطلاعه الواسع على المراجع الكثيرة ـ التصورات المتعلقة بشخص محمد فى تعاليم طائفة المسلمين وعقيدتهم منذ البدايات الأولى حتى تكوين التقديس للنبى . وفى مقدمة دقيقة للغاية يتناول أندريه مسألة المكانة التى طالب بها محمد نفسه لشخصه فى النسق الدينى . فمن ناحية كان محمد يحس بأنه ليس الا مبلغا للوحى الالهى الثابت المكتوب ومن أجل ذلك وضع شخصه فى الخلفية على نحو يتسم بالخضوع .

ولكن التغيير غير المتوقع لظروفه الخارجية ـ وبصفة خاصة انتصاره فى بدر ـ كان له تأثير قوى على وعى النبى باصطفائه . وأخيرا أصبح الوحى الذى كان يظهر فى البداية بوصفه تأثيرا من جهة عليا فوق التشخص دون أن يكون ذا صلة واعية بحياة النبى النفسية ـ أصبح بالتدريج يأتيه أيضا مرتبطا بوعى عادى ، وهذا الارتباط جعل الوحى اخيرا واقعا الى حد ما تحت مراقبة نفسية . وهكذا وصل الأمر بالنبى بالتدريج الى الحد الذى جعله يعتبر ما يبدو له من أفكار وقرارات على انها وحى الله ، ويتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلهما فى مكانة واحدة(٦٠) .

---

(٥٩) تور أندريه (١٨٨٥ ــ ١٩٤٧) مستشرق سويدى . عمل أستاذا للعلوم الدينية فى جامعتى استوكهلم وأوبساله ــ ومن مؤلفاته : بحوث فى الكنائس النسطورية فى الحيرة واليمن وأثرها فى الاسلام . وله دراسات حول : القصص فى الاسلام ، والصوفية ، والنصرانية والاسلام ، والاسلام عقيدة ووحى ، ومن هو محمد ؟

أما كتابه عن سيرة الرسول (شخص محمد فى تعاليم وعقيدة أتباعه) فقد كان رسالته للدكتوراة التى تقدم بها الى جامعة استوكهلم عام ١٩١٧ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الايطالية والانجليزية والألمانية ، وهو الكتاب الذى يتحدث عنه بفانمولر هنا . (المستشرقون ٣ / ٣٣ ، بفانمولر ١١٣) .

(٦٠) لقد بدأ وعى محمد باصطفائه مع بداية بعثته والا لما استطاع أن يصمد هذا الصمود العجيب مدة ثلاثة عشر عاما فى مكة يدعو فيها الى دين الله . ومن منطلق وعيه التام باصطفائه وبأن ما جاء به هو الحق كانت قولته الشهيرة لعمه أبى طالب : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ».

وقد بدا محمد ايضا متسامحا الى درجة معينة ازاء ما كان يقدمه له اصحابه من الاحترام أو التقديس الخرافى الذى كان يقدم فى العصور القديمة للرجل القديس . وكنتيجة أخيرة للتطور الذى وصل اليه الوعى النبوى لدى محمد بتأثير من انتصاراته العظيمة نجد الاقتناع لديه بأن رسالته جاءت عامة للعالم كله ، وان دينه قد قدر له أن يحقق النصر على

وهكذا نرى أن هذا الوعى بالاصطفاء لم يكن — أو لم يزدد — نتيجة ظروف خارجية « غير متوقعة » ، فقد كان واضحا جليا منذ اللحظة التى أمره الله فيها أن يصدع بدعوته ويعلن على الناس رسالته ، فخرج اليهم قبل انتصار بدر بأثنى عشر عاما يقول لهم : « أنا رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة » .

وعلى الرغم من هذا الوعى القوى بالاصطفاء ، فانه قد ظل حتى آخر لحظة يشعر بأنه ليس الا مبلغا رسالة ربه . وقد ورد تأكيد هذا المعنى فى القرآن فى اثنى عشر موضعا على الأقل نصفها مدنى والنصف الآخر مكى .

وقد كان الوحى منذ البداية مرتبطا بعلاقة واعية متيقظة بحياة النبى النفسية فقد روى البخارى فى صحيحه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول » .

أما القول بأن الأمر قد وصل بالنبى الى اعتبار أن ما كان يبدو له من افكار وقرارات وحيا من عند الله فهذا يعنى اتهام محمد بالكذب على الله اذ ينسب اليه ما لم يقله . وهذا كلام مردود لا سند له من الواقع . فمحمد صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة وبعدها هو الصادق الأمين الذى لم يجرب عليه أحد كذبا قط ، وكان قمة القمم فى السلوك الفاضل الذى استحق به أن يمدحه الله فى قوله : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (القلم : ٤) .

أما أن محمدا كان يتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلهما فى مكانة واحدة فلعل (أندريه) يعنى هنا ما ورد فى القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « **من يطع الرسول فقد اطاع الله** » (النساء : ٨٠) ، وقوله : « **اطيعوا الله ورسوله** » (الأنفال : ٢٠) ، وقوله : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » (آل عمران : ٣١) ، وأمثال هذه الآيات كثير . ولكن المتكلم هنا هو الله لا محمد ، والله أيضا هو الذى كان يعاتب نبيه عندما كان يتخذ قرارا لا يكون هو القرار الأولى ، كما عاتبه فى عبد الله بن أم مكتوم وفى فداء الأسرى .

كل الديانات الأخرى . وانه هو نفسه « خاتم النبيين » ، وافضل الأنبياء وآخرهم ، وانه كان مقصد تطور النبوة كله فى حقيقة الأمر . وعلى هذا النحو كان فى وسع التقديس الذى نشأ فيما بعد للنبى أن يجد فى الواقع أيضا نقاط ارتباط معينة فى الشهادات الذاتية لمحمد (٦١).

---

(٦١) لم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم لنفسه مكانة معينة . ولم يتبل أن يقدم لــه أحد تقديسا أو احتراما خرافيا أو غير خرافى . فقد كان — على العكس من ذلك — يرفض مثل هــذا اللون من التقديس . وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » — رواه البخارى — ، وقد روى ابن ماجة عن ابن مسعود قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه فقال له : « هون عليك فانى لست بملك ، انما أنا ابن امرأة تأكل القديد » .

والقرآن يؤكد فى العديد من آياته على بشرية الرسول . ومن ذلك قوله تعالى : « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحــد** » (الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦) ، وقوله : « **قل ســبحان ربى هــل كنت الا بشرا رسولا** » ؟ (الاسراء : ٩٣) .

أما اقتناع محمد بعموم رسالته لكل البشر فلم يكن ذلك نتيجة لانتصارات معينة ، بل كان ذلك الاقتناع من أول يوم صدع فيه بالدعوة حين خرج على الناس يقول لهم : « انا رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة » — وعموم رسالته يعنى ختم النبوة ، فمن المعروف أن موسى عليه السلام قد أرسل الى بنى اسرائيل فقط ، وأن عيسى عليه السلام قد ارسل الى « خراف بنى اسرائيل الضالة » . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسل الى الناس جميعا . وفى ذلك يقول — فيما يرويه البخارى ومسلم : « وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة » . فليس هناك اذن مجال لرسالة أخرى بعد أن أكمل الله الدين ورضى الاســلام دينا للعالمين : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » (المــائدة : ٣) ، والدين عند الله بصفة عامة هو الاسلام « **ان الدين عند الله الاسلام** » (آل عمران : ١٩) .

ولكن نسخ الاسلام للشرائع السابقة لم يجعل محمدا يقلل من شــأن الأنبياء السابقين عليه فكلهم من نفس النبع اغترفوا . وفى هذا الصــدد يقول القرآن : « **لا نفرق بين أحد من رسله** » (البقرة : ٢٨٥) ، وقــد روى البخــارى أن النبى صــلى الله عليه وســلم قال : « لا تخيرونى على موسى » .

وفى الفصل الأول يصف اندريه نشأة « اسطورة النبى » وكيف كانت بصفة خاصة عملا من اعمال القصاص ، وهم اولئك الذين احترفوا مهنة حكاية الاساطير ، وتصادفنا آثار نشاطهم فى كتاب ابن اسحاق(٦٢). فحياة محمد كلها يتم نسجها هكذا بالتدريج فى شبكة من المعجزات . ويبسط اندريه القول بوجه خاص فى قصة ميلاد محمد والمعراج ومعجزات الطعام والماء ومعجزة الشفاء وشق الصدر وانشقاق القمر . والمصدر الرئيسى لهذه المعجزات هو اساطير واقاصيص دوائر الحضارة الهللينية(٦٣) . وبعد مضى بعض الوقت (على أعمال القصاص) ظهرت مؤلفات حول معجزات محمد ، وقد حظيت هذه المؤلفات ايضا بعرض تفصيلى من جانب اندريه .

اما الفصل الثانى فانه يصف المحاولات التى قام بها العلم المختص بالعقيدة لمناقشة هذه المعجزات التى استقرت فى عقيدة الشعب . وتشكل تعاليم عصمة النبى محتوى الفصل الثالث . وقد تزايد باستمرار تبرئة شخص محمد من كل الأخطاء وتحرير افعاله من كل ما يمكن أن يكون

---

(٦٢) ابن اسحاق : هو ابو عبد الله محمد . توفر على جمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبى صلى الله عليه وسلم ويظهر انه قام بتدوين سيرة النبى فى كتابين أولهما : « كتاب المبتدأ » أو « كتاب المبدأ وقصص الأنبياء » ويتضمن تاريخ النبى حتى الهجرة ، وثانيهما هو كتاب «المغازى» وقد عرف ابن هشام كتاب المغازى عن طريق تلميذ مباشر لابن اسحق هو زياد بن عبد الله الكوفى . وقد جمع ابن هشام كتابى ابن اسحاق وهذبهما كثيرا فى مواضع معينة واستخلص منهما « كتاب سيرة رسول الله » وقد أخرج هذا الكتاب فى صورته الحالية فى القرن الرابع الهجرى الوزير المغربى ، وشرحه السهيلى المتوفى عام ٥٠٨ هـ . أما ابن اسحاق فقد توفى فى بغداد حوالى عام ١٥٠ من الهجرة . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية) .

(٦٣) تروى الكتب المسيحية الأوروبية المؤلفة عن حياة القديسين المسيحيين ألوانا شتى من الأقاصيص والغرائب وخوارق العادات وعجائب الأمور التى حدثت على أيدى هؤلاء القديسين ، ويستكثر أندريه على محمد النبى أن تحدث له مثل هذه المعجزات ، ويسارع بردها الى الحضارة اليونانية ! فأى منطق هذا ؟ وكيف وأين اتصل هؤلاء « القصاص » الذين يروى عنهم ابن اسحاق هذه المعجزات بالحضارة اليونانية ؟ .

متارا للنقد(٦٤) . وفى الفصل الرابع الذى جاء بعنوان (شخص محمد والسنة) يظهر محمد ايضا بوصفه المثل الأعلى لكل مجالات الحياة الاخلاقية . وقد كان لصورته المثالية قوة تأثير عظيمة لدى الصوفية .

أما الفصل الخامس الذى يحمل عنوان (شخص النبى والتقوى) فانه يصف المكانة التى يتمتع بها النبى بوصفه شفيعا او وسيطا بين المذنبين من الناس والرب الرحيم ، وأخيرا يتناول الفصل الأخير موضوع (نشأة تقديس النبى) وكيف تم تكوينه بصفة رئيسية عن طريق الصوفية بتأثير شيعى . وقد تسرب ايضا مفهوم الوحى وكذلك تعاليم الوجود السابق والعقل (اللوجوس) الى الاسلام السنى بالتدريج بتأثير شيعى . ويعد محمد المنفذ الوحيد للقدرة الالهية . اجل ، انه يعد فى النهاية المثل الأعلى لكل المتصوفة الذين تربطهم بالنبى علاقة تقديس مفعم بالحب(٦٥) .

---

(٦٤) ليس هناك محاولة مصطنعة من جانب علم الكلام لتبرئة النبى عليه الصلاة والسلام من كل الأخطاء . فان من لوازم النبوة بالضرورة وجوب الاعتقاد فى أمانة النبى فى تبليغ ما أمره الله بتبليغه ، وعصمته من كل ما يشوه سيرته ، وهذه من الصفات التى يجب أن تتوفر فى كل الأنبياء . وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم خير شاهد على ذلك . ومن ناحية أخرى فان الأنبياء يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أفراد البشر من الأمور التى لا تخل بمقام الرسالة ، فهم ياكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، وتمتد اليهم أيدى الظلمة وينالهم الاضطهاد . وقد تكفل علم الكلام بتفصيل القول فى ذلك وفى غيره من أمور الاعتقاد .

(٦٥) سبق أن أشرنا الى أن اجلال المسلمين للنبى صلى الله عليه وسلم لا يخرجه عن اطار البشرية ، وهو اجلال يقف عند حدود ما رسمه القرآن الكريم . أما التأثيرات الدخيلة التى يرى أندريه أنها تسربت الى الاسلام بتأثير شيعى فنود هنا أن نؤكد أن الاسلام — بمصدريه القرآن والسنة الصحيحة — لا يتحمل تبعة أية أفهام تنحرف بتعاليمه خارج اطار هذين المصدرين اللذين لم يمتزجا أو يتأثرا فى يوم من الأيام بأية تيارات دخيلة من أى نوع وفى أى شكل . وهذه ميزة فريدة يمتاز بها الاسلام عما عداه من أديان سماوية اختلط فيها الدخيل بالأصيل لدرجة الامتزاج التام .

ولست أدرى ماذا يقصد أندريه بجعله مفهوم الوحى ضمن العناصر

وقد اغفل اندريه تماما الشعر المعاصر لمحمد والفترة المبكرة للاسلام .

= التى دخلت الى الاسلام «السنى» بتأثير شيعى . فالمعروف أن مفهوم الوحى مفهوم قرآنى خالص يعرفه المسلمون قبل ظهور مفاهيم الشيعة والسنة وغيرها .

أما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يعد المثل الأعلى للصوفية الذين تربطهم بالنبى علاقة مفعمة بالحب فنود أن نؤكد هنا أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المثل الاعلى لكل المسلمين وليس للصوفية فقط . فالله سبحانه وتعالى قد جعله « أسوة حسنة » للجميع يترسمون خطاه ويسيرون على هديه « **لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر** » (الأحزاب : ٢١) وقد امتدحه الله فى قوله : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (القلم : ٤) وأمر الله المسلمين جميعا بالصلاة عليه اقتداء بربهم وملائكته فى ذلك « **ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** » (الأحزاب : ٥٦) .

والمسلمون جميعا — وليس الصوفية فقط — تربطهم بنبيهم علاقة حب غامر يجل عن الوصف . وينطلق هذا الحب من القرآن نفسه الذى ربط بين اتباع النبى ومحبة الله « **ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » (آل عمران : ٣١) ، وقد جعل القرآن جميع ألوان الاهتمامات الدنيوية التى يمكن أن تكون محورا للحب فى كفة وحب الله ورسوله فى كفة أخرى . وفى ذلك يقول الله تعالى : « **قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** » (التوبة : ٢٤) .

وهذا الحب الغامر يتمثل بصورة جلية فى القصة التالية :

أسر المشركون زيد بن الدثنة وساقوه الى ساحة القتل ، وهناك سأله أبو سفيان — والرمح موجه الى بطن زيد ليغرس فى أحشائه — أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وانك سالم فى أهلك ؟ فأجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وانى جالس فى أهلى » . وهنا قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كما يحب أصحاب محمد محمدا .

(القصة منقولة عن مقال لفضيلة الشيخ محمد الغزالى بمجلة الدوحة مارس ١٩٨٤) .

ويشير (جوزيف هوروفيتس Josef Horowitz) (٦٦) فى هذا المجال فى مقالته التى تحدث فيها باسهاب عن كتاب أندريه فى مجلة « الاسلام » (مجلد ١١ من عام ١٩٢١ ص ٢٧٧ ٢٨٣) .

* * *

١٧ ــ شفاللى (Schwally) :

وأخيرا يقدم لنا (شفاللى) (٦٧) لمحة قصيرة عن البحوث المسيحية لحياة محمد فى المجلد الثانى من الطبعة التى قام باعدادها من جديد لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » (ص ١٩٨ ــ ٢٠٨) وذلك تحت عنوان : « السير المسيحية للنبى » وطبقا للتحول الذى طرأ على الحكم على المأثورات العربية (قارن ص ١٩٣ ــ ١٩٨ : نقد المأثورات) يقسم شفاللى المؤلفات الغربية عن حياة محمد الى ثلاث فترات (على النحو التالى) :

١ ــ السيادة المتصلة للتقاليد الموروثة حتى منتصف القرن التاسع عشر (شبرنجر) .

٢ ــ عصر بداية النقد لأجزاء منفردة من الموروثات .

٣ ــ عصر النقد المنهجى للموروثات جميعها .

أما الفترة الأولى فتمتد من العصر الوسيط كله حتى منتصف القرن التاسع عشر . وهنا يشير باختصار الى كل من هوتنجر وماراتشى وريلاند ،

---

(٦٦) جوزيف هوروفيتس (١٨٧٤ ــ ١٩٣١) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للعربية فى جامعة عليكره بالهند ، ثم فى جامعة فرانكفورت بألمانيا . له دراسات عديدة فى الاسلام والأدب العربى ، نشر أو اشترك فى نشر العديد من المؤلفات العربية ، وترجم بعضها الى الانجليزية أو الألمانية .

(٦٧) فريدريك شفاللى (١٨٦٣ ــ ١٩١٩) مستشرق ألمانى ، تتلمذ على نولدكه . قام بنشر كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقى فى ثلاثة مجلدات (جيسن ١٩٠٢) وعنه طبع فى القاهرة ، اشترك فى نشر الطبقات لابن سعد . أعاد طبع « تاريخ القرآن » لنولدكه بعد تحقيقه والتعليق عليه فى مجلدين ــ ليبتزيج ١٩٠٩ ــ ١٩١٩ ــ (المستشرقون ٢ / ٤١٠) .

وبعدذلك يتناول بتفصيل أكثر كلا من جانييه وكوسان دى برسيفال وجوستاف فايل. أما الفترة الثانية فيذكر منها الأسماء التالية : شبرنجر وموير ونولدكه ودوزى وكرين ورانكه واوجست ميللر وجريمه وبول ومرجيليوث .
واما الفترة الثالثة التى نعيش فى بداياتها فينتمى اليها بصفة خاصة الكتاب الضخم الذى قام بتأليفه (ليونى كيتانى Leone Caetani)(٦٨)

* * *

---

(٦٨) **الأمير ليونى** كايتانى (١٨٦٩ — ١٩٢٦) **مستشرق ايطالى** . كانت لديه ثروة طائلة أنفقها على العلم والرحلات واقتناء الكتب والمخطوطات النفيسة ونشر مؤلفاته حتى أفلس فى النهاية ومن مؤلفاته : دراسة التاريخ الشرقى ، فى عدة مجلدات (ميلانو ١٩١١ وما بعدها) وقد خصص منها مجلدا لسيرة الرسول . وله أيضا : حوليات الاسلام فى حوالى ستة مجلدات (ميلانو ١٩٠٥ — وما بعدها) . وقد أنفق على ثلاث بعثات لمناطق الفتح لرسمها جغرافيا وطبوغرافيا ، وجمع المصادر من اللاتينية والسريانية والعربية ، وتناولها بالنقد والتحليل لتحقيق أخبار المصادر العربية التى لم تنشر بعد ، وتحديد ما ينبغى الرجوع اليه منها لمعرفة كل حادثة . وكان يعد بالاشتراك مع جوزيبى جابرييلى معجم الاعلام عن شخصيات العالم الاسلامى الذى كان ينتظر أن يقع فى ٣٥ مجلدا ، ولكن الموت حال بينه وبين اتمام هذا العمل فوقف عند الجزء الثانى منه (انظر أيضا « المستشرقون » ١/ ٤٢٩ وما بعدها) .

اسطورة العصر الوسيط عن محمد

١ - كواريسميوس (Quaresmius) :

لقد كانت المحاولة الأولى لتناول أساطير العصر الوسيط عن محمد هى تلك التى قام بها (كواريسميوس) فى صورة مختصرة (قارن ايضا دراسته حول مولد محمد وتطوره والعصر الذى عاش فيه :

(De ortu, progressu et tempore quo floruit Mahomet)

ولكن هذه المحاولة ظلت محاولة فردية تماما . وفى القرن التاسع عشر بدأ المرء يوجه قدرا أكبر من الاهتمام للتصورات العديدة التى تكونت فى العصر الوسيط عن محمد .

* * *

٢ - رينـــو (Reinaud) :

وقد صاغ رينو فى نشرته لرواية محمد (Roman de Mahomet) (٦٩) المهمة المطروحة فى هذا الصدد امام العلم فى قوله : « انه لمن الأمـــور ذات الفائدة أن تكون هناك قائمة دقيقة وكاملة عما كتب فى صورة متتابعة حول موضوعات هامة من جانب مختلف الطوائف المسيحية . فبوســع المرء ان يلحظ فى ذلك الأثر البطىء والحتمى لفعل العصور والأحداث والأماكن ، وبوسعه أن يلاحظ التأثيرات المختلفة التى تحدثها المعتقدات الخاصة والوضع الأخلاقى والسياسى والجوانب الحضارية المتقدمة أو المتخلفة » .

وقد رسم رينو باختصار بعض خطوط هذه الصورة . وفى البدايــة يقدم لنا لمحة عن التصورات التى اتخذها المرء عن شخص محمد وحياته بدءا من العصر الوسيط حتى عصر بايل وجانييه وجيبون . وبعد ذلك يتناول المؤلفات العديدة للمجادلات التى جرت حول ديانة محمد فى الشرق والغرب ، ويقدم لنا باختصــار بعض الخصائص المميزة لبعض هـــذه المؤلفـــات .

* * *

---

(٦٩) صدرت هذه الطبعة فى باريس عام ١٨٣١ ، والرواية فى الأصل منسوبة الى الكسندر دو بون من القرن الثالث عشر الميلادى .

٣ ـ زيوليكى (Ziolecki) :

ونظرا لأن طبعة « رواية محمد » لرينو وميشيل كانت قد نفدت فقد قام زيوليكى بنشرها من جديد(٧٠) واضاف اليها مقالة بعنوان « بحوث حول اسطورة محمد فى العصر الوسيط » .

* * *

٤ ـ ادلستان دو ميريل (Edélestand du Méril) :

اما اساس « رواية محمد » لـ (الكسندر دو بون A. du pont) فانه يتمثل فى « الأساطير الشعرية عن محمد » (otia de Mahomete) لـ فالتيريوس (Waltherius) أو جوتييه الكومبيى(٧١) . وقد نشرها أول مرة ادلستان دو ميريل فى كتابه « الأشعار الشعبية اللاتينية فى العصر الوسيط »

وقد اجمل الناشر فى مقدمته لها بعض الخطوط المميزة لأسطورة محمد فى الغرب والشرق . وقام (بروتس Prutz) باخراج ونشر « اساطير محمد الشعرية » نفسها اعتمادا على مخطوطة اخرى وتناولها باسهاب .

* * *

٥ ـ دى لينسى (Le Roux de Lincy) :

ويقدم لنا (ليرو دى لنسى)(٧٢) بعض النماذج من اسطورة محمد فى العصر الوسيط من امثال ما ورد فى تاريخ الأسقف (تربين Turpin) (٧٣) ، و « المرآة التاريخية » من تأليف فينسنس

---

(٧٠) صدرت هذه الطبعة فى أوبلن (Oppeln) عام ١٨٨٧ .

(٧١) نسبة الى مدينة كومبين (Compiegne) الفرنسية .

(٧٢) صدر كتاب دى لنسى فى باريس عام ١٨٣٦ بعنوان : كتاب الأساطير .

(٧٣) صدر كتاب تربين بالفرنسية حوالى عام ١٧٧٣ بعنوان : تاريخ محمد مشرع العربية .

فون بوفيه ، وقصيدة الثعلب البغيض (le Renard contrefait) والكتاب الذى الفه اليهودى المتنصر الفونس المنتسب الى (اسبينا Spina) بعنوان (Fortalitium Fidei)

* * *

٦ ـ جـاس (Gass) :

اما جاس (٧٤) فانه يقدم لنا فى البداية لمحة قصيرة عن الجـدل المسيحى لكل من الغرب والشرق ضد محمد وضد تعاليمه ، هذا الجـدل الذى يرى انه يشكل القسم الرئيسى الثانى لدفاع الكنيسة المسيحية الموجـه نحو الخـارج .

وفى قسم ثان يصف التقاليد المسيحية فيما يتصل بحياة محمـد وشخصه ، نظرا لأن الكتاب المحدثين لسيرة محمد من امثال جانييه وتربين وأيضا فايل قد اعتمدوا فى الغالب على ابى الفداء (٧٥) وعلى مصادر شرقية أخـرى .

وبعد ذلك عرض فى القسم الثالث الى الخامس تعاليم محمد والاسلام فى مقارنة متواصلة بالتعاليم المسيحية وبصفة خاصة ما يتصل بالله والمسيح وتجسد المسيح والأسرار المقدسة والصلاة والصوم وفعـل الخـير والحج والقدر . أما الفصل الختامى فانه يشتمل على « وجهات نظر حول القضاء والقدر » .

* * *

---

(٧٤) الكتاب الذى يعرضه بفانموللر هنا من تأليف جاس هو كتاب : « الأرسطية والأفلاطونية فى الكنيسة البونانية ، مع بحث حول معارضة الاسلام فى العصر الوسيط » وقد صدر فى برسلاو عام ١٨٤٤ .

(٧٥) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الأيوبى ، سـليل أحـد فروع الدولة الأيوبية فى مصر . ولد عام ٦٧٢هـ بدمشق ، تولى امـارة حماه ، وكان له نشاط علمى ملحوظ ، وقد آشتهر بوجه خاص بوصفـه مؤرخا وجغرافيا . وأهم مؤلفاته كتابه « مختصر تاريخ البشر » وكتابه فى « تقويم البلدان » وقد تناول فى الكتاب الأول تاريخ ما قبل الاسلام ثم تاريخ الاسلام حتى عام ٧٢٩ هـ . وقد طبع هـذا الكتـاب فى مجلدين بالقسطنطينية عام ١٢٨٦هـ وترجمت أجزاء منه الى اللاتينية والفرنسـية والانجليزية . اما كتابه فى « تقويم البلدان » فقد انتهى من تأليفه عام ٧٢١هـ.

٧ ـ بروتس (Prutz) :

وقد كانت أكثر الأعمال استفاضة من جانب (بروتس) فى تناوله لموضوع « تصورات العصر الوسيط المسيحى عن محمد وتعاليمه » وذلك فى الفصل الخامس من الكتاب الأول من مؤلفه « التاريخ الحضارى للحملات الصليبية »(٧٦) ويبرز بروتس فى بادىء الأمر مدى قلة المعلومات الصحيحة عن الاسلام التى تم الحصول عليها من خلال الاتصال الذى حدث عن قرب بين الاسلام والمسيحية سواء فى اسبانيا او فى فلسطين او فى سوريا ٠ فالمحمديون والمسيحيون يواجهون بعضهم بعضا بعد فترة طويلة من التعارف المتبادل وهم فى حالة من انعدام الفهم مثلما كان الأمر لدى الاتصال الأول ٠ فالصورة التى اتخذها المسيحيون فى الغرب عن محمد وتعاليمه أصبحت كلما مر الزمن كلما ازدادت كدورة عن طريق أسوأ الخرافات ، وفى النهاية شوهت تماما عن طريق أسخف التصورات الجنونية وأخبث الافتراءات ٠

وقد كان السبب الرئيسى لذلك هو أنه لم يكن هناك من سبيل الى معرفة الاسلام الا عن طريق السلطات الكنسية التى كان يهمها بطبيعة الحال أن تعرض تعاليم محمد فى صورة منحطة وفاسدة بقدر الامكان ، فى حين اننا لم نكن نتوقع حكما موضوعيا نسبيا الا من جانب أولئك الذين عاشوا لسبب من الأسباب فترة طويلة فى سلام فى وسط العالم المحمدى ، وبوجه خاص من جانب بعض المبشرين من أمثال فيلهلم الطرابلسى وريكولدوس دى مونت كروتسيس ٠

وبعد هذه الملاحظات التمهيدية يصف لنا بروتس أولا آراء الغرب فى محمد وفى تعاليمه ٠ فبعد المحاولة التى قام بها اليهودى الأسبانى المتنصر بتروس الفونسوس لنقض القرآن فى بداية القرن الحادى عشر ، تناول هذا العمل بتعمق خاص بطرس الموقر رئيس رهبان (كلونى Cluny) (٧٧) الذى كان صديقا للقديس برنهارد المنتسب الى

---

(٧٦) صدر هذا الكتاب فى برلين عام ١٨٨٣ ٠ ولبروتس أيضا بحث بعنوان : « حول أساطير محمد لجوتييه الكومبينى » من منشورات أكاديمية العلوم فى ميونيخ عام ١٩٠٣ ٠

(٧٧) بطرس الموقر (١٠٩٤ ـ ١١٥٦) راهب فرنسى ينتمى الى

(كليرفو Clairvaux) . وقد عمل بطرس الموقر فى البداية على انجـاز ترجمة للقرآن الى اللغة اللاتينية(٧٨) . وبالاضافة الى ذلك امر بترجمة كتابين آخرين احدهما عن سيرة النبى والثانى عرض للنقاط الأساسية فى تعاليم العقيدة المحمدية فى شكل حوار .

واخيرا قام بتأليف اربعة كتب « ضـد الزندقة البغيضة لطائفـة المسلمين » . وهذه الأعمال التى قام بها هـذا الرجل الكلونى المتحمس لا ترسم مجرد بداية الجدل الأوروبى ضد الاسلام فحسب بل اصبحـت المصدر الرئيسى أيضا للتصورات غير المعقـولة التى صارت فيما بعـد مألوفة لدى المسيحيين عن حياة محمد وتعاليمه . والى مؤلفات بطـرس الموقر ترجع غالبية المؤلفات الجدلية العديدة التى نشأت فى العصر الوسيط ضد الاسلام ، سواء اكانت نثرا او فى شكل شعرى او فى صيغة اخبار وتقارير حول المناقشات التى جرت – زعما كان ذلك او حقيقة – بين رجال الدين المسيحيين والمحمديين . وفى هـذه المناقشات يظهر محمـد ليس فقط نبيا زائفا ومضللا ، وانما أيضـا محتالا وضيعا ومن عشـاق اللذة(٧٩) .

ومن بين التصورات التى كانت منتشرة بصفة خاصـة القول بأن المحمديين لم يكونوا يجلون محمدا لمجرد كونه نبيهم ومؤسس دينهم بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثل الألوهية . وبالاضافة الى ذلك وصف دين محمد – على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية – بانه دين الشرك

= جماعة الرهبانية البندكتية التى شيدت دير كلونى عام ٩١٠ فى فرنسا . قصد الاندلس فيمن قصدها مستزيداً من علومها ، وكان الرهبان الأسبان قد جعلوا من دير كلونى فى القرن الثانى عشر مركزا خطـيرا لنشر الثقافـة العربية .

(٧٨) تمت هذه الترجمة عام ١١٤٣ م على يد العالم الانجليزى روبرت أوف كيتون بايعاز من بطرس الموقر .

(٧٩) اذا كان هناك قدر كبير من هذا الهراء يعود فى اصله الى اباطيل الأب بطرس « الموقر » فلست أفهم سببا معقولا لوصفه بالموقر ، اذ أن ما قام به — من وجهة نظر موضوعية — هو افتئات على الحقيقـة وجريمة فى حق التاريخ وتضليل متعمد وكذب صريح .فهل يبقى بعد ذلك مكان لوصفه بالتوقير والاحترام ؟ .

وتعدد الألوهيـة . وقد اتهم المحمديون ايضا — دون سـند تاريخى — بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة ، وكذلك كان المرء يهزأ من امية النبى ويسخر من الراعى السابق للابل والحمير(٨٠) .

ولابد ان يعود هـذا الجهل التام وسوء التقدير للاسـلام — رغم الاختلاط الكثير المباشر — الى حد ما الى ان التعرف الأول على الاسلام قد تم عن طريق وساطة لا يوثق بها الا قليلا ، اعنى عن طريق البيزنطيين .

وترجع اقدم التقارير التاريخية التى لدينا عن نشأة الاسـلام الى (تيوفانس Theophanes) البيزنطى . وقد عرضه امين المكتبة الرومانى اناستاسيوس فى كتابه عن تاريخ الكنيسـة . والى هـذا التقرير ترجع غالبية الأساطير التى قيلت عن محمد فى العصر الوسيط .

وبعد ذلك قدمت الحملات الصليبية دافعا جديدا . ومن هنا اتخذت صورة محمد باستمرار لونا اشنع من ذى قبل . وعرضت باستمرار بصورة اكثر فظاعة . ويقدم لنا أولا « جيبير النوجنتى »Guibert de Nogent (Sous - Coucy) صورة شاملة . وكثيرا ما عرضت اسطورة محمد أيضا فى صور شـعرية . وهكذا قام هيلديبرت المنتسب الى (ليمـو Lemans) والذى كان فيما بعد رئيسا للأساقفة (تور Tours) (توفى عام ١١٣٣م) قام بكتـابة تاريخ محمـد فى صـورة شـعرية معينـة (Distichen) تتضمن ذكريات كلاسيكية . وقد ظهرت فيما بعـد قصيدة مشابهة وهى

---

(٨٠) لسنا فى حاجة الى التعليق على هذه التصورات الباطلة ، فهى — كما يقول بفانمولر — تصورات تناقض الحقيقة التاريخية وتفتقد اى سند تاريخى . وقد كان البيزنطيون — كما يقول بفانمولر بعد قليل — هم اول من اذاع فى الغرب معظم الأساطير التى شاعت حول محمد والاسلام .

ويبقى أن نشير الى أن امية محمد عليه الصلاة والاسلام والتى أشار اليها القرآن فى آيات عديدة كانت من دعائم الاعجاز ، فهى مناط فخر وبرهان صدق على دعوته لا مثار سخرية واستهزاء . أما رعيه صلى الله عليه وسلم للابل أو الغنم فلم يكن فى ذلك بدعا من الرسل ، فقد مارسوا جميعا رعى الغنم وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بعث الله نبيا الا رعى الغنم » — رواه البخارى — ويقول أيضا : « كنت أرعى غنم أهلى » — رواه الترمذى — وليس فى ذلك سبة أو منقصة كما يفهم الجاهلون بقدره وقدر الأنبياء جميعا .

« أساطير محمد لدى فالتيرى » (Otia Walteri de Mahomet) وعلى هذه القصيدة اللاتينية تعتمد اعتمادا تاما « رواية محمد » Roman de) Mahomet (التى كتبها (الكسندر دو بون du Pont) . وفى العرض الذى قدمه لنا اندريا داندولو الفينيسى (Andrea Dendolo) تتجمع عناصر الأساطير البيزنطية عن محمد ، مع الاختراعات التى يجب ان توضع على حساب خيال المحاربين الصليبيين وعلى حساب قادتهم الروحيين .

ونحن نجد التجميع الكامل لكل ما يتعلق بمحمد من اساطير وخرافات ومخترعات افترائية للعصر المسيحى الوسيط فى كتاب (فينسينز Vincenz) (المنتسب الى بوفيه Beauvais) والمسمى (المرآة التاريخية Speculum historiale) .

وهناك حكم اكثر موضوعية الى حد بعيد عن محمد والاسلام نجده لدى الراهب الواعظ فيلهلم الطرابلسى الذى يبدو انه قد اغترف كثيرا من المصادر الشرقية ، وفى وسعه أيضا أن يطلعنا على معلومات هامة حول نشأة القرآن .

اما جيرهارد الاشتراسبورجى (٨١) الذى ذهب الى صلاح الدين فى عام ١١٧٥ م بتكليف من القيصر فريدريك الأول – فان التقرير الذى وضعه حول أخلاق وعادات المحمديين يبرهن ليس فقط على ملاحظات جيدة ، بل يبرهن ايضا على حكم متسامح وموضوعى .

وهناك حكم اكثر تسامحا وموضوعية نجده فى العرض المسهب لعقيدة المحمديين وحياتهم واخلاقهم نذكره بالفضل للراهب الواعظ « ريكولدوس دى مونت كروسيز » (Recoldus de Monte Crucius) الذى كان له نشاط فى نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، والذى عاش سنوات طويلة مبشرا بين المحمديين . ولكن مثل هذه الأحكام والمعارف تصادفنا منفردة نسبيا فى العصر الوسيط .

وعلى العموم فان فى وسع المرء ان يدعى « أن الكفاح المرير الذى قاده العصر المسيحى الوسيط بالسلاح وبالجدل اللاهوتى ضد تعاليم محمد وضد أتباعه ، قد تم دون اية معرفة كافية بالخصم ودون اية فكرة

---

(٨١) نسبة الى مدينة اشتراسبورج الفرنسية .

عن ماهيتـه وطبيعته : فالاسلام الذى انطلق العصر المسيحى الوسـيط للقضاء عليه لم يكن له وجود فعلى فى يوم من الأيام » .

تلك كانت الخطوط الرئيسية للعرض المسهب الذى قدمه بروتس ، هـذا العرض الذى كان ينبض بالحيوية عن طريق الاقتباسات الوافرة من المؤلفين المعنيين والذى اكتمل بالأسانيد المصدرية المفصلة وبالأدلة .

* * *

٨ ــ دانكونا (D'Ancona) :

تمثل بحوث (دانكونا) المسهبة تكملة ممتازة لعمل بروتس وقد قادته دراساته المقارنة فى الآداب الرومانية الى طرح سؤال حول نوع المعرفة التى كانت لدى القرون المختلفة عن سيرة محمد(٨٢) .

وعلى أساس من اطلاعه الشامل رسم لنا دانكونا صورة لأسطورة محمد فى العصر الوسيط ، تلك الصورة التى عرض شوفان بعض خطوطها ببراعة فائقة فى مؤلفه الببليوجرافى (Bibliographie) (قارن أيضا النقد المفصل لرينان فى مجلة العلمـاء (Journal des Savants) ١٨٨٩ م ص ٤٢١ ــ ٤٢٨) .

ويتناول دانكونا على وجه الخصوص التأثيرات المسيحية على محمد (الراهب بحيرى)(٨٣) والأخبار المختلفة حول وفاة محمد ، ويبين

---

(٨٢) يرجع فى ذلك الى البحث الذى نشره دانكونا فى العدد رقم ١٣ من المجلة التاريخية للآداب الايطالية بعنوان « اسطورة محمد فى الغرب » من ص ١٩٩ الى ٢٨١ ، عام ١٨٨٩ .

(٨٣) بحيرى : راهب نصرانى ، كانت له صومعة فى بصرى من أعمال الشام على طريق القوافل ، وقد مر به محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى سن الثانية عشرة من عمره مع عمه أبو طالب ، فعرفه ببعض ملامحه وقال : « سيكون لهذا الغلام شأن عظيم » وأوصى عمه بحمايته .

ويصر بعض المستشرقين على تضخيم أثر مقابلة الرسول عليه الصـلاة والسلام لبحيرى رغم انه لا يوجد لذلك سند صحيح . وقد قال هوارت فى بحث له حول هذا الموضوع : « لا تسمح النصوص العربية التى عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى فى الدور المسند الى هذا الراهـب السورى الا مجرد قصة من نسج الخيال » .

(راجع : مدخل الى القــرآن الكريم للدكتور محمــد عبد الله دراز ص ١٣٤ ــ هامش ١ ، دار القلم بالكويت ١٩٧٤ ، وانظــر كتابنـــا : الاستشراق ص ٨٥) .

دانكونا الوحدة المميزة لهذه الأساطير منذ زمن المؤرخ البيزنطى (تيوفانس Theophanus) . وطبقا لهذه الأساطير يظهر محمد على انه زنديق ، وانه آريوس جديد أسوأ من آريوس الأول (٨٤) . وأسطورته تنهج نهج أسطورة الزنادقة الكنسيين الكبار من امثال (سيمون ماجوس S. Magus) أو (نيكولاوس Nikolaus) .

---

(٨٤) آريوس (٢٧٠ — ٣٣٦ م) ولد فى الاسكندرية وكان قسيسا بها ، وقد عارض أسقف الاسكندرية الذى كان يذهب الى القول بأن المسيح ابن الله وانه مساو للآب وان له طبيعة وذاتا واحدة مع الآب . وقد ذهب آريوس الى القول بأن المسيح غير مساو للآب فى الجوهر والعظمة وانه مخلوق بارادة الآب حادث غير أزلى .... الخ . وقد تبع آريوس كثيرون ، وعندما طرد من الاسكندرية خرج قاصدا فلسطين وسوريا فتحزب له أساقفة كثيرون فى تلك الجهات ولا سيما أسقف قيصرية وغيره من أساقفة بيروت وصور واللاذقية وغيرها .

وقد عقدت عدة مجامع كنسية لمناقشة تعاليمه منها مجمع الاسكندرية عام ٣١٩ ، ومجمع نيقية عام ٣٢٥ بأمر الامبراطور قسطنطين ، ومجمع القسطنطينية عام ٣٣٦ . وعلى الرغم من أن الغلبة فى النهاية استقرت لآراء مخالفيه الذين جعلوا من المسيح الها وقالوا بالتثليث فان تعاليمه قد انتشرت بعد موته أكثر مما انتشرت فى حياته ، واعتنق الملك قسطنس خليفة قسطنطين آراء آريوس . وقد أمر قسطنس بعقد مجمع فى مديولان (ميلان) حضره أكثر من ثلاثمائة أسقف،وتبين أن أكثرية الآراء فيه كانت للآريوسيين . وقد بقيت التعاليم الآريوسية ممتدة فى أسبانيا والولايات الجرمانية أكثر من ثلاثة قرون .

ولكن عندما وقع الانشقاق بين الآريوسيين وانقسموا الى فرق عديدة ضعفت قوتهم وتمكن منهم خصومهم . وفى أيام ثيودوسيوس الثانى صدر الأمر باستئصال الآريوسيين وابادتهم ، وكان ذلك فىعام ٤٢٨م . ويقال ان سرفتس أحيا تعاليم الآريوسية فى القرن السادس عشر فذاعت هذه التعاليم وسببت ازعاجا للكنيسة التى سارعت بالقضاء على معتنقيها . (راجع دائرة معارف البستانى) .

والأمر الجدير بالذكر هو أن الرأى الذى كان يقول به آريوس هو الرأى الذى يعتبره القرآن الكريم العقيدة المسيحية الصحيحة التى ترفض التثليث وترفض الوهية المسيح . ومن هنا جاء هذا الاتهام الموجه الى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه آريوس جديد لأنه أكد بنص القرآن بشرية المسيح ورفض ما عدا ذلك من تعاليم مصطنعة .
=

وتضيف المؤلفات الشعبية الى ذلك افتراءات شنيعة ، ولكن هناك بجانب ذلك اقوالا ايجابية ايضا . ونظرا لانه قد حيل بين محمد وبين منصب البابوية الذى يستحقه – نظير خدماته التى اداها بجعل قسم كبير من العالم يدين بعقيدة الايمان باله واحد – فقد تحول الى منشق على الكنيسة (٨٥) .

ويبين دانكونا بعد ذلك كيف أن جزءا من أسطورة محمد – ذلك الذى يتصل باصل محمد وعلاقته بالمسيحية واليهودية – يبتعد قليلا عن الحقيقة التاريخية (٨٦) . ولكن بمرور الزمن تبتعد الاسطورة بصفة متزايدة باستمرار عن الحقيقة التاريخية ، ويصبح محمد مشابها لنيكولاوس و (بلاجيوس Pelagius) ، اجل ، فالبعض كان يرى أن الاسلام قد انبثق من النزاعات الداخلية الخبيثة للكرادلة الرومانيين ! واخيرا تبقى الأسطورة عند موت محمد مع احساس بنوع خاص من الغبطة . فالخنازير قد التهمته وهو فى حالة سكر ! ولهذا السبب اصبح اكل لحم الخنزير محرما لدى المحمديين (٨٧) .

* * *

= ولبعض العلماء نظرة ثاقبة فى تفسير لفظ « الأريسيين » الذى ورد فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل قيصر الروم ، والتى جاء فيها : «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم الأريسيين» ويذهب هذا البعض من العلماء الى أن المقصود بالاريسيين هنا هم أتباع آريوس القائلين بالعقيدة المسيحية الصحيحة . وهذا تفسير ذكى أقرب الى العقل والمنطق من كل ما عداه من تفسيرات أخرى .

(٨٥) هذه أسطورة مضحكة لا تستحق الوقوف عندها .

(٨٦) هنا اشارة خفية الى أن هناك تأثيرا يهوديا مسيحيا على محمد ورسالته . وهذه نغمة قديمة سائدة فى معظم الدراسات الاستشراقية حول الاسلام . (انظر فى ذلك كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ وما بعدها . دار القلم بالكويت ١٩٨١ وانظر أيضا كتابنا : الاستشراق ص ٨٤ وما بعدها) .

(٨٧) الاسطورة لا عقل لها ، وهى فى الأصل قصة خرافية من نسج الخيال . ولكن الامر الغريب هنا هو أن الغرب كان يصور لنفسه هذه الأساطير وكأنها حقائق ، ولهذا كان المرء يستسلم لهذا الشعور الكاذب بالغبطة لما تحمله هذه الأساطير من أمنيات كاذبة ترضى فى نفسه نزعات معادية للاسلام ونبيه .

٩ ـ كاستري (Castries) :

يتناول (كاسترى)(٨٨) فى كتابه عن الاسلام فى ملحق خاص « فكرة العصر الوسيط عن محمد والديانة الاسلامية » . ويزعم خطأ أن هـذا الموضوع لم يتناوله أى مؤرخ من مؤرخى العصر الوسيط . واذن فهو لا يعرف لا تلك الأعمـال المشار اليهـا لكل من ليرو دى لنسى ، ودو ميريل ، ولا العرض المسهب لكل من بروتس ودانكونا .

ولا يقدم لنا عمل كاسترى شـيئا جديدا الا القليل ، وحكمه على المعرفة التى كانت لدى لاهوتيى العصر الوسيط عن الاسلام ليس دائمـا حكما صائبا (قارن النقد التفصيلى لرينيه باسيه فى مجلة تاريخ الأديان (Revue de l'histoire des religions)٣٥ ، ١٨٩٧ ص ١٢١ ـ ١٢٣) .

* * *

١٠ ـ شرودر (R. Schroeder) :

اما (ر . شرودر) فانه قد جمع الخطوط الرئيسية لأسطورة محمد فى العصر الوسيط . كما تتمثل فى الشعر الفرنسى القديم(٨٩) .

وحسبما ورد فى هـذا الشعر فان محمدا وحده هو صاحب نظرية التعدد فى الألوهية بكاملها ، تلك النظرية التى يقول بها المسلمون ،

---

(٨٨) هـ . دى كاسترى (١٨٥٠ ـ ١٩٢٧) ، ورد فى ترجمته لدى نجيب العقيقى أنه كان مقدما فى الجيش ومهتما بالدراسات المغربية ، وأنـه قد اشترك فى اصدار مجموعة بعنوان « مصادر غير منشورة عن تاريـخ المغرب » . ولم يذكر له العقيقى كتابا عن الاسلام . ولكن بفانمولر يعتمـد فى حديثه عن دى كاسترى هنا على كتاب له عن الاسلام بعنوان (L'Islam) وقد صدر فى باريس عام ١٨٩٦ .

ولكاسترى بعض أقوال ايجابية عن الاسلام وقد اتهم بأن رأيه فى محمد ايجابى أكثر مما ينبغى (أنظر فى ذلك البحث الذى نشرناه فى العـدد الثانى من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر ، ص ١٤٥ ، ١٤٦) .

(٨٩) يرجع فى ذلك الى كتاب شرودر الذى صدر بالألمانية فى ارلانجن عام ١٨٨٦ بعنوان « العقيدة والخرافة فى الأشـعار الفرنسـية القديمة » .

وفى الأساطير الشعبية الأصيلة لا يظهر محمد ابدا بوصفه نبيا ، وانما يظهر باستمرار بوصفه الها ، وعلى وجه التحديد بوصفه اعظم واقوى الآلهة الوثنية . وقبل ان يتحول محمد الى هـذا الاعتقاد كان مسيحيا مؤمنا ، وكان هو نفسه يؤمن بعقيدة الخلاص المسيحية .

ويعد محمـد لدى الوثنيين خالق هـذا العالم وحافظه . وتحدث عبادته بطبيعة الحال فى شـكل عبادة التماثيل ، هـذا الشكل الذى اعتادته جماعة المحمديين . وكما هو الحال مع اله المسيحيين فان محمدا محاط ايضا فى السماء بالقديسين . ومثلما تعد القدس مدينة مقدسـة بالنسبة للمسيحيين فكذلك تعد مكة مدينة مقدسـة بالنسبة للوثنيين . حيث يوجد داخل اسوارها قبر الههم . اما العيد الكبير السنوى الذى يقام لتمجيد محمد فيوصف بأنه يتوافق مع عيد الفصح .

واشد التناقضات بين المؤسسات المسيحية والوثنية تتمثل فى رأى الجانبين فى الزواج . والمحمديون يكرهون اله المسيحيـين ، وكذلك لا تعرف كراهية المسيحيين لأتباع محمد حدودا تقف عندها . فالمسيحيون يشككون بشتى الطرق الممكنة فى طهارة محمد من الذنوب اثناء حياته الأرضية . وتروى بشغف خاص قصة موته الذى يرثى له ــ فالخنازير قد وجدته مخمورا فوق كومة من القمامة فالتهمته(٩٠) .

* * *

١١ ــ دريسباخ (Dreesbach) :

اهتم (دريسباخ) فى رسـالته للدكتوراة برسم صورة للشرق وساكنيه كمـا صورهـا ادب الحمـلات الصليبيـة الفـرنسى القـديم (٩١) .

---

(٩٠) الاسطورة ــ كما سبق أن أشرنا ــ لا عقل لها ، ولذلك لا يعجب المرء من انتشار مثل هذه الغرائب المنكرة حول محمد صلى الله علية وسلم وحول دينه فى عصر كان يعتمد فى فهمه للاسلام ونبيه على مثل هذه الخرافات التى روجت لها السلطات الكنسية .. وأعتقد أن القارىء لا ينتظر منا أن نقف طويلا عند مناقشة ما جاء فى هذه الأساطير من تفصيلات ، اذ يكفى أنها اساطير لا أصل لها .

(٩١) ظهرت هذه الرسالة الجامعية بالألمانية فى برسلاو عام ١٩٠١ بعنوان « الشرق فى الأدب الفرنسى القديم للحملات الصليبية » .

فعلى النقيض من الملاحم الفرنسية القديمة (chansons de geste) التى كانت لا تزال تعرض المسلمين كما كانوا يوصفون لنا قبل الحملات الصليبية فانه بوسعنا ان نعرض صورة حقيقية عن الشرق من أدب الحملات الصليبية . فالمسلمون الذين يصفهم هـذا الأدب هم مسلمون حقيقيون من لحم ودم . صحيح أننا لا نزال نجد فى هـذه الكتابات تصورات خاطئة عن محمد وعن الاسلام ، ولكنهما مع ذلك يعرضان بطريقة مختلفة تماما بما يتفق كثيرا جـدا مع الحقيقة التاريخيـة . فمحمد لم يعد يظهر بوصفه الها وانما بوصفه نبيا ومؤسسا للاسلام ، وقد أصبحت أهم وصاياه الرئيسـية واهم النقاط فى تعاليمه معروفة . وقد برز الفرق واضحا بين السـنة والشـيعة . وهناك اهتمـام خاص يثيره الحشاشون وزعيمهم « شـيخ الجبل »(٩٢) .

* * *

١٢ ـ دوتيـه (Doutté) :

يتناول (دوتيه) الخرافة التى انتشرت انتشارا واسعا فى العصر الوسيط والتى تقول بأن محمدا كان فى الأصل كاردينالا رومانيا يسعى

---

(٩٢) الحشاشون اسم يطلق على ذلك الفريق من الاسماعيلية الذين كانوا يحتلون أيام الحروب الصليبية الحصون الجبلية فى الشام وغيرها ، والذين جروا على التخلص من أعدائهم بالاغتيال . ومؤسس هذه الجماعة السرية الخطيرة هو الحسن بن الصباح . ويبدأ تاريخ الحشاشين بفتح الحصن الجبلى « الموت » على يد الحسن بن الصباح عام ٤٨٣ هـ . ويقال انه أنشأ هناك حدائق غناء كان الفدائيون يتمتعون فيها بالملاذ التى يتوقعون التنعم بها فى الفردوس . ولكن الذى لا ريب فيه أن جنتهم تلك كانت محض خيـال يصوره لهم الحشيش الذى كانوا يدخنونه .

وفى عام ٥٢٥ هـ فتحوا عددا آخر من الحصون فى شمال بلاد الشـام وغيرها . وكان رأس هؤلاء الحشاشين الشاميين المؤقت يدعى « شـيخ الجبل » وقد قضى المغول عليهم ، واحتل جنود هولاكو قلعة « الموت » عام ٦٥٤ هـ ولكن الضربة القاضية التى قضت تماما على السلطان السياسى لهذه الفرقة المروعة كانت على يد سلطان المماليك بيبرس عام ٦٧١هـ . (راجع دائرة المعارف الاسلامية) .

للحصول على تاج البابوية ، ولكنه عندما فشل فى الحصول عليه اسس الطائفة المحمدية وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية (٩٣) .

* * *

١٣ ـ باسـيه (Basset) :

أما (باسـيه) (٩٤) فقد تناول بالبحث العميق اسطورة اخرى عن محمد كانت هى الأخرى منتشرة ايضا انتشـارا واسعا فى العصر الوسيط ، وتقول هـذه الأسطورة أن القيصر كارل الكبير قام بتحطيم كل تماثيل الآلهة التى كانت قائمة فى اسبانيا ما عدا تمثالا واحدا فقط كان موجودا فى (قادس Cadiz) (٩٥) . ويروى المسلمون ان محمدا نفسه قد قام بعمل هـذا التمثال اثناء حياته باسمه هو وانه بفضل ما لديه من فن سحرى قام بحبس كتيبة من الجن بداخله . وقد عملت هـذه الكتيبة بما لها من تاثير على منع تحطيم هـذا التمثال من جانب اى احد يريد تحطيمه .

وقد اثبت باسـيه بالتفصيل انتشار هـذه الأسطورة فى المصـادر المسيحية والعربية والاسكندنافية ، وبرهن على أن الأمر هنا يدور ـ على الأرجح ـ فى الأصل حول تمثال لهرقل ظن المحمديون خطـأ انه يرمز الى محمد . ثم انتقلت الأسطورة عن طريق المسلمين الى المسيحيين

---

(٩٣) لقد تناول ادموند دوتيه هذه الموضوعات فى كتابه بالفرنسية « محمد الكردينال » الصادر فى باريس عام ١٨٩٩ .

(٩٤) رينيه باسيه (١٨٥٥ ـ ١٩٢٤) مستشرق فرنسى ، نشر العديد من الأبحاث والدراسات الاسلامية والعربية والبربرية والحبشـية فى مجلات علمية كثيرة ، ورأس مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥، وأسهم فى دائرة المعارف الاسلامية ، وكان عضوا فى العديد من المجامع العلمية . والبحث الذى يشير اليـه بفانمولر هنـا هو البحث الذى نشره باسيه بعنوان « هرقل ومحمد » عام ١٩٠٣ فى مجلة العلماء من ص ٣٩١ حتى ص ٤٠٢ .

(٩٥) قادس (Cadiz) مدينـة اسـبانية وهى عاصمـة اقليـم قادس ، ويسكنها حوالى ١٣٦٫٠٠٠ نسمة ، وهى مدينة قديمة يرجع تاريخ انشائها الى عام ١١٠٠ قبل الميلاد .

فى اسـبانيا • ومن هنـاك تسربت الـى الأدب الفرنسى فى العصر الوسيط(٩٦) •

* * *

---

(٩٦) اذا رويت هذه الأساطير على ألسنة الغربيين ودونت فـى مؤلفاتهم فهذا أمر مفهوم وقد اعتدنا عليه . أما أن يقال ان المسلمين أنفسهم قد قالوا بهذا الهراء وأن مصادرهم قد دون فيها هذا الباطل فهذا أمر لا يمكن تصديقه ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتى :

أولا : المسلمون يعرفون تماما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حرم التماثيل لأنها تذكر بالأصنام من ناحية ولأن فيها محاكاة لخلق الله من ناحيـة أخرى • وقد ورد فى هذا الصدد العديد من الأحاديث الصحيحة ومن ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخـل الملائكة بيتا فيه تماثيل أو تصاوير » • وقوله : « يا عائشة : أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وفى رواية أخرى : « الذين يشبهون بخلق الله » فهل يعقل بعد هذا التحذير الشديد ـ أن ينسب المسلمون الى نبيهم أنه صنع لنفسه تمثالا أو أوعز بصنعه ؟ وقـد يقال ان بعض العلماء فى العصر الحديث قد قال بتأويل مثل هذه الأحاديث . ولكن هذا التأويل لم يكن بالقطع قائما لدى المسلمين فى الأندلس .

ثانيا : المسلمون يتحرجون حتى اليوم ـ بعد مرور أكثر من أربعـة عشر قرنا على ظهور الاسلام ـ من مجرد ظهور شخصيات تمثل أدوار أحد من الصحابة فى مشاهد هادفة ، ناهيك عن اقامة تماثيل لهم . فما بالك اذا كان الأمر يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم . واذا كان هذا شـأن المسـلمين اليوم حيث تنتشر التماثيل فى كل مكان وحيث أصبح التمثيل أمرا مألوفـا فما بالك بالمسلمين منذ قرون عديدة ، وفى بلاد أحرقت كتاب الاحياء للغزالى ظنا منها أنه ربما يحمل أفكارا فلسفية لا يرضى عنها الاسلام .

ان الأمر الأقرب الى المعقول هو ان هناك أسطورة كانت قائمة قبـل أن يدخل المسلمون الى هذه البلاد ، ثم حورها الأوروبيون أنفسهم ـ وأيمانهم بالأساطير كان شديدا فى العصر الوسيط ـ وروجوها على ألسنة المسلمين .

الفصل الرابع

سيرة الرسول
فى تصورات الغربيين
(٢)

● **تمهيد :**

لسنا هنا فى حاجة الى اعادة ما سبق ان ذكرناه فى تقديم الحلقة الأولى عن اهمية هذا البحث ومبررات ترجمته رغم ما قد يكون فيه من أوصاف تسىء الى نبينا صلى الله عليه وسلم ٠ ولهذا نرجو من القارىء الكريم ان يرجع فى ذلك الى ما ذكرناه فى هذا الصدد فى موضعه من الحلقة الأولى ٠

ولكننا نود هنا ان نضيف الى ذلك حقيقة هامة تتمثل فى أننا اذا اردنا أن نعرف سر موقف الأوروبيين اليوم من الاسلام ونبيه فان علينا ان نبحث عن ذلك ، ليس فى الظواهر السطحية التى نراها اليوم هنا أو هناك ضد أو مع الاسلام ونبيه ، بل فيما رسخته القرون السابقة من مواقف تجاه الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم ، والتى لا تزال فى أعماق الأوروبيين تظهر فى المناسبات بوعى أو بغير وعى ٠ ومن هنا تأتى اهمية التعرف على هذه المواقف السابقة ٠

ولعلى انتهز هذه المناسبة لأوجه نداء الى المؤسسات العلمية الاسلامية لتخصيص جزء من جهودها لدراسة التراث الغربى المتعلق بالاسلام وربما كان من الأوفق ان تتجه بعض هذه المؤسسات الى انشاء مركز علمى خاص لدراسة التراث الغربى المشتغل بالاسلام ٠ وهو تراث غزير فى كمه ٠ ويكفى ان نشير هنا الى أن ما الفه المستشرقون عن الشرق فى قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) قد بلغ ستين الف كتاب(١) ٠

---

(١) ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٣٩ ترجمة كمال أبو ديب — مؤسسة الأبحاث العربية — بيروت ١٩٨١ ٠

ومواقف الغرب الأساسية تجاه الاسلام لم تتغير كثيرا فى عصرنا الحاضر رغم بعض الظواهر الايجابية فى بعض الأحيان . ففى الوقت الذى نرى فيه سكرتارية الفاتيكان لغير المسيحيين تصدر كتابا تدعو فيه الى الحوار بين المسيحية والاسلام على أسس متحررة من الأوهام والأحكام السابقة ضد الاسلام والتى هى من موروثات العصور الوسطى(٢) نجد مؤلفات تصدر فى الغرب بين الحين والآخرفى أيامنا هذه تحذر من خطر الاسلام على مستقبل الغرب والحضارة الغربية(٣) ، ونجد بعض الكتاب الغربيين — مستشرقين وغير مستشرقين — لا يزالون حتى اليوم أسرى التصورات القديمة التى خلفتها العصور الوسطى عن الاسلام ونبيه ، ناهيك عما تفعله وسائل الاعلام فى الغرب بالاسلام ومقدساته .

وفى هذا الجزء من البحث(٤) يلاحظ القارىء الكريم أن بفانموللر يعود للحديث مرة أخرى عن بعض المؤلفات التى سبق أن تناولها فى الحلقة الأولى . ولكن الحديث هنا يختلف ، اذ انه هنا يفصل ما سبق أن اجمله وذكره هناك فى عبارات قصيرة ، ويلقى أضواء على جوانب لم يشر اليها من قبل . ومن هنا يمكن أن نعد الحلقة السابقة — الى حد ما — بمثابة تمهيد لهذه الحلقة . فهنا تعرض وجهات النظر مفصلة ومدعمة فى أغلب الأحيان باقتباسات من المؤلفات المعنية . وقبل أن نعرض الترجمة الكاملة للفصول التى اخترناها من كتاب بفانموللر نود أن نقدم لها بنظرة اجمالية تشير فقط الى أهم النقاط فى خطوط عريضة :

---

(٢) صدر هذا الكتاب فى روما عام ١٩٦٩ وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٧١ بعنوان :

(Guidelines for a Dialogue between Muslims and Christians)

ويشتمل هذا الكتاب على كثير من الجوانب الايجابية .

(٣) انظر على سبيل المثال الكتاب الذى ألفه (John Laffin) بعنوان : خطر الاسلام (Danger of Islam) (١٩٧٩) وتمت ترجمته أيضا الى الألمانية عام ١٩٨٠ ، وانظر أيضا ما تضمنه فى هذا الصدد الكتاب الذى يحمل عنوان « 1985 » من تأليف (Anthony Burgess) والذى صدر فى لندن عام ١٩٧٨ وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات .

(٤) يراجع فى ذلك كتاب بفانموللر « موجز فى أدب علوم الاسلام » من ص ١٦٨ الى ص ١٩٦ .

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بالكتابة عن حياة محمد اعتبارا من القرن السابع عشر بعد أن كانت الكتابات السابقة فى هذا المجال كتابات جدلية كنسية تعبر عن اتجاه الكنيسة المعادى بطبيعة الحال للاسلام ولكن هدف المستشرقين الواضح والمعلن حينذاك لم يكن ايضا هدفا علميا ، بل كان محاربة الاسلام والدفاع عن المسيحية . ومن اجل هذا الغرض وجد المستشرقون ان افضل وسيلة لمحاربة محمد تتمثل فى معرفته . ومن هنا كان لا بد من الاطلاع على القرآن ومحاولة فهمه . وقد اشتملت المؤلفات فى ذلك الوقت على اكثر الأساطير مدعاة للسخرية واكثر المزاعم والشتائم وقاحة ، وذلك جنبا الى جنب مع ذكر وقائع وحقائق تاريخية وكذلك ترجمات من القرآن الكريم .

ولعل « بولانفلييه » كان أول من تجرأ فى وسط هذا الجو القاتم — على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بأوصاف ايجابية ، اذ قال عنه انه اداة الله التى قضى بها على العبادة الباطلة واحل محلها العبادة الحقة .

اما عصر التنوير فى اوروبا فقد مجد محمدا ﷺ بصفة عامة . ففى عصر التنوير الفرنسى احتل محمد عليه الصلاة والسلام مكان الصدارة فى اهتمامات المثقفين وكان موضوع احاديث الصالونات فى ذلك العصر ، لأن فولتير قد وصفه بأنه رجل عظيم جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب اعظم الأدوار التى يمكن ان يقوم بها انسان على ظهر الأرض . اما التنوير الألمانى فقد كان يرى فى محمد ﷺ داعية الى الدين الطبيعى .

وقد قال كارلايل بحق : « ان الأكاذيب التى عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول محمد لا تسب أحدا غيرنا » .

وفى القرن التاسع عشر بدأ عصر المؤلفات الاستشراقية التى توصف بأنها مؤلفات تاريخية نقدية فى السيرة . وكان جوستاف فايل أول من قام بمحاولة فى هذا الصدد واعتمد على مصادر عربية وراح يبحثها بحثا نقديا ، وقام بجمع كل المؤلفات الأوروبية حول السيرة . ولكن النزعات أو الميول الأساسية الأوروبية ازاء محمد ظلت قائمة تتخللها مختلف الظلال والألوان .

وبجانب اشبرنجر مثلا — الذى كان ينتهز كل مناسبة لتصوير

اخلاق محمد ﷺ تصويرا سيئا ما وجد الى ذلك سبيلا ـ كان هنـاك مستشرقون آخرون معتدلون نسبيا مثل نولدكه الذى كان يسعى الى « موضوعية هادئة » . ويقول نولدكه :

« ان محمدا كان على اقتناع بمهمته لانقاذ اخوانه فى الانسانية من العذاب الأبدى بهدايتهم الى العقيدة الصحيحة ولكى يجعلهم مشاركين فى السعادة السماوية » .

اما كريل فانه يقول : « يجب ان يعترف المرء بأن محمدا كان رغم كل اخطائه ـ مؤسس المدنية العربية وانه قد وضع شعبه على درجـة عليا من الدين » .

اما موقف بفانموللر نفسه ـ صاحب البحث الذى نقوم هنا بترجمته ـ ازاء جهود زملائه التى تضرب فى معظمها فى متاهات واسعة فيبدو انـه يميل الى ان يترك امر هذه القضايا مفتوحا عندما يقول ان اصول نشـأة الاسلام تبدو لنا اليوم بعد بحوث شاقة لا نهاية لها اكثر غموضا من اى وقت مضى .

ويتضح لنا من دراسة الكثير من المؤلفات المذكورة فى هذا البحـث أن كثيرا من المؤلفين قد وضعوا لأنفسهم تصورا خاصا عن محمد صلى الله عليه وسلم يتمثل فى زعمهم بأنه ليس بنبى حقيقى ثم راحوا يحاولون اثبات تصورهم هذا بشتى الوسائل ، كما افرغوا مفهومهم للدين على كل ما وجدوه فى الاسلام ليبينوا ان الاسلام ليس دينا سماويا .

ومن الأمور التى تسترعى الانتباه هنا هو ان المستشرقين الذين يكتبون عن الاسلام ونبيه لا يمثلون دائما خطا واحدا فى جميع المسائل ، فهنـاك أمور يختلفون عليها ويبلغ النقاش فيها حدا بعيدا سواء من جانب المؤيدين أو من جانب المعارضين . ومن امثلة ذلك ما ادعاه « جريمه » من أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن الا مصلحا اشتراكيا وما كان من تفنيـد « سنوك هورجرونيه » لآراء « جريمه » فى هذا الصدد .

وفى ختام هذا التمهيد نود أن نشير ايضا الى ان الكتاب الذى نترجم منه هذه الفصول لا يشتمل على اية هوامش .

ومن اجل المصلحة العلمية قمنا بوضع هوامش مختلفة نعرف فيهـا بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض

المزاعم او المفتريات على الاسلام ونبيه ﷺ ، ونوضح فيهاايضا بعض المفاهيم الواردة فى ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا ٠

ومن ناحية أخرى فان المؤلف قد قسم الموضوع هنا الى تقسيمات عامة على النحو التالى :

التراجم الحديثة لسيرة محمد :

(ا) من بوديبه الى سيل ٠

(ب) التنوير الفرنسى ٠

(جـ) من التنوير الألمانى حتى ظهور أول كتاب تاريخى نقدى عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل ٠

(د) الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد فى القرنين التاسع عشر والعشرين ٠

(هـ) كتابات شعبية عن حياة محمد ٠

وقد قمنا بتقسيم كل فصل من هذه الفصول الى فقرات ووضعنا لهـا عناوين جانبيه تحمل فى الغالب اسم المؤلف الذى تتناوله كل فقرة على حدة ٠ ولعلنا نكون فى ذلك كله قد وفقنا الى الصواب ٠

***

ترجمة وتعليقات : التراجم الحديثة لسيرة محمد

اولا ـ من بوديبه الى سيل

١ ـ ميشيل بوديبه (Michael Baudier) :

يرجع الفضل الى ميشيل بوديبه(٥) فى أنه أول من قام بوضع وصف شامل لحياة محمد بدلا من الكتابات الجدلية الكنسية ٠ وقد كـان بوديبه بالنسبة لعصره ـ على أى حال ـ مؤرخا معتبرا ، كما كان كاتبـا شعبيا ٠ ويدين له الجمهور الفرنسى بالفضل لكتابه الذى استطاع أن يعرفه فيه بالاسلام ٠ ويباهى بوديبه بحق بأنه أول من جمع هذه المـادة (المتعلقة

---

(٥) صدر كتاب بوديبه بالفرنسية فى باريس عام ١٦٢٥ و ١٦٣٢ ثم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان فى عام ١٧٤١ تحت العنـوان التـالى : (Histoire de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur faux prophéte Mahomet) .

بحياة محمد) فى صورة تاريخ كامل . ولذلك كان لكتابه ايضا تاثير يفوق الوصف على التصورات (الغربية) عن الاسلام وعن محمد .

ولم يكن هذا العمل ـ على وجه اليقين ـ عملا محايدا . فقد كانت غاية بودييه هى « الكشف عن أباطيل نبى الأتراك وفحشه وخدائع محمد وزيف طائفته والكشف عن تعاليمه المضحكة والوحشية »(٦) .

وقد كان بودييه كاثوليكيا متدينا ، يستقى معلوماته من مصادر كنسية فقط ، وكان ينقل عنها دون نقد . وبفضل كتاباته لم ير القــرن السابع عشر فى محمد الا دجالا أو مضللا ، ولم تكن لدى هذا القرن الا الرغبة فى دفن محمد تحت اكوام من النقض والتفنيد .

ولكن هذا الحماس الدينى كان له ايضا جانب طيب . فلكى يستطيع المرء ان ينقص محمدا بطريقة أفضل كان لا بد للمرء أن يعرفه ، وقد كان من اللازم ان يطلع المرء على القرآن وان يفهمه . وقد روى بودييه حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة ، والحق انه قد جعل هناك مكانا فى كتابه لأكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم وقاحة . أجل ، لقد اغرم بودييه بوصف أعمــال السلب والنهب والقسوة والفجور من جانب النبى وصفا يصل الى حد التفاصيل الجزئية(٧) .

ولكن بودييه ، فى العصر نفسه الذى تابع فيه روح موروثات العصر الوسيط ، قام بتقديم وقائع تاريخية ومعلومات تشتمل على درجة قصــوى

---

(٦) لا شك أن مثل هذه الكتابات التى تعلن عن مقصدها صراحة مثل كتاب بودييه تعد أقل خطرا من تلك المؤلفات الأخرى التى لا تكشف صراحــة عن مقصدها ، بل تحاول بشتى أساليب التمويه والتزويق العلمى أن تقنــع القارىء بما تريد ، ولسنا هنا فى حاجة الى الكشف عن أباطيل بودييه . فالقارىء العادى لا يخفى عليــه زيف مزاعمه .. فعمله أبعد ما يكون عن الاقتراب من البحوث العلمية النزيهة التى تسعى لمعرفة الحقيقة بتجرد وموضوعية .. وقد اعترف بفانموللر بأن عمل بودييه لم يكن على وجه اليقين عملا محايدا ، فهو عمل يدخل فى باب الجدل الكنسى السقيم .

(٧) كيف يقال ان بودييه قد روى حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة وهو فى الوقت نفسه قد أفسح فى كتابه مكانا لأكثر المزاعم وقاحة وأكثــر الأساطير مدعاة للسخرية ؟ هذان أمران لا يجتمعان ، فاما دقة وموضوعية واما مزاعم وقحة وأساطير مضحكة . أما هذا الخلط الغريب فانه يعــد استهانة بعقلية القارىء .

من الدقة والثراء ـ اجل ، ان الأمر الأهم من ذلك هو انه قام بوصف تعاليم جوهرية للديانة المحمدية بعبارات واضحة ، وابرز كيف تتم مراعاة الزكاة والاحسان فى بلاد العرب مراعاة كبيرة . وعلى الجملة فانه قد جعل الجمهور يتعرف بطريقة مفهومة تماما على قطب الرحى الذى يدور عليه دين الأتراك كله .

ويستطيع المرء ان يطلق على نصف الكتاب أنه ترجمة فرنسية للقرآن . وبعد ان تحدث بودييه عن محمد وعن اعماله وعما يسميه بالتدرج الدينى فى الرتب (**Hierarchie**) لدى المسلمين ، يسعى بودييه الى توسيع نطاق عمله التفنيدى كله فى خطوط ثابتة لكى يواجه سم الأتراك بسم مضاد . وتحت العنوان العام « الحاديات محمد » يصف باسهاب المواضع القرآنية التى افسد فيها النبى الزائف الديانة المسيحية. ولكن لكى يجعل بودييه الخديعة او التضليل واضحا بقدر الامكان أمام الجمهور فانه يقتبس آيات من القرآن بجانب نصوص من الكتاب المقدس . وعلى هذا النحو يتعرف القارىء على الأسس الرئيسية لتعاليم محمد عبر كل صفحات الكتاب .

* * *

٢ـ ادوارد بوكوك (E. Pococke) :

وفى حين كان بودييه ينقل بأمانة عن المصادر الكنسية القديمة فقط ، فقد قام المستشرق الشهير ادوارد بوكوك(٨) (١٦٠٤ ـ ١٦٩١) ـ الذى

---

(٨) ادوارد بوكوك (١٦٠٤ ــ ١٦٩١) درس اللاهوت فى أكسفورد وتعلم العربية فى حلب ،وأصبح استاذا للعربية والعبرية فى اكسفورد عام ١٦٣٦ . وكتابه الذى يتحدث عنه بفانمولر هنا هو « لمع من تاريخ العرب » (١٦٥٠) : (**Specimen Historiae Arabum**)وقد اعتمد فيه على كتاب بالعربية لابن العبرى . وفى عام ١٦٦٣ أخرج نشرة كاملة بالعربية لكتاب « مختصر تاريخ الدول » لابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج ١٢٢٦ — ١٢٨٩) الذى كان رئيس اليعاقبة فيما كان يعرف قديما بالمملكة الفارسية . وقد كتب ابن العبرى هذا الكتاب بالعربية ، وهو يشكل الجزء الأول من كتاب له فى التاريخ العام بالسريانية فى ثلاثة مجلدات . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية) مادة : ابن العبرى . وراجع ايضا :
(**J. Fueck : Die Arabischen Studien in Europa'p. 88f. Leipzig 1955**) .

استطاع ان يحوز على معرفة واسعة باللغة العربية اثناء اقامته الطويلة فى الشرق - قام بنشر مصدر عربى عن حياة محمد ، لكنه مصدر مكتوب فى تاريخ حديث ، ومن أجل ذلك فان قيمته ضئيلة من وجهة النظر التاريخية (ص ١٣٢)(٩) .

ولكن اهمية هذا الكتاب تتمثل فى ان المرء قد اصبح اخيرا على وعى بأنه يتحتم الرجوع الى مصادر عربية أساسية لكى يمكن الوصول الى نظرة اكثر موضوعية الى محمد وتعاليمه . وقد اشتمل عمل بوكوك على هوامش مسهبة واستطرادات تشهد بعلمه الغزير . وقد تم فى العصر التالى استغلال هذا الكتاب الى اقصى حد من جانب كل هؤلاء الذين كتبوا عن محمد وعن التاريخ العربى .

* * *

٣ - هوتنجر (Hottinger) :

فى كتابه تاريخ الشرق « Historia Orientalis » حاول يوهان هينريش هوتنجر (١٠) (١٦٢٠ - ١٦٦٧) الذى تخرج بوصفه مستشرقا فى كل من جرونتجن وليدن ثم أصبح استاذا لتاريخ الكنيسة واللغات الشرقية فى زيوريخ - حاول تصوير الحياة والطبيعة الشرقية المتعددة الجوانب بقدر الامكان . وقد قدم فيه تاريخا مفصلا نسبيا للعرب ، وقدم فيه بوجه خاص ايضا تاريخ محمد وما يتصل به . وذلك كله فى شكل اكثر غزارة وثراء مما كان قائما حتى ذلك الحين .

---

(٩) يحيل بفانمولر هنا الى ص ١٣٢ حيث يشير هناك الى أن أول المصادر العربية التى رجع اليها الكتاب الغربيون فى الكتابة عن محمد صلى الله عليه وسلم كان كتاب ابن العبرى المشار اليه وكتاب أبى الفداء الذى نشره جانييه (سيأتى الحديث عنه فى هذا البحث أيضا) ، وأشار بفانمولر الى أن المصادر العربية الأقدم عهدا من هذين الكتابين لم تكن معروفة حتى ذلك الحين للعلماء الأوروبيين .

(١٠) هوتنجر : مستشرق سويسرى ، كان أستاذا للغات السامية فى كل من زيوريخ وهايدلبرج . وقد صدر كتابه المشار اليه فى زيوريخ عام ١٦٥١ وأعيد نشره عام ١٦٦٠ . ومن أعماله أيضا : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

وقد كان كتاب هوتنجر ـ الذى اعتمد فيه كثيرا على كتاب بوكوك المشار اليه (Specimen) يشكل بجانب كتاب بوكوك من الآن فصاعدا ولفترة طويلة الينبوع لتاريخ العرب • ولكن هوتنجر يرى فى مقدمة كتابه أن من الضرورى انه يجب عليه أن يعتذر لقيامه بتقديم عرض لحياة محمد وتعاليمه • ولكى يبرر عمله هذا يستشهد بعلماء من أمثال (بوللينجر Bullinger) و (ميكونيوس Myconius) و (ببلياندر Bibliander) ، وكذلك يستشهد بالشخصيات المعاصرة الشهيرة من أمثال (لامبرور L'Empereur) الأستاذ بجامعة ليدن •

وبالاضافة الى تشجيع (تقدم) التفسير والدفاع(١١) والتاريخ العام فقد كان هوتنجر يستهدف الوصول الى غايتين :

فقد حدث أن اتهم الروم الكاثوليك دعاة الاصلاح (الدينى) بالسير فى خفاء وراء المذهب المحمدى • وقد رد هوتنجر هذا الاتهام وأثبت فى فصل خاص ـ على سبيل المثال ـ أن حجج (بيلارمين Bellarmin) (١٢) فى الدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية مستقاة من علم العقيدة الاسلامى •

وبجانب ذلك يريد هوتنجر ـ كما سبق أن فعل (ببلياندر Bibliander) فى عصر لوثر ـ أن يسهم فى محاربة خيانة المحمديين وغدرهم ومحاربة السيادة التركية • ويعتقد هوتنجر أن تفنيد الديانة التركية يعد أيضا بمثابة توجيه ضربة للسيادة التركية •

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان يسود لدى هوتنجر السعى نحو انصاف الاسلام وانصاف مؤسسه بقدر الامكان •

* * *

٤ ـ الكسندر روس (A. Ross) :

وبعد ظهور كتاب هوتنجر « تاريخ الشرق » بعامين ظهر فى انجلترا فى عام ١٦٥٣ أول كتاب فى تاريخ الأديان العام من تأليف الكسندر روس

---

(١١) المقصود هنا تفسير الديانة المسيحية والدفاع عنها •

(١٢) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ ـ ١٦٢١) كاردينال يسوعى ، كان فى طليعة المهاجمين للاصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه •

تحت عنوان التقديس الشامل او (Pansebeia) ، وقد ترجم ايضا الى الالمانية بعد ذلك بخمسه عشر عاما(١٣) .

ولم يبد روس فى هذا الكتاب الجامع الا قليلا من التعاطف مع اشكال المعتقدات الأجنبية ، ولم يبق لديه من هذا التعاطف بالنسبة للاسلام بوجه خاص الا أقل القليل . صحيح أنه يبرهن فى فصل خاص على أن محمدا لم يكن العدو الكبير للمسيح الذى تحدث عنه كل من بولس فى الاصحاح الثانى من رسالته الثانية الى أهل تسالونيكى وكذلك يوحنا فى سفر الرؤيا . ولكن روس رغم ذلك لا يريد ان ينكر « أن محمدا كان عدوا للمسيح لاتيانه بتعاليم قام بترويجها تعارض الوهية المسيح » .

* * *

٥ ـ ماراتشى (Marracci) :

وقد قدم ماراتشى فى كتابه « الرائد فى تفنيد القرآن » نظرة على حياة واعمال محمد مؤلف القرآن .

وقد حاول جاهدا ـ كما فعل بوكوك وهوتنجر ـ أن يرجع الى مصادر عربية . ويعبر ماراتشى هنا عن الغاية من وصفه لحياة محمد على النحو التالى :

« اذا اردت ان اصور حياة محمد حسبما كتب فى ذلك مؤلفونا وكتابنا فسأجعل نفسى مدعاة للسخرية لدى المحمديين . فالفرق كبير جدا بين ما يروونه وما نرويه نحن لدرجة أن المرء لا يمكنه ان يصدق أن كلا الجانبين يتناول بالحديث رجلا واحدا! . ومن اجل ذلك فاننى أريد أن أتابع أولئك ، ليس لأننى آخذ كل شىء على انه حق ، بل لأننا اذا تناولنا عدو الدين بالنقض والتفنيد فان محاربته بأسلحته هو افضل من محاربته بأسلحتنا ، وحينئذ يسهل التغلب عليه .

وبالاضافة الى ذلك فان كثيرا من كتابنا يروون عن محمد اشياء تثير الضحك لدى المحمديين ، ولا تجدى الا فى زيادة تقويتهم فى خرافاتهم . وعلى ذلك فانى سأعتمد فى الحديث عن حياة محمد على اكثر المؤلفين العرب قدرا . واذا كنت على علم ايضا بأن هؤلاء يأتون بالكثير من الأكاذيب لاعلاء شأن نبيهم الزائف فاننى لن اجعلهم يعتبروننى كاذبا » .

---

(١٣) نشرت الترجمة الألمانية فى هايدلبرج بألمانيا عام ١٦٦٨ تحت عنوان : « العبادات المتباينة فى العالم كله » .

وعلى الرغم من ان ماراتشي ــ بناء على احاطته بالمصادر العربيــة قد استطاع ان يثبت اخطاء كثيرة لأسلافه فى محاربة محمد فان محمدا قد ظل لديه هو النبى الزائف والمضلل والغاصب ومؤسس طائفــة تثير الاشمئزاز ومــؤلف كتــاب مملوء بالتناقضــات والخرافــات الكاذبــة والأباطيل (١٤) ·

*   *   *

٦ ــ بريدو (H. Prideaux) :

واذا كان ماراتشي قد كتب ما كتب بوصفه مجادلا كاثوليكيا واضحا ، له عرض اساسى يتمثل فى الدفاع عن المسيحية فى مقابل الديانة المحمدية ، فان العالم «دين همفرى بريدو» قد اراد بوصفه لحياة محمد ان يقدم للمؤلهين الطبيعيــين (Deisten) فى عصره مرآة يرون فيها أنفسهم · ويصور محمدا ليس بوصفه اكبر الدجالين فحسب ، بل بوصفه ايضا احــد المجرمين(١٥) · وحياة محمد ينبغى ان تكون بمثابة انعكاس لصورة

---

(١٤) لقد كان ماراتشي أحد رجال اللاهوت الايطاليين . أمضى حياتــه كلها فى اعداد دراسات هدفها البرهنة ــ كما يزعم ــ على بطلان الاســلام وحقيقة الديانة المسيحية . وقد صدر كتابه فى « تفنيد القرآن » عام ١٦٩١ وقدم فيه أيضا لمحة عن حياة محمد ، ثم نشر النص العربى الكامل للقــرآن عام ١٦٩٨ مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش كثيرة ومحاولة فاشلة لنقض القرآن فقرة فقرة . وينطلق ماراتشي فى دراساته ــ مثلما يفعل غيره من اللاهوتيين ومعظم المستشرقين ــ من فرضية يضعونها كأنها حجة مسلمة ويبنون عليها كل مزاعمهم . وتتمثل هذه الفرضية فى أن محمدا ليس نبيا حقيقيا وأنه هو الذى قام بتأليف القرآن . وقد سبق أن فعل الشيء نفســه مشركو مكة . وقد وصف « بفانمولر » نفسه موقف ماراتشي (ص ١١٦) بأنه « نفور داخلى ازاء محمد وتعاليمه » فكيف ينتظــر منه ــ وقلبــه ملىء هكذا بالحقد على الاسلام ــ أن يكون منصفا للاسلام ونبيه ؟ وأين ذلك من تعاليم القرآن ــ التى لا بد أنه قد اطلع عليها ــ والتى تتمثل فى الانصاف المطلق الذى يعلو فــوق كل اعتبــار : « ولا يجرمنكم شنآن قــوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ــ (المائدة : ٨) .

(١٥) همفرى بريدو (١٦٤٨ ــ ١٧٢٤) مستشرق انجليزى ، لــه دراسات عن ابن ميمون وعن العهدين القديم والجديد وصلتهما بتاريخ اليهود . وكتابه عن « حياة محمد » صدر فى لندن عام ١٦٩٧ وصدر بالفرنسية فى

مزعجة للكفار والملحدين والمؤلهين الطبيعيين والاباحيين . وقد اراد بريدو ان يكون كتابه مجرد جزء من تاريخ الكنيسة فى الشرق وان يثبت فيه ان النبى كان بمثابة سوط الله لمعاقبة الكنائس الشرقية وحملها على التوبة النصوح .

* * *

٧ ـ بولانفلييه (Boulainvilliers) :

وفى حين كان كل من ماراتشى وبريدو يرى فى محمد اكبر المضلين فقد ذهب الكونت بولانفلييه الى اقصى الطرف الآخر . وهنا يظهر لا بوصفه مؤرخا ، بل يظهر كمادح وكاتب روائى . وقد كان غرضه الواضح هو ـ ان يرفع من شأن الاسلام على حساب المسيحية ـ ومن اجل هذه الغاية عرض محمدابوصفهانسانا واداة من خلالها ارتفعت العبادة الباطلة وحلت محلها العبادة الحقة . وقد مدح محمدا بأنه كان حكيما قام بتمدين شعبه وبأنه كان اداة من أدوات الله وبأنه أتى بدين عقلى (١٦) .

* * *

٨ ـ جانييه (J. Gagnier) :

وقد حاول جان جانييه ـ استاذ اللغات الشرقية فى اكسفورد وخليفة بوكوك ـ ان يتجنب هذين الجانبين المتطرفين ، وذلك بوصفه لمحمد كما تظهره المصادر العربية . وفى عام ١٧٢٣ نشر حياة محمد لأبى الفداء (١٧) . (١٢٧٣ ـ ١٣٣١ ، انظر ص ١٢٨) بالعربية

= استوكهولم عام ١٦٩٨ . ويصف نجيب العقيقى هذا الكتاب بانه « ترجمة تافهة لا غناء فيها » . ويصف بفانمولل (ص ١١٦) موقف بريدو من محمد صلى الله عليه وسلم بنفس الوصف الذى وصف به موقف ماراتشى « النفور الداخلى ازاء محمد وتعاليمه » . وفى موضع آخر يصف موقفهما بأنه « حماس حقود » (ص ١١٧) .

ومن هنا ينطبق على (بريدو) ما ورد فى الهامش السابق .

(١٦) انظر ما ذكرناه عن بولانفلييه فى العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ص ٨٣ هامش رقم ١ .

(١٧) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الأيوبى ، ولد عام ٦٧٢ هـ فى دمشق ، تولى امارة حماة وكان له نشاط علمى ملحوظ . وأهم مؤلفاته =

واللاتينية مع مقدمة وهوامش تدل على سعة علمه . ولكن جانييه قام — بناء على طلب العديد من الشخصيات المعروفة التى أرادت ان تتعرف على محمد بالتفصيل ولم تكن تستطيع القراءة بالعربية أو اللاتينية — قام بتأليف كتاب عن محمد بالفرنسية .

وقد خصص جانييه مقدمة هذا الكتاب بصفة رئيسية لتفنيد آراء بولانفلييه (١٨) . اما الكتاب نفسه فانه يعتمد اعتمادا دقيقا على المؤلفين العرب ويجعلهم يتحدثون بأنفسهم . اجل ، لقد احتفظ جانييه بخشوع نبرة حديثهم ، ولم يمدح أو يلوم على الاطلاق ، ولم يضف شيئا من عنده . فهو لا يريد ان يصف محمدا كما كان ، بل يريد فقط ان يجعل الأوروبيين يتعرفون على ما يرويه ويعتقده المسلمون الأصوليون !

ولكنه قد سار فى هذا العمل بكثير من المهارة والذوق لدرجة ان كتابه قد اعتبره جميع العارفين منذ ذلك الوقت افضل ما كتب عن سيرة محمد ، وقد اغترف منه كثيرا أو قليلا كل المؤرخين المتأخرين ممن كتبوا عن حياة محمد (١٩) .

* * *

= كتابه « مختصر تاريخ البشر » الذى اهتم به جانييه وغيره من المستشرقين . وفى هذا الكتاب قسم عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وله أيضا كتاب « تقويم البلدان » فى الجغرافيا . وقد وصف جورج سارتون أبا الفداء بأنه كان « أعظم جغرافى فى عصره » . وفى ص ١٢٨ التى يحيل اليها بفانمولر يذكر عددا من المؤلفات الأوروبية التى اهتمت بكتاب أبى الفداء فى التاريخ .

(١٨) عندما نشر بولانفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه رسول العناية الالهية . وقد اشترك جانييه فى الحملة ضد بولانفلييه كما هو واضح .

(١٩) ربما يعطى ما ورد هنا عن جانييه انطباعا بأنه كان منصفا حقا لمحمد صلى الله عليه وسلم . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . فقد اعترف بفانمولر فى موضع آخر (ص ١١٧) بأن جانييه قد وصف محمدا فى مقدمة كتابه بأنه أكثر الناس شرا وبأنه عدو لدود لله ، ثم أضاف بفانمولر الى ذلك قوله : من هذا يتبين لنا ماذا يفهم المرء من « حياده » . راجع تعليقنا على موقف جانييه فى العدد الأول ص ٨٤ هامش ١ .

٩ – جورج سيل (G. Sale) :

وبعد مرور عامين على ظهور كتاب حياة محمد لجانييه ظهرت فى عام ١٧٣٤ الترجمة الشهيرة للقرآن التى قام بها جورج سيل (انظر ص ٢١٦) (٢٠) وفى « المقدمة التمهيدية » التى تدل على سعة الاطلاع حاول سيل أن يكون منصفا لمحمد . فلم يكن محمد أبدا – فى رأيه – واحدا من أمثال جبابرة الملحدين كما يتصوره المسيحيون عادة . والضرر الذى الحقه محمد بالمسيحية ينسب الى جهله اكثر مما ينسب الى خبثه (٢١) .

* * *

١٠ – ايرهارت (J. Ehrhardt) :

وهناك كتيب من تأليف ياكوب ايرهارت كان يعد بالنسبة لعصره جهدا جديرا بالاعتبار نقد فيه الأخطاء الأساسية للكتاب المعدودين وغير

---

(٢٠) يحيل بفانموللر هنا على ص ٢١٦ حيث تحدث هناك عن ترجمة سيل للقرآن من حيث كونها كانت وسطا بين الترجمة الحرفية والترجمة الحرة ، ويشير الى ما فيها من قصور ثم يتحدث عن محتويات « المقدمة التمهيدية » التى كان لها صدى بعيد .

(٢١) يزعم المستشرقون واللاهوتيون أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعرف التعاليم « الصحيحة » للمسيحية وبنى معارضته للتعاليم المسيحية على ما عرفه من صورة زائفة كانت شائعة حينذاك . ويعبر مستشرق معاصر هو « رودى بارت » عن ذلك بقوله : لقد كانت معلومات الناس عن المسيحية فى مكة فى العصر الذى عاش فيه محمد معلومات محدودة وناقصة ، ولم يكن المسيحيون العرب يسلكون النهج الصحيح فى معتقداتهم ، وكانت تروج هناك آراء بدعية منحرفة . ولولا ذلك – كما يزعم بارت – لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التى تنكر صلب المسيح وتذهب الى أن نظرية التثليث لا تعنى الآب والابن وروح القدس ، وانما تعنى الله وعيسى ومريم الخ (راجع كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ وما بعدها) . وهكذا ينكر المستشرقون أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد تلقى معلوماته عن المسيحية من أعلى عن طريق وحى سماوى أراد الله به أن يصحح العقائد التى أفسدتها عقول البشر على مر العصور .

المعدودين فى عرضهم لتاريخ محمد ، وكشف فيه عن أسباب ذلك(٢٢) ٠ فهو يتناول ـ على سبيل المثال ـ الأخطاء المتعلقة بالترتيب الزمنى والاخطاء الجغرافية والأغلاط والأساطير المتعلقة بمعلمى محمد ، ويتناول أعمال السلب والنهب واللصوصية التى نسبت اليه ، وما يقال عن معجزاته وصورته ومرضه بالصرع وغير ذلك ٠

* * *

ثانيا : عصر التنوير الفرنسى

● **فولتير** (**Voltaire**) :

بعد تسع سنوات من ظهور حياة محمد لجان جانييه عرضت فى عام ١٧٤١ مسرحية فولتير الشهيرة « التعصب او محمد النبى » اول مرة فى (ليـل **Lille**) ٠ وفى هذه المسرحية يصف فولتير النبى بنفس الطريقة القديمة بوصفه منافقا عديم الحياء ودجالا ، ومستبدا تحركه الشهوات الحسية ووغدا متعطشا للدماء(٢٣) ٠

ولم يكن فولتير يريد بمسرحيته اطلاقا أن يصف محمدا كما يعرفه التاريخ ، وانما استخدمه فقط لكى يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد خداع القساوسة والخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من نزعة التعصب ٠

---

(٢٢) ظهركتاب ياكوب ايرهارت فى مدينة أولم بالمانيا عام ١٧٣١ باللغة اللاتينية بعنوان : « حول أخطاء الكتاب المشهورين وغير المشهورين فى عرض تاريخ محمد وأسباب ذلك » .

(٢٣) لم يكن فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) — وهو أديب فرنسا الشهير وقطب عصر التنوير الفرنسى — لم يكن يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى حقيقة الأمر بكل هذه الأوصاف ، كما يشير الى ذلك بفانمولر عقب ذلك مباشرة ، بل كان يعنى المؤسسة الكاثوليكية بكل ما تمثله . وأقل ما يمكن أن يصف به المرء موقف فولتير هنا هو أنه نفاق كريه وتضليل متعمد وعمل لا أخلاقى . وقد عدل فولتير من موقفه بعد ذلك ونعت محمدا صلى الله عليه وسلم بكل أوصاف التمجيد والاكبار . ومن حسن الحظ أن هذا الموقف الأخر هو الذى ذاع وانتشر فى الأوساط الثقافية فى فرنسا آنذاك كما يشير الى ذلك بفانمولر أيضا .

وبجانب هذه الصورة لمحمد نجد لدى فولتير صورة اخرى فى مقالته الشهيرة عن الأخلاق (Essai sur les moeurs) . ففى هذه المقالة لم يعد محمد يظهر بوصفه « كبير المنافقين » ، بل بوصفه الرجل العظيم وبوصفه (كروموبل Cromwell) (٢٤) آخر ، جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم الواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التى يمكن ان يلعبها انسان على ظهر الأرض . وهنا نجد فولتير معتمدا بوضوح على بولانفلييه .

* * *

● **اثر كتابات فولتير فى الأوساط الثقافية :**

لقد قرأ الكثيرون مقالة فولتير (فى الأخلاق) بحماس . وسرعان ما أصبح محمد موضوعا للأحاديث فى صالونات العصر . وبعض المتخلفين عن الركب فقط مثل (ديدرو Diderot) فى كتابه « رسائل الى صوفى فولاند » تجرا على القول بأن محمدا كان افضل صديق للنساء واكبر عدو للعقل (٢٥) . وفى مقابل هذه الآراء القديمة داب الموسوعيون وأصدقاؤهم على تكرير صيغ فولتير مع مبالغات مماثلة .

وعلى الرغم من اعجاب ديدرو الخفى بمحمد فانه يصفه بانه مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة . وقد أتى الجماعون (Kompilatoren)

---

(٢٤) أوليفر كروموبل (١٥٩٩ — ١٦٥٨) رجل دولة انجليزى عظيم وقائد جيش شهير ، وضع حدا للحرب الأهلية فى انجلترا آنذاك ، وقاد حروبا ناجحة ضد هولاندا واسبانيا وبذلك نهض بقوة انجلترا البحرية والتجارية . وكان أيضا من أتباع المتطهرين المتشددين ، وهم البروتستانت الانجليز الذين أرادوا أن يعيدوا للكنيسة طهارتها بتخليصها من كل أخطاء الكاثوليك .

(٢٥) دينيه ديدرو (١٧١٣ — ١٧٨٤) أحد أعلام الكتاب فى عصر التنوير الفرنسى ، كان رئيس تحرير دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة ومؤلف العديد من مقالاتها . وله العديد من الروايات والمسرحيات الفكاهية ووصفه هنا للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه « كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل » بجانب وصفه له بعد ذلك بأنه « مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة » يدل على التخبط والتناقض ، اذ كيف يوصف المشرع الماهر الداعى الى الفضيلة بأنه عدو للعقل ؟ ومن ناحية أخرى فان من المعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالنساء خيرا فى حديث مشهور . وهذا أمر يحسب للاسلام لا عليه .

او الكتاب المولعون بالجمع ـ كما يحدث دائما ـ لكى يستغلوا هـذه الشهرة الجديدة . وهكذا قام (توربين Turpin) بتعريف جمهوره ـ فى مجلدات تفتقد الأصالة لكنها مكتوبة بأسلوب سهل ـ بهذا الفيلسوف (يقصد محمدا) الذى ثقفته الطبيعة والمشرع الذى لم يعتمد على عون من جانب العلوم .

وقد بدات الأكاديميات نفسها التى تأثرت بالحركة (الجديدة) بدأت فى تنافسها على وضع محمد كموضوع للمديح . وقد كان ذلك هـو التدشين الرسمى لانتصار محمد .

وهكذا وضعت « اكاديمية النقوش والآداب » موضوعا للمسابقة بعنوان « زرادشت وكونفوشيوس ومحمد : مقارنتهم بوصفهم أصحـاب مذاهب ومشرعين واخلاقيين » . وقد فاز فى هذا الصدد (باستوريت Pastoret) .

وفى عام ١٨٠٥ اعلن قسم التاريخ والأدب الكلاسيكى بالمعهد عن مسابقة موضوعهـا : « تأثير محمد اثناء القرون الثلاثة الأولى بعـد الهجرة » . وقد حصل احد الألمـان وهو (أولزنر Oelsner) على احد جوائزها .

ومنـذ ذلك الوقت فصاعدا بدا الجميع يقرأون القرآن الكـريم وقد امتدح المرء افكار محمـد السياسية ونظـرياته الأخلاقية ونظامه التشريعى . واخـيرا قدم سافارى ترجمـة جديدة للقـرآن (انظـر ص ٢١٥)(٢٦) .

* * *

(٢٦) يحيل بفانمولر هنا الى ص ٢١٥ حيث أشار هناك الى ترجمـة سافارى للقرآن التى ظهرت فى باريس عام ١٧٨٣ وجاءت عقب ترجمات سيئة أخرى تركت فى النفوس انطباعات سيئة عن القـرآن ومضمونـه وأسلوبه الخ .

ثالثا : من عصر التنوير الألماني الى ظهور أول كتاب تأريخي نقدي عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل

١ ــ ليبنتز (Leibniz) :

لقد امتدح ممثلو عصر التنوير الألماني محمدا بوصفه داعية للدين الطبيعي . وكتب ليبنتز (٢٧) ــ على سبيل المثال ــ في مقدمة كتابه « في العدالة الالهية » يقول : « لم يبتعد محمد أيضا من هذه التعاليم العظيمة للدين ، وقد قام اتباعه بنشرها بين الشعوب في أقصى بلاد آسيا وافريقيا ، تلك البلاد التي لم تكن المسيحية قد دخلتها بعد . وقد قضوا في كثير من البلاد على الخرافات والمعتقدات الوثنية التي كانت تقف موقفا معارضا للتعاليم الحقة التي تتمثل في وحدة الله وخلود النفس » .

* * *

٢ ــ ليسنج (Lessing) :

اما ليسنج(٢٨) فانه يعبر في أحد أعماله « انقاذ هيرونيموس كاردانوس » عن الاقتناع « بأن الأخبار التي كانت معروفة في عصر (كاردانوس Cardanus) (٢٩) عن محمد وتعاليمه كانت أخبارا قاصرة

---

(٢٧) جوتفريد فلهلم ليبنتز (١٦٤٦ ــ ١٧١٦) فيلسوف ألماني شهير ، كان صاحب عقلية موسوعية نادرة وكانت له جهود وابتكارات في مجالات علمية وفلسفية عديدة . وهو صاحب نظرية الذرات الروحية في الفلسفة وهي نظرية تقول بأن الكون مؤلف من جواهر بسيطة روحية كل منها يمثل الوجود كله .

(٢٨) ليسنج « جوتهولد افرايم » (١٧٢٩ ــ ١٧٧٨) من أعظم أدباء ألمانيا في القرن الثامن عشر ، عمل على تحرير الشعر الألماني من الاعتماد على النماذج الفرنسية . وقد أصبح أسلوبه نموذجا يحتذى في النثر الأدبي ، كتب عددا من المسرحيات الفكاهية وله أعمال أدبية أخرى مشهورة .

(٢٩) كاردانوس (١٥٠١ ــ ١٥٧٦) طبيب ايطالي وعالم في الرياضيات ، كتب سيرة حياته بنفسه ، وله جهود في مجال الرياضيات معروفة باسمه .

جـدا وممزوجة بألف من الأكاذيب التى كان المجادلون المسيحيون مولعين بأخـذها على أنها حقائق ، اذ أنهم بذلك يكون لديهم لعبة اســهل . ولم تصـل الينا معرفة امينة عن ذلك - أى عن محمـد وتعاليمه - قبل مؤلفات كل من ريلاند وسيل ، تلك المؤلفات التى اطلعتنا فى الأغلب على أن محمــدا ليس دجالا عابثا ، وأن دينه ليس مجرد نسـيج من الأباطيل والمتناقضات المرصوصة بجوار بعضها » .

وفى « شذرات فولفنبوتل » يرجع ليسنج تعاليم محمد الى الدين الطبيعى كما فعل ليبنتز :

« صحيح أن قرآن محمد والعقيدة التركية لهما لدينا سمعة سيئة ، وليس ذلك فقط لأن مؤسس هـذا الدين قد استخدم التضليل والعنف . بل لأن هناك أيضا (فى هـذه العقيدة) كثيرا من الحماقات والأضاليل مختلطة ببعض العادات الخارجية الوافدة التى لا ضرورة لها(٣٠) . ولست أريد أيضا أن أتحدث باسـمه - أى باسم محمد - ، وأقل من ذلك كثيرا أن أرفع من شأنه على حسـاب الديانة المسيحية . ولكنى على يقين من أن هنـاك من بين من يحملون الديانة التركية مسئولية هذا أو ذاك من الأخطاء قلة قليلة جدا ممن اطلع على القرآن . وأن هنـاك أيضا قلة قليلة جـدا من بين هؤلاء الذين قرأوه كان لديهم القصد لاعطـاء كلمات (القرآن) معنى معقولا يمكن للمرء أن يفهمه . وفى وسعى - اذا كان هـذا مقصدى الأساسى - أن أبين أفضل ما فى الدين الطبيعى من القرآن معروضا بوضوح ومعبرا عنه الى حد ما تعبيرا جميلا » .

« واعتقد اننى سأجد بسـهولة الاستحسان فى ذلك لدى الفاهمين اذا قلت ان كل شىء جوهرى فى تعاليم محمد يكاد أن يؤدى الى الدين الطبيعى . وقد امتدح العالم (توماس هايد Thomas Hyde) (٣١) فى

---

(٣٠) على الرغم من أن ليسنج قدتحدث حديثا طيبا عن الاســلام بعد هذه العبارات الا أنه فى هذه العبارات السابقة يخلط - كما يفعل غيره كثيرون أيضا - بين الاسلام كدين وتعاليم وبين عادات وتقاليد أو سلوكيات معينة للأتراك العثمانيين فى ذلك الزمان . وقد كانت الدولة العثمانية لا تزال حينذاك ذات قوة مؤثرة فى العـالم ، وكانت أوروبا لا تزال تخشى بأسها وتحسب لها ألف حسـاب .

(٣١) توماس هايد (١٦٣٦ - ١٧٠٣) مستشرق انجليزى ، كان أستاذا للعربية والعبرية فى أكسفورد .

كتابه (تاريخ ديانة الفرس القدماء واصحاب مذاهب السحر ، ١٧٠٠ ، ص ٣٣) وهو من العلماء الذين يتحتم على المرء ان يعدهم من العارفين وان يعدهم كذلك من المحايدين — امتدح محمدا بوصفه مجددا للدين الحقيقى لابراهيم » .

« وأما جورج سيل — الذى يعد اوثق المترجمين والمفسرين للقرآن — فانه يبين فى مقدمته للقرآن أن مبدأ تعاليم محمد يقوم على توحيد الله أو على حقيقة انه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد هناك الا اله واحد ، وأن القصد الذى يتمثل فى نقل العرب المشركين من الوثنية الى معرفة الله الواحد كان قصدا نبيلا ومحمودا جدا ، وان السيد « بريدو » قد زعم بلا سبب أن محمدا قد اتى للعرب بدلا من الوثنية بدين سىء مثل الوثنية . ويقول السيد « سيل » بأن الحث على الأخلاق الطيبة والفضائل التى يشتمل عليها القرآن ، وبصفة خاصة الحث على عبادة اله واحد حق تعد أمورا ممتازة الى حد ما لدرجة أن المسيحى يود أن يراعيها حقا » .

وفى بداية السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر فى الوقت نفسه تقريبا عالمان المانيان بترجمتين للقرآن من النص الأصلى قضيا فى اعدادهما زمنا طويلا وهما (دافيد فريدريش ميجرلين Megerlin) و (فريدريش أيرهارد بويزن Boysen) (ص ٢١٧) (٣٢) . وقد ثبت أن جوته قد استخدم ترجمة أولهما .

***

٣ — جوته (Goethe) :

وقد اهتم جوته(٣٣) اثناء حياته كلها اهتماما كبيرا بمحمد ، كما بين ذلك (ياكوب مينور Minor) بالتفصيل فى كتابه « محمد لدى

---

(٣٢) أشار بفانمولر فى ص ٢١٧ الى هاتين الترجمتين ، وذكر أن الترجمة الأولى قد ظهرت عام ١٧٧٢ واعتمد فيها ميجرلين بجانب النص الأصلى على ترجمات سابقة فى لغات أخرى . أما الترجمة الثانية فقد ظهرت عام ١٧٧٣ ، ويرى بفانمولر أنها أفضل من الترجمة الأولى .

(٣٣) يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) يعد أعظم شعراء المانيا على الاطلاق ، كان منصفا للشرق وللاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، قرأ القرآن وتأثر به واقتبس منه الكثير وبخاصة فى الديوان الذى أطلق عليه اسم « الديوان الشرقى الغربى » .

جوته »(٣٤) وفى خريف عام ١٧٧٣ ظهر « نشيد محمد » وفيه يقارن جوته محمدا بنهر ينمو باستمرار ويجذب فى سيره اخوته معه الى الأب الخالد .

وفى كتابه « الشعر والحقيقة » يقول جوته ان هذا النشيد المدحى كان قد قصد به فى الأصل أن يكون اضافة شعرية لمسرحية عن محمد كان قد خطط لها . وقد كان يريد ان يصور فيها كيف تؤثر العبقرية فى الناس عن طريق الأخلاق والعقل ، وكيف تنتصر العبقرية فى ذلك وكيف تخسر .

وفى عام ١٧٩٩ عاد جوته مرة اخرى الى الاشتغال بموضوع محمد بان قام - بناء على رغبة الدوق (كارل أوجسطس Augusts) وضد ارادته هو تماما - بترجمة مسرحية فولتير عن محمد واعدادها للمسرح .

وهناك أخيرا أكثر من اثنتى عشرة قصيدة من اشعاره فى « الديوان الشرقى الغربى » تهتم بمحمد وبالقرآن . وفى الملاحظات والمقالات حول هذا الديوان يعود جوته - بوصفه مؤرخا - للحديث عن محمد وتعاليمه .

* * *

٤ - جيبون (Gibbon) :

وفى السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر ايضا الكتاب الشهير لجيبون(٣٥) عن « تاريخ انهيار وغروب الدولة الرومانية » . ويتخذ جيبون ازاء محمد نفس الموقف الذى اتخذه توربين والذى يتمثل فى أن مآثر محمد قد رفع من شأنها - فى رأيه - تشويهات المسيحيين غير الحكيمة اكثر بكثير مما حقرت منها . ولا يريد جيبون ان يقرر ايضا ما اذا كان

---

(٣٤) نشر هذا الكتاب فى يينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

(٣٥) ادوارد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) مؤرخ انجليزى شهير . وقد ظهر كتابه المشار اليه فى عامى ١٧٧٧/١٧٧٨ وترجم الى الألمانية عام ١٩٠٣ .

محمد متحمسا او دجالا لانه ليست هناك الا خطوة واحدة فقط من التحمس الى الدجل(٣٦) .

* * *

٥ ـ هردر (Herder) :

وعلى العكس من ذلك فانه لم يكن هناك مجال للشك لدى هردر(٣٧) فى ان محمدا كان فى الحقيقة متحمسا (**Schwärmer**) . ويصف هردر محمدا بأنه : « مزيج خاص من كل ما يمكن أن تعطيه الأمة والقبيلة والزمان والمكان . فقد كان تاجرا ونبيا وخطيبا وشاعرا وبطلا ومشرعا ، وكل ذلك حسب الطريقة العربية » .

ويبدو ان سبب نبوته يتمثل فى البغض لشناعة عبادة الأصنام والتحمس لتعاليم توحيد الله وطريقة التعبد له بالطهارة والذكر والعمل الصالح . « وقد كانت التقاليد الفاسدة لليهودية والمسيحية ، وطريقة التفكير الشاعرية لأمته ولغة قبيلته ومواهبه الشخصية ـ كانت كلها كأنها الأجنحة التى حلقت به فوق نفسه وخارج نفسه » .

ولكن هردر يعبر عن حكمه على القرآن على النحو التالى :

« هذا الخليط الفريد من فن الشعر وحسن البيان والجهل والذكاء والتكبر هو مرآة نفسه التى تبين مواهبه ونقائصه وميوله واخطاءه وخداع نفسه والمعونات الوقتية التى خدع بها نفسه وخدع الآخرين ، وذلك (كله) بدرجة اكثر وضوحا مما يتبين فى اى قرآن آخر لنبى من الأنبياء »(٣٨) .

* * *

---

(٣٦) اذا كان جيبون لم يستطع أن يدرك الفرق بين الحماس الدينى الحقيقى والدجل فلعله كان فى وسعه أن يدرك الفرق بين الحق والباطل لو تجرد لطلب الحقيقة بعيدا عن الأهواء والأحكام السابقة . والفرق بين الحق والباطل ليس مجرد خطوة واحدة بل هو فرق ما بين السماء والأرض .

(٣٧) يوهان جوتفريد فون هردر (١٧٤٤ ـــ ١٨٠٣) كاتب ألمانى معروف وعالم فى اللاهوت . ومن مؤلفاته « أفكار لفلسفة تاريخ الانسانية » وقد تأثر به جوته فى شبابه .

(٣٨) الفكرة الأساسية المسبقة لدى هردر وأمثاله هى أن القرآن من تأليف محمد ، ولذلك فهو مرآة نفسه وانتاج عقله . ومن هنا فاذا ورد

٦ ـ أولزنر (Oelsner) :

وعلى اكتاف هردر يبرز اولزنر فى بداية القرن التاسع عشر بكتابه الذى نال به أحد الجوائز فى عام ١٨٠٩ ٠ وعنده يعد محمد فى الأصل متحمسا وجد الدليل على بعثته فى قوة اعتقاده فقط ، ومن السهل ان يخلط المرء بينه وبين مجرد انسان دجال ٠ واذا لم تكن هناك ايضا اغراض طموحية قد عملت على تحريكه فى البداية فانها قد اتت فى اعقاب الحماس ٠ وبنفس القدر الذى برد فيه الحماس لقضية الله او قضية الوطن اشتد لديه الغرض الأنانى عن طريق كل الوسائل المساعدة التى اكسبها له حماسه النارى السابق ٠ وبطبيعة الحال لا يمكن تحديد التوقيت الذى انتهى فيه خداع الذات وبدا فيه الدجل تحديدا دقيقا(٣٩) ٠

ويصف أولزنر محمدا بالتفصيل بأنه الداعى للاله الواحد وبانه أستاذ فى الديبلوماسية وبأنه رجل دولة وقائد جيش عبقرى ٠ ولكن بمرور الزمن تحول دينه من دين يدعو للسلام ويمقت الحرب الى دين للسيف ، وان كان أولزنر ايضا ـ كما كان فولتير من قبله ـ لا يرى اطلاقا ان النجاحات التى حققها الاسلام يعود الفضل فيها الى السيف وحده ٠

* * *

=

فى القرآن أنه وحى الله اعتبروا ذلك نوعا من الخداع أو التضليل . واذا كان هذا هو موقفهم الأساسى الذى يسيطر عليهم قبل التعرف على القرآن فلن يصلوا الى حقيقة الاسلام أبدا الا اذا أزالوا من على أعينهم وقلوبهم هذه الغشاوة المتمثلة فى الأوهام والأحكام السابقة ، وتخلصوا من التعصب الذى يحجب عنهم نور الحقيقة .

(٣٩) هذه كلها مزاعم لا تعتمد على أى أساس من الواقع ولا من التاريخ ، وتدخل كلها فى باب التخمينات والظنون .. وما قام به النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة من تنظيم المجتمع وتأسيس الدولة والدفاع عنها بكل الطرق المشروعة يعد جزءا لا يتجزأ من الاسلام الذى جاء نظاما للحياة بكل جوانبها .. وآذا كان هذا يخالف مفهوم الدين لدى الغربيين فعليهم أن يعيدوا النظر فى أفهامهم وتصوراتهم بدلا من خداع النفس بأنهم هم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة .

٧ – رينو (Reinaud) :

وقد قدم رينو(٤٠) للبحث فى حياة محمــد اسهاما يمتاز بقيمة خاصــة فى العرض الموجــز الذى قدمه عن حياة محمــد فى كتـــابه « الآثار الفارسية والعربية والتركية فى ديوان السيد الدوق دو بلاكا » (باريس ١٨٢٨) ٠ وقد قام رينو فى عام ١٨٦٠ باكمال هــذا العرض الموجز بصورة هامة على اساس ما صدر منذئذ من مراجع ، ونشره كمقال ضمن « تراجم عامة جديدة » التى اصدرها (ديدو Didot) ٠

وفى هــذه المقالة يقدم رينو فى البداية وصفا تفصيليا لحياة محمد بناء على اقدم واوثق الشواهد والأدلة ، وبصفة خاصــة بناء على القرآن الذى يعد اهم مصــدر معاصر لمحمد ، ثم يرسم رينو صــورة واضحة لشــخصية النبى ، ويتبع ذلك بوصف للمصادر الرئيســية لحياة محمد وتعاليمه واولها الحديث واقدم التراجم العربية ، ثم يصف رينو القرآن بتفصيل خاص ، وبالاضافة الى ذلك يتناول بعض مسائل جزئية هامة من مسائل البحث فى حياة محمد ، ومن امثلة ذلك :

هل كان محمد مصابا بالصرع ؟

كيف كان محمد يتلقى الوحى ؟

هل كان محمد يستطيع الكتابة ؟

وفى النهاية يتناول رينو علاقة محمد بالملك جبريل ويتناول اهم تفاسير القرآن واهم النشرات والترجمات للقرآن ٠ وقد اضفى البيــان الوافر للمراجع على المقالة قيمة خاصــة ، تلك المقالة التى قدمت صورة ممتازة لمستوى البحث فى حياة محمد فى عام ١٨٦٠ ٠

* * *

---

(٤٠) جوزيف توسن رينو (١٧٩٥ — ١٨٦٧) مستشرق فرنسى ، كان أمينا لقسم المخطوطات الشرقية فى مكتبة باريس ، وأستاذا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية ، وله جهــود علمية فى مجالات الأدب العربى والتاريخ تأليفا وتحقيقا وترجمة .

٨ ـ هامر بورجشتال (Hammer - Purgstall) :

اما المستشرق الشهير يوسف فون هامر ـ بورجشتال(٤١) ـ الذى كان لمؤلفاته تأثير قوى على جوته ـ فقد تناول محمدا ايضا فى المقام الأول فى كتابه « صور لحياة الحكام المسلمين العظام » . وقد عرف برجشتال جزءا فقط من سيرة ابن هشام . وفى مقابل ذلك كانت أمامه ثلاثة من الكتب الأخرى التى استخدمت هنا للمرة الأولى من جانب أحد الأوروبيين وهى :

« الخميس » للحسين الديار بكرى(٤٢) ، ووصف لحياة محمد باللغة الفارسية من تأليف عبد الله ، والترجمة التركية لقصص النبى من تأليف ابراهيم الحلبى (٤٣) والتى طبعت فى القاهرة عام ١٨٣٣ م .

ويلخص هامر برجشتال حكمه على محمد فى نهاية كتابه على النحو التالى :

« على الرغم من ضلال شهوانيته ، وعلى الرغم من الجرائم التى سولتها لنفسه حدة الطبع ، وبصفة خاصة الثأر لشرفه المهان عن طريق السخرية والاستهزاء(٤٤) ، وعلى الرغم من وجهة النظر المتناقضة التى

---

(٤١) بورجشتال (١٧٧٤ ــ ١٨٥٦) مستشرق نمساوى شهير . له دراسات عديدة فى تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام . أصدر أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوروبا عام ١٨٠٩ هى مجلة « ينابيع الشرق » . وأهم مؤلفاته : تاريخ الدولة العثمانية فى عشرة مجلدات ، وتاريخ الآداب العربية فى سبعة مجلدات .

(٤٢) هو حسين بن محمد الدياربكرى (توفى حوالى ١٥٧٤ م) تولى القضاء فى مكة ، وكان شافعى المذهب . ومن مصنفاته « تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس » تناول فيه سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء الى السلطان مراد العثمانى .

(٤٣) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الحلبى (توفى عام ٩٥٦ هـ) . فقيه حنفى من أهل حلب . تفقه بها وبمصر ثم استقر فى القسطنطينية وتوفى بها . وأشهر كتبه « ملتقى الأبحر » ومختصر طبقات الحنابلة وتلخيص القاموس المحيط (راجع الأعلام للزركلى) .

(٤٤) المعروف أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد تزوج خديجة ــ التى كانت تكبره بسنوات ــ وعمره خمس وعشرون عاما ، وكان قد سبق

عبر عنها مؤرخون مشهورون ومستشرقون والتى تتمثل فى ان محمدا لم يكن الا مجرد كذاب ودجال من منطلق حبه للسيطرة – على الرغم من كل ذلك فاننا يجب ان نثبت على راينا وهو ان محمدا لم ينطلق فقط من الفكرة العظيمة التى تتمثل فى هداية شعبه من ضلال الوثنية الى الطريق المستقيم بعبادة الله وحده ، بل كان يتمتع ايضا بمواهب شعرية ومشاعر دينية حية ، وكان مقتنعا ببعثته فى ساعات حماسه ، ورأى – كما رأى غيره من الأنبياء الذين سبقوه – انه اداة السماء لهداية شعبه ، وانه مؤسس واحد من الأديان الثلاثة التى انتشرت من مصر وسوريا وبلاد العرب الى كل بقاع الأرض وانه خاتم الأنبياء واللبنة الأخيرة » .

* * *

٩ – كارلايل (Carlyle) :

وفى عام ١٨٤٠ ظهر الكتاب الشهير لكارلايل (٤٥) « حول الابطال وتقدير الأبطال » الذى خصص فيه المحاضرة الثانية للحديث عن محمد وعن الاسلام . وكارلايل لا يعتبر محمدا أحق الأنبياء ، ولكن يعتبره نبيا حقيقيا . اما الراى السائد عن حقيقة محمد والذى يتمثل فى انه كان دجالا متعمدا وان دينه عبارة عن خليط من الدجل الطبى والاسفاف فان كارلايل يعتبره رايا باطلا .

=

لها أن تزوجت قبل ذلك مرتين ، وظلت له زوجة وحيدة الى أن ماتت بعد أن أمضى معها ثمانية وعشرين عاما . وبعد ذلك — أى وهو فى العقد السادس من عمره — تزوج سودة بنت زمعة أرملة أحد صحابته ثم تزوج باقى نسائه لأسباب انسانية نبيلة أو أهداف تشريعية . فأين هنا ضلال شهوانيته المزعوم ؟ . أما الثأر لشرفه المهان وحدة الطبع .. الخ . فهذا لم يعرف عنه اطلاقا . فقد كان « **رحمة للعالمين** » تمكن من أهل مكة الذين لاقى هو وأصحابه على أيديهم الأمرين وكان يستطيع أن يجمعهم ويأمر بقتلهم جزاء وفاقا على ما اقترفوه فى حقه وحق أصحابه من جرائم ، ولكنه عفا عنهم يوم فتح مكة عفوا مطلقا وقال قولته الشهيرة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . (انظر كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٧) .

(٤٥) توماس كارلايل — أو : كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١) مؤرخ انجليزى وأحد فلاسفة الحضارة .. وقد قام الأستاذ على أدهم بترجمة الجزء الخاص بالنبى صلى الله عليه وسلم فى كتاب « الأبطال » الى اللغة العربية .

« فالأكاذيب التى عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول هــذا الرجل (يقصد محمدا) لا تسب احدا غيرنا » . واكثر من ذلك يصف كارلايل محمدا بانه كان « نفسا عظيمة وهادئة ، لقد كــان واحــدا من هؤلاء الذين استطاعوا ان يأخذوا الأمور بجدية ، والذين وجهتهم الطبيعة نفسها لكى يكونوا مستقيمين » . فالأصــالة والاســتقامة هما الصفتان المميزتان لأخلاقه . ولكن هــذه الاستقامة كانت تشتمل على شىء الهى ، « فكلمــة مثل هــذا الانسان هى صــوت مباشر من قلب الطبيعة الحقيقية » .

ولم يكن محمد فى حياته الشخصية من عشاق اللذة على الاطلاق . فقد كان متاع بيته يعد من اكثر الأمور اعتدالا . ومع ذلك « فلم يحظ اى قيصر بتاجه بالطاعة مثلمــا حظى هــذا الرجل بردائه الذى كان يرقعه بيده » .

اما القرآن فان كارلايل يطلق عليــه انه « بلبلة ثقيلة ومحيرة ، فهو ساذج ومجدب ، يشتمل على تكرير واسهاب وتشابك لا حد له ، وهو جاف وغير ناضج ، وباختصار هو سخف لا يطاق »(٤٦) .

ومع ذلك تكمن فيه قيمة اخرى تختلف تماما عن القيمة الأدبية . فهو بمثابة تخمر مبهم لنفس انسانية كبيرة وساذجة ، غير ناضجة وغير مثقفة ولم تكن تستطيع حتى ان تقرأ ، ولكنها نفس جادة وتفيض حماسا وتسعى سعيا جبارا لكى تعبر عن ذاتها فى كلمات » .

* * *

---

(٤٦) لقد تحدث كارلايل حديثا ايجابيا تماما عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عاد وخيب الآمال برأيه فى القرآن . وهــذا الرأى ينبنى — فى نظرنا — على أمرين هما : أولا : الموقف الأساسى الغربى الذى يصر على أن القرآن من تأليف محمد . وكارلايل — كما هو واضح — لا يشذ عن هــذا الموقف . ثانيا : الترجمــات السيئة للقــرآن والتى تعطى مثل هــذا الانطباع الذى تحدث عنه كارلايل .

ولا نريد أن نتجنى على كارلايل ونقول انه قد تعمد الاساءة للقرآن . ولكن الأمر الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان متخلقا بأخلاق القرآن كما قالت عنه عائشة رضى الله عنها . فكيف يمكن لكتاب يشتمل على بلبلة ثقيلة ومحيرة وعلى سخف لا يحتمل ... الخ أن يخرج لنا هــذه الشخصية العظيمة التى تحدث عنها كارلايل نفسه بكل اكبار وتعظيم .. أليس فى ذلك ما يدعو الغربيين الى اعادة النظر فى تلك الأحكام الجائرة على أقدس مقدسات الاسلام وهو القرآن ؟

رابعا : الكتابة التاريخية النقـدية لحياة محمد فى القرنين التاسع عشر والعشرين

١ ـ جوستاف فايل (Weil) :

لقد افتتح عام ١٨٤٣ حقبة جديدة فى البحث فى حياة محمد . فقد ظهر فى هـذا العام أول عرض تاريخى نقدى لحياة محمد من تأليف جوستاف فايل(٤٧) . وكانت كل الكتابات عن حياة محمد حتى ذلك الوقت لا تزال تستند باستمرار بدرجة تقل أو تكثر على كتاب جان جانييه الذى ظهر قبـل ذلك بقـرن من الزمان . ولكن جانييه ـ كمـا رأينا (ص ١٧١)(٤٨) ـ لم يضع لنفسـه مهمة وصف محمد كما كان ، بل كان يكتفى بترجمة المصادر العربية ويضعها ببساطة بجوار بعضها دون أى نقد . ولم يخطر ببال أحد ممن جاءوا بعده أن يقارنوا الترجمة التى قدمها بالنصوص الأصلية ولم يخضـعوا مضمونها لنقد تاريخـى . فقد أخذ كل منهم منها ما استطاع أن يستخدمه فى كتاباته . وإذا حدث أن استخدمت بعد ذلك مصادر أخرى لسيرة محمد غير تلك التى كانت متوفرة لجانييه فان ذلك كان يحدث بسطحية وغفلة لا تليقان بالتاريخ .

ويتمثل الفضل الكبير لفايل فى أنه أول من قام بالمحاولة التالية :

أولا : بحث ما قرره العرب حول مؤسس الاسلام بحثا نقديا وعزل الوقائع التاريخية الموثوق بها من الأساطير المتأخرة .

ثانيا : بحث طبيعة محمد بوصفه انسانا ونبيا ومشرعا دون الوقـوع تحت أسر مذهبى .

---

(٤٧) جوستاف فايل (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩) مستشرق ألمـانى ، كان أستاذا للغات الشرقية . قام بترجمة كتاب « ألف ليلة وليلة » الى الألمانيـة ، ثم توفر على دراسـة التاريخ الاسـلامى . وأهم مؤلفاته ـ فضلا عن كتابه عن حياة محمد (١٨٤٣) ـ مقدمة تاريخية نقدية فى القرآن (١٨٤٤) وتاريخ الخلفاء ـ فى ثلاثة مجلدات (١٨٤٦ ـ ١٨٥١) وتاريخ الخلفـاء العباسيين فى مصر (١٨٦٠ ـ ١٨٦٢) . راجـع : (Fueck,p. 175) .

(٤٨) انظر ما سبق ذكره فى ذلك عند الحديث عن جانييه فذلك ما يعنيه بفانموللر هنا فى احالته الى ص ١٧١ .

ثالثا : واخيرا ، ترتيب القرآن — الذى يمثل مزيجا مختلف الألوان من الاناشيد والصلوات والأساطير والعقائد والمواعظ والقوانين والتنظيمات — ترتيبا زمنيا ٠

ومن اجل هذا الغرض درس فايل القرآن بتفسير الجلالين (ص ٢٢٧)(٤٩) ، وبالهوامش العلمية لكل من ماراتشى (ص ٢١٤) وسيل (ص ٢١٦)(٥٠) وان كانت هذه الهوامش ليست دائما تعد صائبة ٠

وبعد ذلك اعاد فايل قراءة تاريخ ابى الفداء من جديد (ص ١٢٨)(٥١) ، وكان (نويل فرجيه Noël des Vergers) (٥٢) قد بذل فى هذا الكتاب جهدا مشكورا كناشر ومترجم وشارح ٠ وفضلا عن ذلك درس فايل بالاضافة الى جانييه مختلف السير الأوروبية الصغيرة لحياة محمد ، وبوجه خاص تلك التى كتبها رينو (ص ١٧٥ وما بعدها)(٥٣) ، وقرأ ايضا مؤلفات (جايجر Geiger) (ص ١٠١ وما بعدها)(٥٤) ، ومؤلفات (جيروك Gerock) (ص ١٠٩ وما بعدها)(٥٥) عن علاقة المذهب المحمدى باليهودية والمسيحية ٠

---

(٤٩) أشار بفانمولر فى ص ٢٢٧ الى أن كتاب تفسير الجلالين لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى من أكثر الكتب استخداما لدى المستشرقين لسهولة استعماله .

(٥٠) فى ص ٢١٤ تحدث بفانمولر عن ترجمة ماراتشى للقرآن وجهوده فى هذا الصدد وفى ص ٢١٦ تحدث عن ترجمة سيل للقرآن وما لها وما عليها وعن مقدمته التمهيدية الشهيرة .

(٥١) فى ص ١٢٨ أشار بفانمولر الى المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ أبى الفداء ومنهم جانييه وأدلر وفرجيه ومورى .

(٥٢) فرجيه (١٨٠٥ — ١٨٦٧) مستشرق فرنسى ، له بعض الجهود العلمية عن ابن خلدون .

(٥٣) ما يشير اليه بفانمولر فى ص ١٧٥ . سبق الحديث عنه هنا فى هذا البحث عند الحديث عن رينو .

(٥٤) فى ص ١٠١ يتحدث بفانمولر عن جايجر وما يزعمه من التاثيرات اليهودية فى الاسلام وفى القرآن على وجه الخصوص .

(٥٥) فى ص ١٠٩ يتحدث بفانمولر عن الصلة بين القرآن والعهد الجديد ويشير الى أن جيروك قد بحث هذه المسالة وانتهى الى أن محمدا قد أخذ معلوماته عن المسيح من التراث الشعبى الذى كان سائدا فى بلاد العرب .

واخيرا جمع فايل شيئا فشيئا ما تضمنته عن محمد مؤلفات كل من هوتنجر وريلاند وبوكوك ، ومذكرات اكاديمية باريس ومجلة توبنجن للاهوت وغير ذلك من مؤلفات أخرى مشابهة .

ولكن فايل لم يكتف بذلك ، فقد بحث أيضا عن مصادر شرقية جديدة تماما . وقام من اجل هذه الغاية برحلة الى (جوتا **Gotha**) وبعد فحص دقيق للمخطوطات المختلفة التى تملكها المكتبة هناك عن محمد ، بدا له أن اكثرها فائدة بالنسبة لهذه الغاية كتاب « انسان العيون » لمؤلفه على الحلبى(٥٦) فى اربعة مجلدات كبيرة ، وكتاب « الخميس » لحسين بن محمد الحسن الديار بكرى فى مجلدين كبيرين .

صحيح ان هذين المؤلفين قد عاشا فى القرن السادس عشر ، ولكن نظرا لأنهما لم يغترفا المضمون من أقدم المصادر فحسب ، بل التزما أيضا بالكلمات من هذه المصادر ، وجمعا بأعظم قدر من الدقة كل ما وجداه عند السابقين من القرن الثانى للهجرة حتى عصرهما – نظرا لذلك فانهما يمكن – حسب رأى فايل – أن يوضعا بجانب أقدم المؤلفين من حيث الثقة بهما .

وفيما بعد حصل فايل من الأستاذ (افالد **Ewald**) (٥٧) على مخطوط بالغ الأهمية هو : سيرة الرسول لابن هشام (ص ١٢٩) . واخيرا حصل من الأستاذ رينو من باريس على الشرح التركى للمقاطع الثلاثة والستين التى لخص فيها ابراهيم الحلبى سيرة محمد .

وعلى هذا النحو الذى اصبح فيه فايل مزودا بأفضل الوسائل المساعدة قام فى البداية بنقد صارم للمصادر ، ثم حاول أخيرا بوصفه مؤرخا القيام بعمل متكامل من تلك المصادر التى قام بفحصها فحصا نقديا . وقد اعتمد هنا فى عرضه على المصادر بقدر الامكان .

---

(٥٦) هو نور الدين بن برهان الدين على بن ابراهيم القاهرى الشافعى (٩٧٥ — ١٠٤٤ هـ) وأشهر مؤلفاته السيرة النبوية بعنوان « انسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » وتدعى عادة السيرة الحلبية .

(٥٧) هينريش افالد (١٨٠٣ — ١٨٧٥) مستشرق المانى ، كان عالما فى اللاهوت ومتخصصا فى العهد القديم وعلى دراية بعدد كبير من اللغات الشرقية وغير الشرقية .

وهكـذا حصلنا على أول كتـاب تاريخى نقدى لحياة محمـد ٠ ولكن المرء يجد بجانب ذلك (فى كتاب فايـل) ليس فقط الحـديث عن تعاليم العقيدة ، بل يجد ايضا عرضا لاهم قوانين العبادة وقوانين الاحوال المدنية والجنائية وقوانين الدولة فى الاسـلام وذلك فى علاقتها بالحياة الخارجية لمحمد ٠ اما حديث فايل عن القرآن فى القسم الآخير من كتابه فقد قام فى السنوات التالية لذلك باكماله فى كتابه « مقدمة تاريخيـة نقدية فى القرآن » (ص ٢٢١)(٥٨) ٠ كما ان بحثه عن « الاساطير التى اخذها المسلمون من الكتـاب المقدس » الذى ظهر عام ١٨٤٥ – يشكل ايضا اضافة مكملة فى جوانب معينة لمؤلفه الرئيسى ٠ وتشـتمل الملحقات بصفة اساسية على اقتباسات مترجمة ترجمة امينة من المصادر ، وبصفة خاصـة اقتباسات من كتاب ابراهيم الحلبى ، بوصفها اسـانيد للدعاوى التى كانت تعد جـديدة او تلك التى كانت حتى ذلك الحين محـل نزاع ٠

* * *

٢ ـ كوسان دى برسيفال (Perceval) :

اما حديث كوسان دى برسيفال(٥٩) عن محمد فى المجلد الثالث من كتابه « المقالات » فانه لا يشكل عملا مكملا لعمل فايل النقدى ٠ فكوسان كثيرا ما يروى ما تقوله المصادر اكثر من اهتمامه بالبحث فى استقلال ٠ لقد كان حقا مزودا بمعارف لغوية اكثر عمقا ودراسات تاريخية اولية افضل من اسلافه ، وكان تحت يده ايضا مراجع مصدرية اقدم واوثـق (مما كان لدى غيره) ٠ وهكذا فان فضله الرئيسى لا يتمثل فى تنمية البحث النقدى ، بل يتمثل فى انه فى الغالب يجعل المصادر الاصيلة هى التى تتحدث ٠

* * *

---

(٥٨) يحيل بفانمولار هنـا الى ص ٢٢١ حيث يتحدث هناك عن محتويات هـذا الكتاب ٠

(٥٩) كوسان دى برسيفال (١٧٥٩ — ١٨٣٥) مستشرق فرنسى وكان أستاذا للغة العربية فى معهد فرنسا الذى تخرج فيه ٠

٣ – ارفينج (Irving) :

اما حياة محمد التى كتبها واشنطن ارفينج(٦٠) – على أساس من مصادر أسبانية وكتاب أبى الفداء لجانييه وكتابات جوستاف فايل – فانها على ما فيها من صياغة براقة ليست لها اهمية علمية .

***

٤ – رينان (Renan) :

وعلى أساس من أعمال فايل وكوسان دى برسيفال قدم رينان(٦١) رؤية مستفيضة عن محمد وعن نشأة الاسلام ، ولكنه لم يأت فى ذلك بجديد . ومصادر نشأة الاسلام – التى تبدو لنا اليوم بعد بحث شاق لا نهاية له اكثر ابهاما وغموضا من اى وقت آخر – تبدو لرينان واضحة لدرجة انه يتحدث عن « دين نشأ فى وضح النهار » .

أما الشىء الهام (الذى قدمه رينان) فهو تلك النظرة السريعة على البحث فى حياة محمد وتقديم بعض الملامح المقارنة من تاريخ الأديان العام . ويصف رينان الاسلام بأنه « دين طبيعى عقلى يتصف بالجدية والليبرالية والبرود » .

***

٥ – ارنست ماير (E. Meier) :

ويعتمد على فايل ايضا ارنست ماير(٦٢) فى مقالته التى بين فى بعض نقاطها كيف يمكن أن نحصل أيضا على أكثر المعارف اهمية عن الحياة العقلية لمحمد وعن أخلاقه من خلال فهم أكثر دقة للقرآن .

***

---

(٦٠) واشنطن ايرفنج مستشرق أمريكى وقد صدر كتابه « حياة محمد » فى نيويورك عام ١٨٤٩ وترجم الى الألمانية عام ١٨٥١ م.

(٦١) ارنست رينان (١٨٢٣ – ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسى من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) الذى ترجمه عادل زعيتر الى العربية . وكتابه الذى يعتمد عليه بفانمولر هنا هو : دراسات فى تاريخ الأديان – باريس ١٨٥٧ .

(٦٢) نشر بحث ارنست ماير عن « محمد : حياته وتعاليمه » فى مجلة اللاهوت العلمى فى يينا بألمانيا عام ١٨٥٨ . العدد رقم ١ من ص ٤٧١ الى ٤٨٨ .

٦ ــ وليم موير (W. Muir) :

وترجع السيرة الكبرى الثانية لحياة محمد ــ بجانب فايل ــ الى العالم الانجليزى وليم موير(٦٣) . وقد انبثقت من مقالات نشرها المؤلف منذعام ١٨٥٣ فى مجلة كلكتا (Calcutta Review) . ويشتمل المجلد الأول فى البداية على المقدمة التى تتكون من الفصول الأربعة التالية :

١ ــ المصادر المتعلقة بسيرة حياة محمد .

٢ ــ السكان الأصليون وتجارة العرب القدامى وفقا للكتاب المقدس والمؤلفين القدماء .

٣ ــ تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام حسب المؤلفات التراثية المحمدية .

٤ ــ أجداد محمد وتاريخ مدينة مكة من منتصف القرن الخامس حتى مولد محمد فى عام ٥٧٠ ميلادية .

وبعد المقدمة فى المجلد الأول يأتى الفصل الأول من السيرة الحقيقية التى تستكمل فى المجلدات الثلاثة التالية فى سبع وثلاثين فصلا حتى تصل الى النهاية . وفى الفصول التى تتعلق بالأحداث الخارجية لا يقدم لنا المؤلف شيئا جديدا الا القليل . ويظهر المؤلف كباحث متعمق فى الفصل الثالث « عقيدة محمد فى الهاماته أو وحيه » . ومن الفصول الجيدة أيضا الفصل السابع « علاقة الاسلام بالمسيحية » ، والفصل السابع والثلاثون « شخص محمد واخلاقه » .

وقد كان من الممكن اختصار الكتاب كثيرا بصفة خاصة فى الحديث عن التاريخ الخارجى المعروف المتعلق بمحمد ، كما أن القسم الأكبر من المجلد الأول الذى يتصل بالتاريخ الأقدم لبلاد العرب قد استقاه المؤلف من كتاب كوسان دى برسيفال . ولكن الفصل الأول من المقدمة يمتاز بقيمة كبيرة ، هذا الفصل الذى يهتم بمصادر سيرة محمد ويبحث فى درجات وثوقها المختلفة . وعلى الرغم من موقف المؤلف المصبوغ بصبغة

---

(٦٣) السير وليم موير (١٨١٩ ــ ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندى . صدر كتابه عن (حياة محمد) فى أربعة أجزاء فى لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ .

مذهبية حادة فان عرضه (للموضوعات) كان باستمرار عرضا واضحا وجديرا بالتقدير .

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من عام ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ ، وظهرت الطبعة الثانية ـ التى اختصرت فيها بعض النقاط ـ فى عام ١٨٧٦ ، وظهرت الطبعة الثالثة فى مجلد واحد فى عام ١٨٩٤ ، ثم ظهرت طبعة جديدة منقحة فى عام ١٩١٢ ، ولكن هذا التنقيح لم يمتد الا الى تصحيح كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية وتصحيح الاقتباسات واضافة بعض الاشارات فى الهوامش .

أما كتاب موير « محمد والاسلام » فهو اختصار للكتاب الكبير « حياة محمد » . ويدين المؤلف بالفضل كثيرا الى كل من فايل واشبرنجر . وقد أخذ الصور الى حد ما من الكتاب المصور الرائع « مدنية العرب » الذى ألفه (ج . لوبون Le Bon) .

* * *

٧ ـ الويس اشبرنجر (A. Sprenger) :

وأما الكتاب الثالث الكبير الذى تم تأليفه طبقا لوجهات نظر تاريخية نقدية فقد كان من تأليف الويس اشبرنجر (٦٤) وكان اشبرنجر قد نشر فى عام ١٨٥١ مؤلفا عن حياة محمد كتبه بالانجليزية ، ولكن لم يظهر من هذا المؤلف الا القسم الأول فقط . ويشتمل هذا القسم الأول ـ بعد مدخل قصير ـ على الكتابين الأولين . وقد تناول فى أولهما فى فصول ثلاثة تاريخ مكة ، وأجداد محمد ، والأساطير الاسلامية حول هذين الموضوعين ، ومصادر سيرة محمد . وروى فى الكتاب الثانى فى فصول ثلاثة حياة محمد من مولده حتى وصوله الى المدينة .

---

(٦٤) ألويس اشبرنجر (١٨١٣ — ١٨٩٣) مستشرق نمساوى الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ ، كان أستاذا للغات الشرقية فى جامعة برن بسويسرا وعمل أيضا فى الهند . ويقول المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت عن كتاب اشبرنجر (حياة محمد) : « انه كتاب جاء مخيبا للآمال فى أكثر من ناحية وانه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمى » (راجع : الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية لبارت ص ٢٣) .

وبعد ذلك بعشر سنوات ظهر المجلد الأول من كتابه الكبير عن سيرة محمد (بناء على مصادر لم تستخدم من قبل الا قليلا جدا) ٠ وفى المقدمة يتحدث اشبرنجر عن نشأة كتابه والغاية منه ٠ وقد قضى المؤلف أجمل سنوات عمره فى الشرق ، وتعرف بخبرته على البلاد التى تمثل موضوع بحوثه ٠ وعمل مدة اثنى عشر عاما مشرفا على المعاهد العليا الاسلامية فى الهند العليا ٠

وقد استغل هذا الوقت لكى يجمع بلا كلل مخطوطات ومطبوعات شرقية ، وليتعمق فى لغة وروح الشرقيين ٠ وبعد أن انتهت سنوات التجول تمثلت مهمته فى الاشتغال بالمادة (العلمية) التى جمعها فى الشرق (بهدف كتابة) تاريخ نشأة ذلك الدين العالمى الذى نملك وحدنا مصادر عن أصل نشأته(٦٥) ٠

وقد كانت هناك نظريات عديدة تم وضعها حول محمد ، فقد كان موير يعتقد أن الشيطان قد مارس لعبته مع محمد ، وكان كارلايل يرى فيه انسانا فذا ٠ وفى ألمانيا سلب المرء من كلمة نبى كل ما تعنيه ثم زعم أنه كان نبيا ٠

ويريد اشبرنجر أن يبرهن على أن محمدا لم يكن لا بطلا بالمعنى الذى يقصده كارلايل ولا أداة للشيطان ٠ وقد أدت نتائج بحوثه الى اقتناعه بأن الاسلام « لم ينبع من النسب والحسب ، ولا من ارادة اللحم(٦٦) ولا من ارادة رجل » ، بل من متطلبات العصر ٠ واذا كان كارلايل قد قصد أن يقول عن محمد كل ما هو خير مما يستطيع المرء اثباته ، فان اشبرنجر ينهج نهجا مضادا تماما ، ويريد أن يلفت النظر عند كل مناسبة الى الضعف الانسانى لدى محمد ٠ وحيث انه ليست لدينا أخبار عنه غير تلك الأخبار التى لدينا من جانب محبيه فانه « يجب على كاتب السيرة أن

---

(٦٥) على أى أساس ينبنى هذا الادعاء العريض بأن الأوروبيين وحدهم هم الذين لديهم مصادر عن أصل نشأة الاسلام ؟ هذا وهم لا يعتمد الا على منطق العجرفة وعقدة التفوق لدى الأوروبيين !

(٦٦) هكذا ورد التعبير فى الأصل ولعله يقصد بذلك أنه لم ينبع من سبب مادى بحت ٠

يقوم بالدور الخبيث لممثل الاتهام (Advocatus Diaboli) ، وان يستخرج مساوىء اخلاقه من كلمات مدح محبيه »(٦٧) .

وقد قام اشبرنجر يقينا بتنفيذ هذا الدور ببراعة ! ومن خلال مهنته كطبيب ينظر فى اخلاق محمد بشغف من وجهة النظر الطبية وينتهى الى الاقتناع بأن محمدا كان انسانا هستيريا . وقد عارض سنوك هورجرونيه ذلك (قائلا) : ان الأهمية الخاصة لمحمد يجب أن تتمثل فى هذا الذى يميزه عن غيره من الهستيريين ، وليس فى الأحوال المرضية التى يشترك معهم فيها (٦٨) .

واذا كان هذا الراى ايضا (من جانب اشبرنجر) عن محمد لا يعد رأيا متينا فان كتاب اشبرنجر مع ذلك قد أصبحت له أهمية كبيرة بالنسبة للبحث الحديث كله فى موضوع محمد . وقد خص اشبرنجر القرآن بصفة خاصة بأعظم قدر من الاهتمام بوصفه المصدر الرئيسى لحياة محمد . ويصرح فى فخر بأنه « قد مهد الطريق لفهم القرآن » . ويشتمل كتابه على ترجمته المستقلة لثلثى القرآن تقريبا .

وطبقا لمقصد اشبرنجر فان كتابه قد خصص لطبقتين مختلفتين تماما من القراء : للباحث الذى لا يفهم العربية ، ومع ذلك يرغب فى دراسة متعمقة لطبيعة الاسلام ، وللقارىء غير المتعمق الدى يكتفى بنتائج بحوث الآخرين .

ولكن فيلهاوزن كان على حق فى حكمه (على عمل اشبرنجر على النحو التالى) :

« يعد كتاب اشبرنجر ينبوعا ثريا فى المادة والأفكار بالنسبة للدارسين للعلوم العربية القادرين على التمييز ، ولكنه غير مناسب اطلاقا للاطلاع بالنسبة لدائرة اوسع من جمهور الناس على الرغم مما يبدو من انه قد خصص لذلك » (محمد فى المدينة ص ٢٦) . ولكن فيلهاوزن لا يريد ايضا ان ينكر الأهمية العالية لكتاب اشبرنجر :

---

(٦٧) الغرض اذن من بادىء الأمر هو البحث عن مساوىء ، وحيث أنه سيعييه البحث عنها دون جدوى فانه يلجأ الى تخيل مساوىء من كلمات المدح . فهل هذا منطق ، وهل هذا منهج علمى مقبول ؟

(٦٨) راجع تعليقنا على مثل هذه المزاعم فى ص ٩٠ من العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة .

« على العكس من الطريقة التى كانت سائدة الى حد ما زمنا طويـلا فى المانيا ، والتى كانت تنظر الى الأدب العربى على أنه بمثابة مجموعة كبيرة من الأمثلة لقواعد النحو فان اشبرنجر قد كان له تأثير منعش الى اقصى حد عن طريق شعوره الحى والسليم بالنسبة للأشياء ، وذلك باهتمامه المباشر والأصيل بمضمون التراث اهتماما بعيدا عن النظرة التخصصية الضيقة وعن اتباع مذهبية معينة . فهو رجل طبيعى صميم ، وفى ذلك تكمن قوته ، مع كل الوان الضعف التى تلازمه ايضا من أجل ذلك » . (محمد فى المدينة ص ٢٤) .

وفى الختام نورد بيانا قصيرا بمضمون المجلدات الثلاثة :

يسير المجلد الأول (فى البحث) حتى عام ٦١٦ م ، فيصف شـباب محمد والسنوات الأولى لظهوره كنبى . أما المجلد الثانى فانه يتناول فى تسعة فصول الفترة الواقعة بين الهجرة الأولى الى الحبشة عام ٦١٦ م حتى الهروب(٦٩) الى المدينة . ويشتمل المجلد الثالث فى البداية على مقـدمة ضافية تعرفنا – بعد ايراد بعض الملاحظـات التمهيدية – بالمصادر التى اعتمـد عليها المؤلف . فالقرآن نفسه ، وبعض الوثائق القليلة ، وكتـاب سيرة محمد ، والسنة ، وتراث الأنساب ، كل ذلك كان يقدم مادة ثرية جدا للمؤلف ساعدته على تأليف كتابه .

والمضمون الحقيقى للمجلد يتكون من ثمانية فصول يتنـاول فيهـا ظهور محمد فى المدينة بوصفه مشرعا وفاتحا وحاكما حتى وفاته . ويصاحب كل فصل استطرادات مسهبة . والعرض مستفيض جدا للأسف ، ويشـكل « مزيجا غير مستساغ من حكايات وتأملات نقدية » . (فيلهاوزن) .

* * *

---

(٦٩) هكذا يحلو لكثير من المستشرقين تسـمية الهجرة الى المدينة هروبا . ولو كان الأمر أمر هروب لمـا كان هناك مبرر لأن يظل محمد فى مكة حوالى ثلاثة عشر عاما منذ بدء الدعوة يتعرض فيها هو وأصحابه لأقسى ألوان التعذيب والاضطهاد والحصار والتجويع . ولو أراد أن يهرب لفعل ذلك قبل الهجرة بسنوات ، وبخاصـة بعد موت خديجة وعمه أبى طالب الذى كان يحميه من غدر المشركين . فالأمر لم يكن اذن يتعلق بارادة محمـد صلى الله عليه وسلم فى تحديد الموعد الذى يترك فيه أحب بلاد الله الى نفسه مهاجرا الى المدينة أو غيرها من بلاد الله ، ولكنها ارادة الله ، ولم يكن له الا أن يمتثل لأمر الله .

٨ ــ نولدكه (Nöldeke) :

لقد جاءت فترة الستينات من القرن التاسع عشر ــ وهى فترة تعد ذات اهمية كبيرة بالنسبة للبحث فى حياة محمد ــ جاءت بعرض شعبى ممتاز لحياة محمد كتبه مؤلف « تاريخ القرآن » . ويعبر نولدكه(٧٠) نفسه فى المقدمة عن الغاية من كتابه ، كما يعبر كذلك عن موقفه من أسلافه فيقول :

« على الرغم من البحوث التى اجريت بحماس بالغ فى العشرين سنة الأخيرة عن محمد وعن اصل نشأة الاسلام ــ واخص بالذكر هنا فقط تلك المؤلفات الرائعة لكل من فايل وكوسان دى برسيفال وموير واشبرنجر ــ فان مجال البحث لم يختتم اطلاقا ، ولهذا فانى مع ذلك كله اعتقد بأن عرضا شعبيا لتاريخ محمد مرتكزا على المصادر يعد عملا مناسبا للعصر وأمرا مشكورا . وقد تجنبت عن عمد كل المناقشات العلمية وكذلك كل المجادلات ، ولم اذكر من الاقتباسات الا حوالى ستة اقتباسات فقط . ومع ذلك فانه يصح لى أن أؤكد ان عملى يستند تماما على بحثى الخاص للمصادر . والأسس العلمية لهذا العمل هى فى جوهرها تلك الأسس التى ترتكز عليها الفصول الأولى من كتابى « تاريخ القرآن » .

وقد وضعت امام عينى اولا امثال هؤلاء القراء الذين لا يعرفون اللغة العربية ، ولكنى آمل على الأقل ان تكون بعض الآراء ووجهات النظر المطروحة هنا مثار اهتمام المستشرقين ايضا . وقد اوليت الأحوال السياسية والشعبية قدرا خاصا من الاهتمام ، وافادتنى فى ذلك بصورة اساسية دراستى الطويلة والمتواصلة للشعر العربى القديم . وهناك قصور يجب أن اعترف به ويتمثل فى عدم الدقة فى الترتيب الزمنى للسنين العشر الأخيرة من حياة محمد . ولم أستطع أن استخدم من مؤلف اشبرنجر العلمى الا القسم الأول فقط عند كتابة هذا الكتاب . ويمتاز مؤلف اشبرنجر بعمقه وحدة ذكائه وعرضه الطريف ، ولكنى كثيرا ما اضطررت ايضا الى أن أخالف آراءه » .

(٧٠) تيودور نولدكه (١٨٣٦ ــ ١٩٣٠) مستشرق المانى معروف، كان أستاذا للغات الشرقية فى عدد من الجامعات الألمانية ، له انتاج غزير فى مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربى واللغات السامية والدراسات الاسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » فى هانوفر بالمانيا عام ١٨٦٣ .

ويقع كتاب نولدكه فى سبعة فصول (على النحو التالى) :
١ ـ المقدمة . حياة محمد حتى ظهوره النبوى .
٢ ـ من الظهور النبوى لمحمد حتى هروبه الى المدينة .
٣ ـ من الهروب حتى موقعة احـد .
٤ ـ من موقعة احد حتى حصار المدينة .
٥ ـ من حصار المدينة حتى الاستيلاء على مكة .
٦ ـ من الاستيلاء على مكة حتى موت محمد .
٧ ـ اخلاق محمد .

وفى تقديره وحكمه على محمد يجتهد نولدكه فى ان يتم ذلك فى موضوعية هادئة على العكس من طريقة اشبرنجر الذاتية والحادة . ولكى يكون المرء منصفا لمحمد فانه يتحتم عليه ان ينظر اليه فى حياته ليس فقط بوصفه نبيا وواعظا واميرا ، بل ينظر اليه ايضا فى تعامله مع اتباعه واصدقائه وفى حياته اليومية . فهناك ملامح ثابتة لا تحصى تظهره هنا فى ضوء جميل . اما ما يتعلق بأخطائه فانه يجب على المرء أن يفكر فى أن هذه الأخطاء كانت فى قدر كبير منها اخطاء عصره وشعبه ، وانـه كان يبدى بجانب ذلك شمائل على اقصى درجة من النبل ، وأنه هو نفسه كان مقتنعا بمهمته لانقاذ اخوانه فى الانسانية من العذاب الأبدى عن طريـق هدايتهم الى العقيـدة الصحيحـة ، ولجعلهم مشـاركين فى السـعادة السـماوية .

* * *

٩ ـ كريـل (Krehl) :

بعد التراجم الكبيرة والعميقة لحيـاة محمد من جـانب كل من فايل وكوسان دى برسيفال وموير واشبرنجر ونولدكه طرات حالة من الركود فى البحث (فى هذا المجال) . ثم جاءت الثمانينات من القـرن التاسع عشر مرة اخرى بكتابين كبيرين عن حياة محمد ظهرا متتابعـين بفارق زمنى قصير وقام بتاليفهما لودولف كريل(٧١) . واوجست موللر.

(٧١) لودولف كريل (١٨٢٥ ــ ١٩٠١) مستشرق المـانى . ساعد فى نشر الجزأين الأولين من كتاب نفح الطيب للمقرى . ونشر ثلاثة أجزاء من الجامع الصحيح للبخارى . أما كتابه عن « حياة محمد » فقد صدر فى ليبتزج بألمـانيا عام ١٨٨٤ .

ويحاول كريل ان يبحث بصفة رئيسية التطور الدينى لمحمد عن طريق الأحداث السياسية . ويسعى جاهدا فى أن يكون محايدا بقدر الامكان فى هذا البحث . ويعترف شاكرا بأن دراسة الكتب الكبرى لعلم الحديث ، مثل دراسة صحيحى البخارى ومسلم ـ اللذين يشتملان على الكثير الذى لا يحصى من الملامح المميزة جدا لمحمد واقواله الثابتة بطرق جيدة ـ هذه الدراسة قد ساعدته فى بحثه بصورة أساسية .

ومع انه يعلم يقينا ان هذه المأثورات غالبا ما اصطبغت بأغراض لصالح محمد الا انها رغم كل ذلك تظل فى رايه مصدرا رئيسيا لحياة محمد . وبناء عليها يظهر مؤسس الاسلام فى ضوء آخر ، وهو ضوء افضل الى حد بعيد . ومع كل اخطائه يجب ان يعترف المرء بأن محمدا هو مؤسس المدنية العربية ، وأنه قد وضع شعبه تماما وبلا جدال على درجة عليا من الدين . « وان متحمسا دجالا ومرائيا وانسانا يقوده طموحه الأنانى فقط لم يكن له ان ينجح فى ذلك بكل تأكيد . فالقوة التى بناها كانت سرعان ما تنهار بالتأكيد مرة اخرى بعد موته اذا لم تكن قد بنيت على فكرة عليا وعلى تعاليم لا تزال تشغل اليوم فكريا وروحيا ملايين الناس وترضيهم بطريقتها ، وجاء على اثرها عبر القرون تراث واسع المدى جدا والى حد ما غنى بالأفكار ويشهد بثقافة عقلية عالية » .

اما القسم الثانى (من كتاب كريل وهو : التعاليم) فلم ينشر ، ولكن المخطوط موجود ضمن ما خلفه كريل . وهناك فقط بعض النقاط الجزئية للتعاليم (الاسلامية) تناولها كريل بالبحث وقام بنشرها (ص ٢٦١ وما بعدها)(٧٢) .

* * *

١٠ ـ أوجست موللر (A. Müller) :

قام أوجست موللر(٧٣) فى اطار عرضه الشامل للاسلام بتقديم

---

(٧٢) يشير بفانموللر فى ص ٢٦١ الى هذه البحوث التى نشرها كريل ، وأهمها بحث عن « عقيدة القضاء والقدر فى القرآن وصلتها بعقائد الاسلام الأخرى » وبحث عن عقيدة الألوهية وبحث عن خصائص العقيدة فى الاسلام .

(٧٣) أوجست موللر (١٨٤٨ ـ ١٨٩٢) مستشرق ألمانى . كانت رسالته للدكتوراة عن امرىء القيس ، وكان يطلق على نفسه أيضا =

عرض لحياة محمد ايضا ينبنى على معرفة عميقة بالمصادر الأصلية ، ويتضمن حكما موزونا تماما على محمد . وبالمعنى التاريخى الخالص – كما يقول – يكون من الصعب على المرء ان ينكر على محمد اسم النبى . حقا لا يستطيع المرء ان ينكر أنه كان واقعا تحت حالات عصبية مختلفة نتيجة لمزاجه الذى كان سريع الانفعال بطريقة غير عادية ، وقد ارتفعت هذه الحالات فى بعض الأحيان الى درجة الهلوسة . ولكن هذه الحالات لم تكن ابدا ذات طبيعة صرعية ، بل كانت تتلاءم ايضا مع الانفعالات العصبية المعروفة (التى تعترى) الأشخاص من ذوى الحس المرهف دينيا . ولكن قدرته الكاملة على التمييز بصفة خاصة لم تكن تعانى تحت (وطأة) هذه الحالات . ولا يستطيع المرء ايضا ان يشكك فى اخلاصه الكامل فى الفترة المكية .

واذا كان المرء لا يستطيع ان ينكر على محمد صفة نبى حقيقى فان موللر له مع ذلك بعض التحفظات . فهو يعيب على محمد أنه لم يدرك الا جانبا واحدا فقط من الطبيعة الالهية ، وأنه ينقصه تماما مفهوم القداسة بوجه خاص ، وبذلك ينقصه الأساس لتشكيل عميق بطريقة ما لفكرة نظام اخلاقى للحياة . ثم يصدمنا لدى محمد فى المدينة على وجه الخصوص أنه قد حول الدين الى السياسة فى تزايد مستمر : فقد استعان بالكذب لكى يفرض الحقيقة ، وربما كان ذلك فى البداية دون وعى ، ثم بنصف وعى ، وفى النهاية بوعى كامل(٧٤) !

= اسم امرىء القيس بن الطحان . كان أستاذا للعربية فى جامعة فيينا . له دراسات فى الأدب العربى والفلسفة واللغة وله جهود فى نشر وتحقيق وترجمة بعض الكتب العربية . وقد صدر كتابة عن « الاسلام فى الشرق والغرب » فى برلين عام ١٨٨٥ . (راجع : المستشرقون للعقيقى ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها) .

(٧٤) يحاول أوجست موللر هنا تطبيق مفاهيم المسيحيين وتصوراتهم وهذا أمر ليس له ما يبرره على الاطلاق . فالدين من حيث هو دين ليس هو حول الطبيعة الالهية والقداسة وعزل الدين عن السياسة على الاسلام . – يقينا – ذلك المفهوم الأوروبى المسيحى . واذا كانت الأفهام المسيحية قد حولت المسيحية الى هذه الصورة التى نعرفها والتى استخلص منها موللر مفاهيمه فان الاسلام قد جاء بتصحيح هذه التصورات واعادة الأمور الى نصابها الصحيح .

وقد استخدم موللر فى كتابته لقسم عظيم من تطور تعاليم محمد المدونات التى كانت تحت تصرفه من مخلفات صديقه (أوتو لوت Otto Loth) الذى كان استاذا فى ليبتزج وتوفى للأسف مبكرا ٠

* * *

١١ ـ هوبرت جريمه (H. Grimme) :

اما كتاب حياة محمد الذى كتبه هوبرت جريمه(٧٥) واعقبه بعد ذلك بثلاث سنوات بالقسم الثانى الذى يشتمل على مقدمة فى القرآن ونسق علم الالهيات القرآنى (انظر ص ٢٠٠) ـ فانه يعد جهدا مستقلا جدا فى مقابل المأثورات العربية ، وكذلك فى مقابل المؤلفات الأوروبية فى السيرة ٠ وقد استند بصفة عامة على مادة المصادر المنشورة ، ولكنه اتبع ـ لدى استخدامه لهذه المادة ـ الى حد ما طريقة اخرى غير تلك التى اتبعها غالبية أسلافه ، وبذلك توصل فى الغالب الى نتائج مختلفة تماما عما توصلوا اليه ٠

ويرى جريمه على وجه الخصوص أن من الضرورى اتخاذ موقف اكثر حذرا من الأحاديث ٠ صحيح أن مجموعات الأحاديث التى ترجع الى زمن اقدم من غيرها بوجه خاص تشتمل على كثير مما هو حقيقى ولا غنى عنه لتاريخ محمد ، ومن المؤكد كذلك ان التزييف المتعمد لم يعمل عمله بمثل هذه الجراة فى اى مجال من مجالات الأدب مثلما فعله هنا فى هذا المجال ٠ ولكن المرء لا يزال بعيدا عن التوصل الى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف(٧٦) ٠

---

(٧٥) هوبرت جريمه (١٨٦٤ — ١٩٤٢) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا اللغات الشرقية فى (مونستر Münster) بألمانيا . ومن مؤلفاته : « محمد » فى جزئين . وله دراسات حول اسم محمد ، وأصول ديانة محمد ، والأهمية التاريخية العالمية لبلاد العرب فى عصر محمد ، والاسلام واليهودية وغيرها .

(٧٦) اذا كان جريمه وأمثاله لم يستطيعوا ان يتوصلوا الى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف من الأحاديث فان علماء المسلمين قد توصلوا الى ذلك منذ قرون ، وفى مقدمتهم أصحاب الكتب الستة الصحيحة التى أجمع المسلمون منذ ذلك الزمن البعيد على حجيتها والاعتداد بها .

وفضلا عن ذلك فان مجموعات الأحاديث عالبا ما تقدم كثيرا جـدا من الأمور التى لا اهمية لها • وأخيرا فانها لا تقدم الا روح الحقبة المدنيـة ولكنها لا تقدم اطلاقا روح الحقبة المكية(٧٧) • ولكن من حسن الحظ انه لا يزال يتدفق هناك مصدر قوى للحقيقة التاريخية فى القرآن • وقـد حاول المؤلف أن يستخدم القرآن بشكل مثمر تماما • ولكن هناك امـورا كثيرة تحمل هنا أيضا على الحذر • فمن الأمور التى لا تزال مثار جـدل بوجه خاص قضية الترتيب الزمنى للسور القرآنية • ومن أجـل ذلك يقـدم المؤلف فى القسم الثانى فصلا خاصا عن « شكل السور القرآنية وتتابعهـا الزمنى » ويصل فيه الى بعض النتائج المخالفة(٧٨) •

ويذهب جريمه الى القول بأن محمدا كان فى المقام الأول مثيرا للفتن أو محـــرضا (Agitator) ذكيا وسياسيا كبيرا • وفى المدينة تطـور محمد ـ حسب رأى جريمه ـ فى تزايد مستمر الى دجال عن وعى بذلك(٧٩) • ولكن الأمر الجديد تماما هو دعوى جريمه بـأن محمـدا عند ظهوره الأول (بدعوته) لم يكن يدعو الى دين اطلاقا ، بل كان يدعو الى شكل من أشكال الاشتراكية • فالاسلام « لم يظهر اطلاقا بوصفه نسـقا

---

(٧٧) هــذا كلام غير صحيح . فهناك أحاديث كثيرة من الفترة المكية . وقد عالجت مسائل العقيدة والأخلاق والحض على الصدقة وتناولت فريضـــة الصلاة وقصة الاسراء والمعراج وتحريم الخمر والزنا والربا وغــير ذلك من موضوعات .

(٧٨) يثير المستشرقون منذ زمن طويل قضية الترتيب الزمنى للسور القرآنية ، ولهم فى ذلك وجهات نظر متعددة ، والأمر الذى عليه المسلمون هو أن هــذه القضية توقيفية لا تخضع للاجتهاد البشرى . والنبى صلى الله عليه وسلم لم يترك الأمر فى ذلك للأهواء والأغراض ، بل حسمه بتوجيه الهى تم بناء عليـــه ترتيب الآيات والسور على النحو المعــــروف فى المصحف .

(٧٩) لسنا هنا فى مقام الدفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو ليس فى حاجة الى دفاع . وهــذا السباب لا يصيب الا أصحابه كما سبق أن قال توماس كارليل . وقد كان عليه الصلاة والسلام كما وصفه القرآن « شاهدا ومبشرا ونذيرا • وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) ، وهو القائل : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » . ومن ناحية أخرى فقد سبق أن أشرنا مرارا الى قضية السياسة والدين وأنه لا انفصالية بينهما كما تذهب الى ذلك العلمانية الغربية التى يراد تقويم الاسلام من خلالها .

دينيا فى الحياة ، وانما بوصفه محاولة لشكل من أشكال الاشتراكية ليواجه ما كان سائدا الى حد بعيد من احوال ارضية سيئة معينة »(٨٠) ٠

وقدكان التناقض المخيف بين الأغنياء والفقراء ـ والذى كان سائدا فى مكة ـ هو الذى دفع محمدا الى المطالبة بضرورة ان يدفع كل فـرد ضريبة معينـة لمساعدة المحتاجين ٠ ولكى يجد محمد آذانا صاغية لهـذه الدعوة استخدم عقيدة يوم الحساب كوسيلة اجبار روحية ٠

***

١٢ ـ سنوك هورجرونيه (Hurgronje) :

وقد عارض هذا الراى فى محمد سنوك هورجرونيه فى مقالة مسهبة فى « مجلة تاريخ الأديان » ٠ وقد تضمنت هذه المقالة تفنيدا رائعـا لراى جريمه ٠ فكل كتاب سيرة محمد من الأوروبيين تصوروا ـ كما يقول هورجرونيه فى اعتراضه ـ ان محمدا قد شعر وهو فى سن الأربعين بأنـه مدفوع لدعوة قومه الى دين ٠ واحد هؤلاء الكتاب قد اراد ان يعطـى الانطباع بأن هذا الدين كان بالنسبة لمحمد مجرد وسيلة للوصول الى السلطان والنفوذ فحسب ٠ وقد ذهب « موير » الى القول بأن محمدا كان اداة من ادوات الشيطان ، ولكنه مع ذلك اعترف بأن هذا الشيطان قـد ظهر لمحمد فى صورة رسول الهى ٠ وبالنسبة لاشبرنجر كانت دعوى الهستيرية هى التى خدمته لكى يوضح ان محمدا كان ظاهرة دينية ٠ واخيرا فان المؤرخين من أمثال كارلايل الذين راوا فى محمد عبقرية فذة ـ كانوا مع كل اختلافاتهم على اتفاق فى اعتباره عبقرية دينية ٠

والسؤال الكبير الذى يواجه كتاب سيرة محمد من البداية هو : ما أصل الاصطفاء الدينى لدى محمد ومن اين أخذ افكاره الدينية ؟

ان افكاره الرئيسية هى ـ مع بعض التغييرات فى الشـكل ـ تلك

---

(٨٠) لن نناقش هذه الدعوى المتهافتة . فالواقع والشواهد التاريخية الصحيحة تكذبها تمـاما ، فضـلا عن أنها دعوى لا يوافقه عليهـا معظم المستشرقين ، ولعل جريمه وحده قد انفرد بها . وقد قام سنوك هورجرونيه بنقضها وتفنيدها كما يتضح ذلك فى الصفحات التالية وان كنا لا نوافق على الأسلوب الذى اتبعه هورجرونيه فى تفصيل رده المشتمل على الكثير من المزاعم الباطلة .

الأفكار التى تشترك فيها كل من اليهودية والمسيحية · وفى التفاصيل يبدى وحيه تارة الصبغة اليهودية ، وتارة اخرى الطابع المسيحى ، وتارة ثالثة يبدى امورا متنوعة لخيال حر نسبيا مبنى على اساس يهودى مسيحى ·

ولكن محمدا لم تكن لديه الا معلومات ناقصة وقاصرة عن اليهودية والمسيحية ، فلم يكن يعرف مثلا الكتاب المقدس او علم العقيدة الأرثوذكسية ، بل كان يعرف فقط الأدب والتراث المشكوك فى صحته (Die apokryphe Literatur) لهذين الدينين (٨١) · وقد كان محمد فضلا عن ذلك رجلا اميا : وهكذا ظلت الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية غريبة عنه · وعن طريق الحديث فقط مع اتباع هذين الدينين نعرف محمد عليهما كما كانا قائمين فى بلاد العرب حينذاك · ويضاف الى ذلك ان من الأمور التى تركت لديه انطباعا خاصا كان فن قراءة النصوص المقدسة او فن تلاوتها وترتيلها فى صلوات اليهود والمسيحيين ، خاصة وانه قد سمع الناس يقولون – واعتقد (ما يقولون) بلا حدود – ان الكتب والألواح التى يقرؤها اليهود والمسيحيون فى صلواتهم والتى تتضمن شرائعهم ومؤسساتهم ليست ذات مصدر انسانى ، بل مصدرها الهى ·

ولكن كيف تكون لدى محمد مفهوم الوحى ؟

فى البداية لم يكن محمد يلحظ اطلاقا الموقف العدائى الذى تتخذه

---

(٨١) يحاول سنوك هورجورونيه هنا وفيما يلى من تفاصيل بيان أن الاسلام دين مأخوذ أساسا من اليهودية والمسيحية . وقد كانت المعلومات التى تلقاها محمد عن هذين الدينين معلومات ناقصة وقاصرة نظرا لاعتمادها على مصادر مشكوك فيها . وهذا الاتجاه يكاد أن يكون اتجاها عاما لدى المستشرقين الذين يريدون أن يظهروا الاسلام بمظهر الدين البشرى الملفق من تلك المعلومات التى عرفها محمد عن طريق لقاءاته مع أتباع هذين الدينين . ولكن السؤال هو : لماذا لا يكون الاسلام دينا أصيلا مأخوذا مباشرة من نفس النبع الذى أخذت عنه الديانات السماوية قبل أن تتدخل أيدى البشر لتحريفها ؟ لماذا لا يكون الاسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات الوحى الالهى الذى أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية ؟ هل مبدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحى مبدأ مسلم به أم لا ؟ انه اذا كان هذا المبدأ مسلما به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والمسيحية وتمنعه عن الاسلام ، واذا لم يكن – فى عرفهم – مبدأ مسلما به فلا مجال للديانات جميعا . (راجع فى مناقشة هذا الموضوع كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ – ٧٣) .

الطوائف والكنائس المختلفة من بعضها بعضا . فالفرق بين اليهود والمسيحيين ، ووجود الطوائف والكنائس العديدة التى كانت تعادى بعضها بعضا خارج هذين الدينين ، كل ذلك قد بدا فى التصور الساذج لمحمد أنه يرجع الى اختلاف الأجناس أو القوميات . فقد تصور البشرية - من حيث أنها تملك نعمة الوحى - مقسمة فى « جماعات » يمكن أن تتميز كتبها وألواحها فى الشكل والمضمون ، ولكنها جميعا قد جاءت وحيا من لدن اله واحد وللغاية ذاتها .

وقد تأسست كل جماعة - فى رأيه - عن طريق انسان اصطفاه الله من بين شعبه وتحمل مهمة دعوة قومه الى كلمة الله بوصفه نبيا ومبعوثا أو نذيرا . وهناك عدد كبير من الأنبياء ، وليس بينهم فرق جوهرى . ولم يكن اصطفاء محمد للعرب - فى نظر محمد - أمرا مختلفا عن اصطفاء الأنبياء السابقين ، فقد كان كل منهم مختارا لشعبه الذى ينتمى اليه (٨٢) .

وهكذا كان فى وسع محمد أن يفترض بلا عناء ان اتباع الدينين القائمين الموحى بهما يمكنهم ان يعترفوا به بوصفه نذيرا مرسلا من الله للعرب دون أن يلحق ذلك أى ضرر بمعتقداتهم (اليهودية والمسيحية) . ولكن عندما اتصل محمد باليهود فى المدينة اتصالا مباشرا كان لا بد له حينئذ ان يعرف ان اليهود الحقيقيين والمسيحيين الحقيقيين لن يعترفوا اطلاقا بأصالة بعثته الدينية .

ولكن نظرا لأنه من ناحيته كان مقتنعا بشرعية بعثته وكان يعتقد

---

(٨٢) لم يكن ذلك كله اجتهادا من محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كان وحيا تلقاه من ربه عز وجل . وفى هذا الوحى تأكيد على وحدة الأصل البشرى واشارة الى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الناس شعوبا وقبائل لكى يتعارفوا وجعل أكرمهم عنده أتقاهم ، كما أشار الوحى الى أنه ليست هناك أمة الا خلا فيها نذير ، وأن الله قد أرسل الى كل أمة رسولا بلسان قومه . وهناك آيات قرآنية عديدة توضح هذه القضية بجلاء . ثم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عامة للناس جميعا وليس للعرب فقط - كما يزعم هورجرونيه - . وفى أول اعلان جهرى بالدعوة أعلن محمد صلى الله عليه وسلم أنه أرسل الى العرب خاصة والى الناس كافة . وجاء ذلك فى الوحى المكى أيضا فى قوله تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (سبأ ٢٨) . وفى قوله تعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧) .

انها من جنس بعثة موسى وعيسى واسلافهما ، فقد ادى به ذلك بطبيعة الحال الى نتيجة مؤداها ان اليهود والمسيحيين قد فسروا الوحى الذى لديهم تفسيرا سيئا . وعليه اذن أن يقوم بواجب تصحيحهم ! وتلك مهمة صعبة لمن لم يستطع ان يقرأ كتبهم المقدسة ، وكانت لديه ايضا فضلا عن ذلك مفاهيم مشوشة عن طبيعة هذه الكتب وعن مضمونها (٨٣) .

وفى الفترة الثانية من نشاطه شرع محمد ايضا شروعا حقيقيا فى التعرف بعض الشىء عن قرب على التاريخ التقليدى الموروث للوحى السابق ، وحصل - مع بعض التغييرات الضرورية - على ما أمكن أن يخدمه فى التحرر من اليهودية والمسيحية اللتين استشهد بهما فى السابق اكثر من مرة على حقيقة بعثته ، ولم يكن فى ذلك الاستشهاد شىء من الحكمة (٨٤) .

ولن نقف عند المراحل الجزئية لعمليه التحرر هذه ، وسنقتصر على اثبات ان محمدا لم يتوصل الى حل المشكلة دفعة واحدة ، بل تم ذلك بالتدريج شيئا فشيئا . ففى حين كان ابراهيم يعد فى الوحى السابق [الذى نزل على محمد] واحدا من أسلاف محمد العديدين فحسب ، يصبح الآن [بالنسبة لمحمد] رائده ومثله الأعلى على الاطلاق . وقد استمد ابراهيم هذه المنزلة العالية لدى محمد من امرين توصل محمد الى معرفتهما أولا فى المدينة . الأمر الأول يتمثل فى أن ابراهيم - الذى يقدسه اليهود

---

(٨٣) لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى حاجة الى قراءة كتب اليهود والنصارى ولم تكن لديه معلومات مشوشة عن تلك الكتب ، لأن الله الذى أنزل التوراة والانجيل هو نفسه الذى أخبر محمدا عن طريق الوحى بما طرأ على هذين الدينين من تحريف وتبديل ، وبين له طبيعة هذا التحريف .

(٨٤) ما يقوله هورجرونيه فى كل تفصيلاته حول موضوع علاقة محمد صلى الله عليه وسلم باليهودية والمسيحية مبنى على افتراض أن الاسلام دين بشرى تفتق عنه ذهن محمد صلى الله عليه وسلم . ومن هنا نجد هذا الجرص الشديد على تفسير كل شىء من هذا المنطلق . وبناء على هذا الفرض الذى يعده المستشرقون حجة مسلمة . فالأمر اذن يدور حول رفض مسبق للاسلام بوصفه دينا سماويا . وهذا الرفض ليس له من علاج الا دراسة الاسلام دراسة نزيهة محايدة دون أن تكون هناك أوهام وتصورات أو أحكام سابقة .

والمسيحيون بنفس الطريقة بوصفه رجل الله ــ لم يكن يهوديا ولا مسيحيا(٨٥). وكون محمد قد جعل اصطفاءه مرتبطا ارتباطا وثيقا بتلك الأبوة مكنه من تفادى اتهامات اليهود الذين رموه بأنه لم يراع شريعتهم مراعاة تامة ، واتهامات المسيحيين ايضا الذين عارضوه بعقيدة الخلاص عن طريق المسيح وحده .

أما الأمر الثانى فقد كان يتمثل فى أن محمدا قد عرف أن الكتاب المقدس قد جعل من ابراهيم الأب الأول للعرب . وهكذا كان محمد يميل بطبيعة الحال الى الاستناد الى ابى الجنس الذى ينتمى هو اليه . وقد وصف محمد نفسه من الآن فصاعدا بأنه ذلك النبى الذى جاء لاكمال العمل الذى بدأه الأبوان ابراهيم واسماعيل . فالاسلام الذى دعا اليه محمد كان هو نفسه تماما ذلك الذى دعا اليه ابراهيم . وقد كان ابراهيم ــ الأب الأول للعرب ــ مثل محمد تماما مسلما وحنيفا . ولكن ابراهيم لم يكن بالنسبة لمحمد المحرر من اليهودية والمسيحية فحسب ، فقد خدم النبى الأب محمدا ايضا فى ادخال طقوس العبادة المكية فى الاسلام بعد ان خلصها من بعض المراسم التى تكشف بوضوح عن اصل وثنى .

وكان ابراهيم قد دفع باسماعيل وأمه الى بلاد العرب . وفى وسع المرء اذن أن يفترض أنهما قد جاءا الى مكة واسسا الكعبة هناك بناء على أمر الهى . وهذا الافتراض يتضمن بطبيعة الحال ان نسل اسماعيل قد افسد بصفة عامة العبادة والدين بطريقة مزعجة .

ان صلات محمد باليهودية والمسيحية ــ كما وصفناها هنا ــ وتاريخ تطور اسطورة ابراهيم فى عقل محمد بصفة خاصة ، كل ذلك يستبعد الآن تماما الرأى الذى يذهب الى القول بأن دعوة محمد قد استندت الى جماعة الحنفاء الذين كانوا من قبله يدعون الى شىء من اليهودية والمسيحية تحت اسم دين ابراهيم(٨٦) .

---

(٨٥) لم يكن ذلك معرفة توصل اليها محمد ، بل كان وحيا قرآنيا جاء فى قوله تعالى : « **ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** »(آل عمران ٦٧) .

(٨٦) لقد ورد ذكر ابراهيم عليه السلام فى القرآن فى تسع وستين **موضعا** ، منها اثنتان وثلاثون مرة فى آيات مكية وسبع وثلاثون مرة فى آيات

وبعد ان وصف سنوك هورجرونيه صلات محمد باليهودية والمسيحية يطرح السؤال عن الدافع المحدد لبعثته النبوية

لقد كان المرء فى السابق يرى بطريقة عامة ان محور دعوة محمد يتمثل فى كفاحه ضد الوثنية لصالح (عقيدة) التوحيد الصارم. ومن المؤكد – كما يرى سنوك هورجرونيه – أن وحدة الله كانت تمثل أحد الأعمدة الرئيسية للاسلام ، وقد نالت هـذه العقيدة فيما بعـد اهمية متناميـة باستمرار . ولكن الحماس للدفاع عن الوحدة الالهية ضد الوثنية وضد التثليث الخ لم يكن بالنسبة لمحمد هو الدافع المحدد لبعثته النبوية . فقد كانت هناك بالأحرى منذ البداية فكرة احتلت مكان الصـدارة من تفكيره وسـلوكه وهى فكرة يوم الحساب . فالأمر الذى كان يقلقه هو الاقتناع بأن الناس جميعا سوف يضطرون فى يوم من الأيام للمثول امام الله للحسـاب وأنه لن يكون امامهم مخرج آخر غير باب النار أو باب الجنـة (٨٧) .

مدنية . وقد جاء الأمر باتباع ملة ابراهيم أولا فى أية مكية فى قوله تعـالى : **« ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا »** (النحل : ١٢٣) ، وتكرر هذا المعنى فى أكثر من آية مدنية ، مثل قوله تعالى : **« ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل »** (الحج : ٧٨) ، وقوله تعالى : **« قد كانت لكم أسوة حسـنة فى ابراهيم والذين معه »** (المتحنة : ٤) . أما بنـاء الكعبة فقد تم على يد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، كما ورد فى ذلك فى قوله تعالى : **« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل »** (البقرة : ١٢٧) .

ويريد هورجرونيه كعادة غالبية المستشرقين أن يصور علاقة محمـد بابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بأنها أسطورة كانت تدور فى عقل محمد صلى الله عليه وسلم انطلاقا من زعمه الباطل بأن القرآن ليس وحيا حقيقيـا من عند الله .

(٨٧) الايمان بالله الواحد الذى لا شريك له مرتبط ارتباطا وثيقا بالايمان باليوم الآخر . والقرآن الكريم يربط باستمرار بينهما . فالايمان باليوم الآخر ينبنى على الايمان بالله ، ولا يتصور ايمان باليوم الآخر دون الايمـان بالله . يقول الله تعالى : **« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ... »** (البقرة : ١٧٧) . وقد ورد تعبير الايمان باليوم الآخر مسبوقا بالايمان بالله فى كل المواضع القرآنيـة التى ذكر فيها اليوم الآخر .

وقد كانت هناك فكرتان تتنازعان فى عقله على السيطرة : فمن ناحية كانت هناك فكرة محكمة عامة للناس جميعا بعد بعث الأموات ، ومن ناحية أخرى كان هناك الخوف من المحاكمات الجزئية التى تتعرض لها من عصر الى عصر الشعوب التى تتمرد على رسل الله . وقد كانت هـذه الأفكار المتمثلة فى الكارثة النهائية وبعث الأموات والحساب والنار والجنة هى التى دفعت محمدا الى انعام الفكر والى النبوة . وقد عرضت أقدم الآيات القرآنية هـذه القضايا باثارة عاطفيـة تكاد أن تكون فى صورة وحشية . وقد اتخذت هـذه القضايا فيما بعد أشكالا أكثر ثباتا وأكثر تقليدية . وأخيرا عندما أصبح النبى على رأس جماعة تحتم عليه أن يقوم بتنظيمها ، وعنـدما توقف الصراع ضد الكفار فى محيطه ـ ظلت عقيدة العالم الآخر عنصرا أساسيا من عناصر الاسلام . ولكن التصوير المثير للعواطف بشأن يوم الحسـاب لم يعد يظهر فى الوحى المحمدى الا نادرا (٨٨) .

ان فكرة المحكمة الالهية ، التى كانت فكرة مشـتركة بين اليهود والمسيحيين . قد أرقت محمدا وأقضت مضجعـه اذن منـذ البـداية . ولكن اليهود والمسيحيين كانوا قد عرفوا عن طـريق الوحى يقينية يوم الحساب ، وليس هـذا فحسب ، بل عرفوا أيضا الأوامر التى أعطتهم

---

(٨٨) لم تكن هذه أفكار تتنازع فى عقل محمد كما يزعم هورجرونيه ، وانما كانت وحيا من عند الله . أما كون الحـديث عن البعث والحسـاب والجنة والنار الخ . قد جاء فى البداية فى صورة تثير العواطف وتهز القلوب فذلك يرجع الى أن القلوب كانت فعلا فى حاجة الى هذه الاثارة العاطفيـة نظرا لتحجرها وجمودها وانغلاقها . وقد سجل الوحى المكى ذلك فى قولـه تعالى : « **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهـم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل** » (الأعراف : ١٧٩) . ومن هنا كان حديث القرآن عن نهاية العالم ويوم القيامة بأوصاف الزلزلة والقارعة والراجفة والصاخة والطامة الكبرى وغير ذلك من أوصاف أخرى مماثلة . وبعد أن فتح الله القلوب الغلف والآذان الصم والأعين العمى ودخل الناس فى دين الله أفرادا وجماعات لم يكن القرآن فى حاجة الى تكرير نفس الأسلوب فلكل مقام مقال ، ولكن هذا الأسلوب سيظل أيضا قائما فى كل العصور للقلوب التى يصيبها الوهن وللعقول التى يعتريها الغرور وللنفوس التى يطرأ عليها النسيان ، فيكون علاجا ناجعا مستمرا لأمراض القلوب .

مراعاتها اليقين بأنهم سيكونون من الناجين فى يـوم الحسـاب . (اما العرب فلم يأتهم نذير) « لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك »(٨٩) .

ولم تكن المسـاواة التى اقرها محمـد بين الشـعوب أو الأجناس والطوائف الدينية تسمح له بالاعتقاد بأن وحيا من هـذا الوحى السابق (فى اليهودية والمسيحية) كان مقررا لشعبه او مقررا له هو . فكيف اذن يتجنب محمد وقومه العذاب المقيم ؟

لقد اجابت عن هـذه القضية الحياتية (المصيرية) آيات القرآن التى ينظر اليها بالاجماع على انها اقدم الآيات سواء من جانب المسلمين الأصوليين او من جانب النظرة النقدية أيضا .

فاذا اراد المرء ان يعتبر محمدا انسـانا قد اوحى اليه حقا من عند الله ، أو اذا أراد المرء أن يعتبر انه قد اعطى له حد ادنى فقط من الروح النبوى ، أو اذا أراد أن يعتبر ان الشيطان قد تلبسه أو أنه انسان هستيرى او مصاب بالصرع ، فان الأمر الذى لا جدال فيه انه كان لديه المزاج العقلى الخـاص الذى يدفع أناسا معينين الى انعام الفكر وتعذيب انفسهم بمسائل دينية الى ان يجدوا حلا لها . ولم يكن هناك فى المـاضى (بالنسبة لمحمد) احد من رجال الله استطاع أن يجيب عن الشدة والمعاناة التى اقضت مضجع محمد بوحى يشتمل على الحقيقة الواضحة عن البعث ويوم الحساب . والأمر الأقل من ذلك بكثير انه لم يكن هناك احد من امثال هؤلاء بين معاصريه . وقد اتى اليه الخلاص من أعلى ! وقد كان هو نفسـه معينا من قبـل الله لاخراج قومه من الظلمات الى النور !

واذا كان سنوك هورجرونيه قد اثبت بذلك ان فكرة يوم الحساب كانت تحتل مكان الصدارة فى دعوة محمـد فانه بذلك يكون قد قام بنقض دعوى جريمه التى تتمثل فى القول بأن محمـدا قد ظهر أولا بوصـفه من قبيل المصلحين الاشـتراكيين . وعلى الرغم من ذلك فان سنوك هورجرونيه يخصص فصلا أخيرا مستفيضا لمناقشة هـذا السؤال : هل كان محمـد اشتراكيا ؟

---

(٨٩) القصص : ٤٦ .

وفى البداية يقدم هورجرونيه اعتراضين عامين (ضد دعوى جريمه) :

١ ــ كيف لم تتجه معارضة المكيين على الاطلاق ــ بناء على شهادة القرآن القاطعة ــ ضد الزكاة التى كانت فى راى جريمه فى مقدمة دعوة محمد ، بل اتجهت المعارضة باستمرار وفى المقام الأول ضد عقيدة البعث ويوم الحساب ؟

٢ ــ هل كان محمد ــ فضلا عن ذلك ــ يدعو الى عقيدة يوم الحساب فقط لكى يجبر المكيين البخلاء على دفع الزكاة ــ حسب رأى جريمه ــ ؟

ألم يكن فى وسع محمد ان يجد لذلك حينئذ وسيلة افضل من تلك العقيدة التى لم يكن المكيون يؤمنون بها ، وهى عقيدة يقول عنها جريمه نفسه انها كانت اكثر النقاط ضعفا فى الاسلام الأصلى !

وحقيقة الأمر هى ان فرض الزكاة قد ذكر مع أمور أخرى دون أن تضاف اليه اهمية خاصة !

وهكذا يتضح من هذه النظرة العامة بطلان راى جريمه (٩٠) . ولكن هناك أسبابا خاصة تضاف الى ذلك : فكلمة الزكاة التى ترجمها جريمه **بالضريبة (Steuer)** لم تكن تعنى اطلاقا معنى الضريبة فى العصر الأول للاسلام قبل الهجرة ، بل كانت تعنى ممارسة اختيارية لفضيلة « البر والاحسان » . وقد تم بعد الهجرة فرض « ضريبة » معينة ، ولكن محمدا لم يكن يستخدم هذه الايرادات للتخفيف من عنت الفقراء ، بل كان ينفق منها وقت الحاجة على حملاته الحربية . وقد أصبحت هذه « الضريبة » أولا نظاما دائما فى عهد أبى بكر واضحت « عمودا » من أعمدة الاسلام ، واسهمت اسهاما كثيرا فى انتشار القوة الاسلامية (٩١) .

---

(٩٠) لايعجب المرء من مثل هذه التحليلات التى لا يكل معظم المستشرقين عن الجرى وراءها وعرضها بشتى الأساليب فى طلاء علمى زائف ، فهدفهم الرئيسى وشغلهم الشاغل هو محاولة طمس حقيقة الدين الاسلامى ، وأنى لهم أن يبلغوا هدفهم أو يصيبوا منه شيئا « **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** » (الصف : ٨) .

(٩١) منذ أن فرضت الزكاة فى السنة الثانية للهجرة وهى تمثل أحد الأعمدة التى يقوم عليها بنيان الاسلام . وما فعله أبو بكر رضى الله عنه =

وتعد « فضيلة البر والاحسان » فضيلة شرقية عامة ، وقد امتدحها اليهود والمسيحيون بوصفها فضيلة أساسية . ولكن القرآن يشهد فى بعض آياته بأن محمدا قد جعل من هذه الرؤية (العامة) رؤية خاصة به(٩٢) . وفضلا عن ذلك فانه اذا كان محمد قد دعا منذ البداية الى الزكاة بمعنى « الضريبة » ، واذا كان ـ كما يريد جريمه ـ قد جعل من هذه الضريبة منذ البداية فصاعدا العنصر الأساسى لدعوته ، فحينئذ يحق للمرء أن يعجب جدا لأن التراث المحمدى كله لا يعرف شيئا من مثل هذا النظام (الضريبى) فى بداية الاسلام ، وليس هذا فحسب ، بل ان مما يثير الدهشة أيضا أن المحمديين قد ظلوا عن قصد عمر هذه « الدعامة » من دعائم دينهم لأنهم بصفة عامة قد حددوا زمن فرض مثل هذه « الضريبة » أولا بعدالهجرة .

وعلاوة على ذلك فانه لا يوجد فى الوحى المكى وصف لهذا الشكل من اشكال الضريبة ، ولا يوجد بيان من النبى عن الطرق المفروضة لجمع واستخدام هذه الضريبة ، وليس هناك أيضا اقل القليل من الاشارة او التلميح لهذا النظام (الضريبي) . وقد وضع التراث المحمدى توقيت نظام « الضرائب » الحكومى بوضوح فى وقت متأخر (أى بعد الهجرة) .

وأخيرا كان يجب ان يكون مثل هذا الاجراء ، وهو الدعوة الاشتراكية لفرض ضريبة من الضرائب ، ناتجا من الظروف الكلية لمدينة مكة بوصفه نتيجة حتمية . ولكن هذا ايضا لم يكن هو الحال . صحيح

= لم يكن الا اقرارا وتأكيدا لذلك ودفاعا عنه . ومن هنا كان قوله بصدد مانعى الزكاة : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليه » . أما مصارف الزكاة فقد حددها القرآن الكريم فى آية مدنية فى قوله تعالى : « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم** » (التوبة : ٦٠) .

(٩٢) البر اسم جامع للخير ولكل فعل مرض ، ويدخل فى ذلك بطبيعة الحال الانفاق فى وجوه الخير . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** » (آل عمران : ٩٢) . وقد حث القرآن على البر فى العديد من الآيات يؤكدا ما لهذه الفضيلة من أهمية بالغة فى حياة المؤمن .

ان التناقض بين الغنى والفقر كان قائما ، ولكنه لم يكن (فى مكة) اسوأ مما كان قائما فى اى مدينة اخرى .

ويضاف الى ذلك ان محمدا كان يدعو فى مكة باستمرار الى الصبر والتحمل السلبى وانه لم يتحول من الدفاع الى الهجوم الا بعد الهجرة الى المدينة . وقد كان هذا اذن فى الوقت الذى اختفت فيه دعوته الاشتراكية - حسب رأى جريمه - وحلت محلها عقيدة دينية ميتافيزيقية .

وهكذا يتضح أن الفرضية الجديدة عن محمد الاشتراكى - التى قال بها جريمه - لا تتفق بأى شكل من الأشكال مع الوقائع ولا يمكن البرهنة عليها بأى حجة تاريخية أو غيرها من حجج اخرى . ولكن فيما عدا ذلك فان سيرة محمد لجريمه لا تختلف بأى حال عن المؤلفات السابقة ، غير انه قد تخللتها فى أماكن عديدة مزاعم جريئة ، الأمر الذى يعد آفة من الآفات لمؤلف من المؤلفات الشعبية . ولو كان قد قدم خلاصة دقيقة للعمل الذى بذل حتى الآن (فى مجال كتابة السيرة) لكان يمكن أن يكون ذلك أكثر ملاءمة بالنسبة لهذه الغاية .

اما القسم الثانى من سيرة محمد لجريمه ، والذى ظهر بعد القسم الأول بثلاث سنوات ، فانه يشتمل على « مقدمة فى القرآن » تناول فيها باختصار تاريخ نشأة القرآن وشكل السور القرآنية وتتابعها الزمنى . ولكن المضمون الأساسى لهذا المجلد يشكل « نسق علم العقيدة القرآنى » والذى سنعود للحديث عنه بالتفصيل عند حديثنا عن « تعاليم محمد » (ص ٢٠٠)(٩٣) .

وهناك قصور فى هذا الكتاب يتمثل فى ان جريمه لم ينتفع من الأحاديث الصحيحة التى تقدم تصورا اكثر حيوية واكثر تنوعا لروح الاسلام مما يقدمه القرآن الذى ينحو فى معظمه نحو التجريد(٩٤) .

---

(٩٣) هنا احالة الى ص ٢٠٠ من كتاب بفانمولر حيث يعرض بالتفصيل لما تضمنه كتاب جريمه من حديث عن علم العقيدة القرآنى .

(٩٤) علاقة السنة بالقرآن علاقة وثيقة ، فهى - كما يقول الامام الشاطبى : « راجعة فى معناها الى الكتاب ، فهى تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره » ولا تجد فى السنة أمرا الا والقرآن قد دل على معناه دلالة اجمالية أو تفصيلية . والسنة ليست قاضية على الكتاب وانما هى مفسرة له وشارحة لمعانى أحكامه . (راجع الموافقات للشاطبى ج ٤ ص ١٠ - ١٢) .

واذا كانت فكرة الاشتراكية تحتل مكان الصدارة فى هذا الكتاب الذى يقع فى مجلدين عن سيرة محمد ، وهى فكرة قام سنوك هورجرونيه بتفنيدها ببراعة ـ فان حديث جريمه عن محمد فى كتابه « تاريخ العالم فى صور مميزة » يأتى بفرضية جديدة يحاول اثباتها وهى الأصل العربى الجنوبى لأفكار محمد الدينية . ومن أجل هذا الغرض خصص النصف الأول كله من دراسته لبحث التاريخ الأقدم لبلاد العرب . وهنا نتعرف على التاريخ السياسى والحضارى لبلاد العرب القديمه الشمالية والجنوبية .

والآن فان الاقتباس من جنوب العرب لا يعد فقط أمرا محتملا ، بل هو أمر راجح الى أقصى حد . أجل ، فهناك فى عبادة الاسلام ، على كل حال أمور كثيرة مما كان فى بلاد العرب القديمة بقدر اكثر مما كان يفترضه المرء فى العادة .

ولكن الأمر الذى يعد بعيد الاحتمال جدا هو أن تكون التأثيرات العربية الجنوبية وحدها هى كل شىء . فالأحرى انه لا يجوز التغاضى عن التأثيرات اليهودية والمسيحية والفارسية . ويضاف الى ذلك أن مكة كانت مدينة لها صبغة عالمية لدرجة كبيرة ، ومن ناحية أخرى كان ظهور محمد أمرا غير عادى الى حد كبير (٩٥) .

ومن الطبيعى ان تتوقف التأثيرات العربية الجنوبية بالهجرة (الى المدينة) ، ومن هذه اللحظة فصاعدا فقد جريمه أيضا كل اهتمام بالتطور الدينى لمحمد . فكل شىء بعد ذلك يعد بالنسبة لجريمه مناورة سياسية لدجال امتهن الدين من أجل غايات دنيوية . وقد كان هذا الرأى عن محمد

---

(٩٥) الديانات السماوية تختلف فى طبيعتها عن الديانات البشرية . فهذه تخضع لمنطق التأثير والتأثر . ومن هنا يمكن البحث عن أصولها وفروعها فى حضارات وديانات قديمة . أما الديانات السماوية القائمة على الوحى الالهى فلا تخضع لهذا المنطق . وما يبدو فيها من تشابه يرجع الى وحدة الأصل الالهى . والوحى اللاحق يصحح ما طرأ على الوحى السابق من عناصر غريبة . وقد بين القرآن — وهو النص الدينى الذى لم تنله يد التحريف والتبديل باعتراف كثير من المستشرقين وعلى رأسهم رودى بارت صاحب أحدث ترجمة ألمانية للقرآن — بين ما طرأ على اليهودية والمسيحية من تصورات لم يتضمنها الوحى الأصلى ولا صلة لها بالوحى الحقيقى . ومنذ أن كشف القرآن عن ذلك والحملة مستمرة من أتباع هذين الدينين ضد الاسلام ، ولا تزال قائمة لاظهاره بمظهر الدين البشرى الملفق من ديانات وحضارات سابقة .

رأيا عاما شائعا فى السابق ولا يزال الآن ايضا قوى الانتشار . ولكن محمدا لم يكن يجعل هناك ابدا فارقا بين الأمور الدينية والأمور السياسية . فهو يريد الانسان كله . والارتباط السياسى هو النتيجة البديهية تماما للتحـول الى الاسلام ، والرعاية السياسية لأتباعه تعد جانبا اساسيا لنبوته . وايضا فان ضم الكعبة الى دائرة نظرته أو تأمله لا يعد مناورة سياسية ، بل يعد تطورا دينيا داخليا .

وفى مقال خاص نشر فى « مجلة الشرق الشهرية النمساوية » عـرض جريمه مرة أخرى « أصول دين محمد » باختصار . فبجانب اليهودية والمسيحية كان هناك دين قائم فى الجنوب العربى هو « دين الرحمانان » بناء على شهادات النقوش السبئية . ويحاول جريمه أن يصف هذا الدين من واقع النقوش وصفا دقيقا وان يبين صلته الوثيقة بدين محمد . ونتيجة لبحوثه يقرر جريمه ان الاسلام « لم يكن شيئا ولد فى رأس محمد ثمرة لتأمل أصيل دون اى تاثير من العالم المحيط به ، بل كان فى بداياته الأولى كما كان فى استمرار تطوره ـ طالما كان هذا التطور يحـدث على أرض مكة ـ متشابكا تشابكا وثيقا مع « دين الرحمانان » الجنوبـى العربى » .

وبصرف النظر عما اذا كان « دين الرحمانان » هذا لم يثبت اطلاقا انه كان دينا خاصا فانه يبدو أن جريمه هنا ايضا لم يقدر قيمة التاثيرات اليهودية والمسيحية الا فى اقل القليل . والأمر كله لا يعدو ان يكـون فرضية طريفة! (٩٦) .

* * *

١٣ ـ بـول (Buhl) :

فى حين يوجه جريمه أكبر الاهتمام لتصوير البيئة المحيطة بمحمد فان بول(٩٧) الذى لم يترجم ـ للأسف ـ كتابه الممتاز عن سيرة محمد الى

---

(٩٦) الأحرى أن يقال أنها فرضية باطلة تستهين بعقول الناس . فاذا كان دين الرحمانان هذا المزعوم لم يثبت اطلاقا ــ كما يقول بفانمولار نفسه ــ أنه كان دينا خاصا له كيان متميز فكيف يمكن أن ينتج عنه هذا الدين العالمى المتمثل فى الاسلام ؟

(٩٧) فرانتس بول (١٨٥٠ ــ ١٩٣٢) مستشرق دانماركى ، كان أستاذا للعهد القديم وللغات السامية . له دراسات اسلامية عديدة أهمهـا =

الألمانية ــ يوجه اهتمامه الى موضوع التطور الدينى لمحمد . فقد جمع بعناية فائقة ــ وانا اقرر هنا بكلمات (ك. هـ. بيكر) نظرا لأن الكتاب الأصلى لم يكن فى متناول يدى ــ جمع بين المراجع العربية والأوروبية، وناقش مشكلة بعد مشكلة بحرص وبغزارة فى الأسانيد جديرة بالتقدير . وبطبيعة الحال يقتفى فى الغالب اثر الثقات المعدودين ، ولكن نادرا ما يكون ذلك دون نقد وتمحيص .

ومما هو جدير بالاعتبار بصفة خاصة تحفظه ازاء فرضيات معينة من الفرضيات الحديثة الطريفة ، مثل تلك الفرضيات التى عرض علينا بعضها (فنكلر Winckler) (٩٨) بصفة خاصة فى ثوب مغر . وقد خصص كذلك قسما كبيرا من الكتاب للبيئة التى انحدر منها محمد ، اى للعالم العربى الوثنى . وفى حياة محمد ذاتها جرى بول تفرقة محمودة بين الأسطورة والتاريخ . وفى العرض الرائع المختصر لقضية المصادر الذى أورده بول فى نهاية الكتاب يجد المرء تعليلا للأسس التى راعاها بول فى كتابه .

أما بالنسبة لموضوع التطور الدينى ذاته فقد انتفع بول كثيرا بمقالة سنوك هورجرونيه (الاسلام De Islam) . وفى هذا الصدد نجد بول منصفا تماما لشخصية النبى . وهذا أمر يختلف تماما عن (موقف) جريمه الذى ظل النبى غريبا عنه داخليا .

وفى مقال لمجلة عالم الاسلام (The Moslem World) يقدم بول ــ على أساس كتابه الكبير عن سيرة محمد ــ عرضا مختصرا عن « أخلاق محمد بوصفه نبيا » يمتاز بدرجة كبيرة من الموضوعية .

وفى الكتاب التذكارى للاحتفاء بنولدكه يقدم لنا بول أخيرا « بعض إسهامات لنقد تاريخ محمد » وذلك فى قسمين :

١ ــ مقدمات معركة بدر . ٢ ــ الهجرة الى الحبشة .

* * *

=

كتابه عن « حياة محمد » الذى صدر فى كوبنهاجن عام ١٩٠٣ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الألمانية عام ١٩٣٠ ، ونظرا لأن بفانموللر قد ألف كتابه عام ١٩٢٣ فلم تكن الترجمة الألمانية قد ظهرت بعد الى حيز الوجود ، ومن هنا كان تعبيره عن الأسف لعدم ترجمة كتاب بول الى الألمانية .

(٩٨) فنكلر (١٨٦٣ ــ ١٩١٣) مستشرق المانى .

١٤ — مرجليوث (Margoliouth) (٩٩) :

اما مرجليوث فانه فى كتابه « محمد ونهضة الاسلام » قـد انتفـع بسلسلة من المصادر الجديدة التى لم تكن قد استخدمت حتى ذلك الحين . وفى ذلك تكمن قوته كما يكمن ضعفه أيضا — كما يقول بيكر — . فالصورة نجدها حية جدا فى كثير من الحالات ، ولكن المؤلف يأخذ فى حالات كثيرة جدا الكساء المعهود للمذاهب المتأخرة على أنه تاريخ . كما أن المشـكلة الدينية ، مثل التأسيس النفسى لعودة محمد الى طقوس العبـادة المتعلقة بالكعبة ونزعته الابراهيمية ، تتراجع لدى مرجليوث بشكل ملفت للنظر ، فى حين انه يتتبع بشغف ظاهرة الوحى لدى محمد ويقارنها بأقوال المذهب الروحى الحديث وبالمذهب المورمونى (Mormonism) (١٠٠) .

ويرى مرجليوث فى محمد دجالا ماكرا معدوم الضمير وسياسيا يخدع الآخرين بشعوذاته . وبذلك يسد مرجليوث على نفسه الطريق لفهم اخلاق محمد وتطوره (١٠١) فالكتاب اذن له مزايا كبيرة ، ولكن اخطاءه كبيرة ايضا . والشىء الممتاز يتمثل فى تلك الصور العديدة (التى اشتمل عليها الكتـاب) .

---

(٩٩) د . س . مرجليوث (١٨٥٨ — ١٩٤٠) مستشرق انجليزى معروف ، كان أستاذا للعربية فى جامعة أكسفورد منـذ عام ١٨٨٩ ، لـه دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه والأدب العربى وأصوله . وقام بترجمة الكثير من النصوص العربية ، كما قام أيضا بتحقيق عدد من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : محمد ونهضة الاسلام (١٩٠٥) والاسلام (١٩١١) وانتشار الاسلام (١٩١٤) وجنوب الجزيرة العربية والاسلام ، وأصول الشعر العربى (١٩٢٥) . وهذا البحث الأخير هو الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى كتابه عن « الشعر الجاهلى » عام ١٩٢٦ .

(١٠٠) انظر الهامش الذى سيأتى فى نهاية هذا البحث عن هذا المذهب عند الحديث عن ماير (Meyer) .

(١٠١) لقد كان بفانمولر محقا فى تعليقه على كلمات مرجليوث المسفة بأنه بذلك قد سد على نفسه الطريق لفهم أخلاق محمد وتطوره . فالعالم يجب أن يترفع عن مثل هذا الاسفاف ويرتفع الى مستوى المسئولية العلمية حتى يستطيع أن يرى الحقيقة كما هى دون زيف .

وقد كتب مرجيليوث ايضا مقالتين عن « محمد » احداهما فى دائرة المعارف البريطانية والأخرى فى دائرة معارف الدين والأخلاق . وتشتمل كلتا المقالتين أيضا على بيانات قيمة بالمراجع .

* * *

١٥ ـ جولدتسيهر (Goldziher) ومرحلة جديدة :

بدات هناك مرحلة جديدة فى مجال البحث فى حياة محمد عن طريق بحوث جولدتسيهر حول « تطور الحديث » . وقد اثبت جولدتسيهر عن طريق عدد وفير من الأمثلة القاطعة ان « الحديث » ليس تاريخا وانما هو رواسب تعكس ميول شتى التيارات والتيارات المضادة فى حياة الاسلام(١٠٢) .

واول من طبق هذه المعرفة بصورة حاسمة على حياة محمد كان (ليونى كيتانى Caetani)(١٠٣) صحيح ان انتاجه الضخم (انظر ص ٣٦ وما بعدها)(١٠٤) لا يتضمن سيرة لحياة محمد بالمعنى الدقيق ، بل يشتمل فقط على عمل تمهيدى لذلك عن طريق جمعه الواسع للمادة

---

(١٠٢) اجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ ــ ١٩٢١) مستشرق يهودى من أصل مجرى ، كان أستاذا فى جامعة بودابست . يعد من كبار أئمة الدراسات الاسلامية فى أوروبا ، كتب العديد من البحوث عن الاسلام باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية وغيرها . وقد شكك فى الأحاديث النبوية واعتبرها فى جملتها تعكس تطور الاسلام الدينى والتاريخى والاجتماعى فى القرنين الأول والثانى . وقد تلقف كثير من المستشرقين من بعده هذا الزعم وبنوا عليه الكثير من النتائج . ولسنا هنا فى معرض مناقشة هذه الدعوى التى تفتقد الأساس العلمى السليم ، فقد سبق أن ناقشها وفندها وبين تهافتها عدد من علماء المسلمين . راجع فى ذلك على سبيل المثال : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للدكتور مصطفى السباعى . أنظر أيضا كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ٩٩ وما بعدها .

(١٠٣) الأمير ليونى كيتانى (١٨٥٩ ــ ١٩٢٦) مستشرق ايطالى . له دراسات واسعة فى تاريخ الاسلام .

(١٠٤) يشير بفانموللر فى ص ٣٦ من كتابه الى كتاب كيتانى « حوليات الاسلام » فى تسع مجلدات ، وكتابه « دراسة لتاريخ الشرق » فى أربع مجلدات .

(العلمية) . وعلى اساس من هذا العمل التمهيدى تناول كيتانى العديد من الجزئيات المتعلقة بسيرة النبى بنقد أصيل وحاد ، وان كان فى بعض الأحيان أيضا يذهب فى النقد الى حد بعيد نسبيا . (قارن فى ذلك بوجه خاص النقد المفصل لتيودور نولدكه للمجلدين الأول والثانى فى « مجلة فيينا لمعارف الشرق » جزء ٢١ ص ٢٩٧ ــ ٣١٢) .

ولكن كيتانى كان ــ حسب قول نولدكه ــ منصفا تماما لنفسية محمد الفريدة . ويبين لنا كيتانى بصورة ممتازة ــ طالما كان ذلك ممكنا ــ كيف تحول الداعية المتحمس لله تحولا سريعا ، بمجرد ان استقرت اقدامه فى المدينة ، الى سيد دنيوى وسياسى عبقرى دون ان يحدث فى باطنه تصدع واع وحقيقى ، والأمر الهام أن محمدا أيضا فى شتى تنظيماته واعماله التى تجرح شعورنا الأخلاقى جرحا بالغا لم يفقد الوعى بانه اداة الله ، هذا الاله الذى هو نفسه لديه نقاط ضعف انسانى الى حد ما (١٠٥) .

* * *

١٦ ــ لامانس (Lammens) :

يتابع لامانس(١٠٦) كلا من جولدتسيهر وكيتانى . ونحن ندين بالفضل للامانس لتلك السلسلة الكبيرة من البحوث عن تاريخ محمد التى

---

(١٠٥) الاسلام دين ودنيا ، سياسة وأخلاق ، عقيدة وشريعة ، وهذا أمر لا يريد المستشرقون أن يفهموه . ثم ما هى تلك الأعمال التى صدرت من محمد وتجرح الشعور الأخلاقى لدى الأوروبيين جرحا بالغا ؟ وما هى نقاط الضعف الانسانى التى يريد أن ينسبها كيتانى الى الله عز وجل ؟ هذا كلام غريب لا سند له على الاطلاق من عقائد الاسلام وتشريعاته . فالاسلام جاء ليتمم الله به مكارم الأخلاق ، وتنزيه الله فى الاسلام عن صفات المخلوقين ومخالفته للحوادث من الأمور المشهورة التى لا تحتاج الى مزيد بيان .

(١٠٦) الأب لامانس (١٨٦٢ ــ ١٩٣٧) بلجيكى المولد فرنسى الجنسية انضم الى سلك الرهبنة عام ١٨٧٨ كان استاذا للعربية فى جامعة القديس يوسف فى بيروت التى تخرج فيها وتنقل شرقا وغربا ثم استقر فى بيروت وتوفى بها . وله دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه وقد أشار نجيب العقيقى الى عناوين بحوث لامانس فى ثلاث صفحات كاملة . وكتابات لامانس تتسم بالتعصب ضد الاسلام . وهذا أمر ليس غريبا على راهب يحاول أن يدافع عن دينه على حساب الاسلام .

تمتاز جميعها بحدة ذكاء رائعة واطلاع عظيم . ولكنها فى تشككها ازاء المصادر غالبا ما تذهب فى ذلك الى حد بعيد اكثر من اللازم .

وقد ناقش كل من نولدكه وبيكر (١٠٧) فى مقالات مطولة نتائج بحوث لامانس . وكان نولدكه – فى نقده المشار اليه لكتاب كيتانى – قد عارض التشكك المجاوز للحد من جانب لامانس . وتناول نولدكه فى مقالة خاصة بعنوان « الحديث وصلته بحياة محمد » (مجلة الاسلام ٥ ، ١٩١٤ ، ص ١٦٠ – ١٧٠) تناول اقوال لامانس بالتفصيل بنقد بالغ العمق . ويذهب نولدكه ايضا الى القول بأن التطور الداخلى لمحمد ، والذى ادى الى النبوة ، يظل بالنسبة لنا من الأمور الغامضة حقا ، كما اننا لا نعرف الا القليل عن فترة نبوة محمد المكية . ولكن الأحاديث تقدم لنا أيضا بعض الأمور اليقينية عن هذه الفترة . وبانتقال محمد الى يثرب نطأ أرضا تاريخية واضحة :

« وعلى الجملة فاننى اذا أردت ان الخص وجهة نظرى فاننى يجب ان اعبر تعبيرا حاسما ضد الرأى القائل بأن السيرة (اى الوصف العربى لحياة محمد) لم تكن الا مجرد ذيل أو ملحق لتفسير القرآن . انها كثيرا ما ترتبط بذلك برباط وثيق ، ولكنها مع ذلك مستقلة فى جملتها » .

وفى المجلد نفسه من مجلة « الاسلام » (ص ٢٠٥ – ٢١٢) يقدم نولدكه حديثا مفصلا ونقدا لكتاب لامانس الرئيسى « مهد الاسلام » الذى سنتحدث عنه بعد قليل بشىء من التفصيل .

وفى المجلد الخامس عشر من مجلة « ارشيف لعلم الاديان » قدم بيكر فى تقريره عن المراجع حول الاسلام بيانا مختصرا بمضمون البحوث المختلفة التى قام بها لامانس . وفى مقال خاص بعنوان « امور مبدئية لدراسة لامانس للسيرة » فى المجلد الرابع من مجلة « الاسلام » ناقش بيكر مرة اخرى مناقشة مبدئية آراء لامانس حول مصادر تاريخ حياة محمد .

---

(١٠٧) لقد سبق الحديث عن نولدكه فى هامش سابق . أما كارل هينريش بيكر (Becker) (١٨٦٧ – ١٩٣٣) فهو مستشرق ألمانى ، كان أستاذا فى هامبورج وبون ، له دراسات عديدة فى التاريخ الاسلامى . وقد أنشأ مجلة « الاسلام » الألمانية (Der Islam) عام ١٩١٠ .

وقد ابدى (شفاللى Schwally) (١٠٨) فى مواضع مختلفة من تنقيحه لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » (المجلد الأول ص ١٠١ وما بعدها ، والمجلد الثانى ص ٢٠ وما بعدها ، ص ٨٤ ، وبصفة خاصة ص ١٩٦ ـ ١٩٨ ، ٢١٤ وما بعدها) ـ ابدى رايه فى اهم مواقف لامانس ٠

وعلى أساس من هذه الانتقادات نعرض للحديث باختصار عن اعمال لامانس الرئيسية ٠

فدراسة لامانس التى عنوانها « مكة بوصفها مركزا تجاريا حوالى عام ٦٠٠ ميلادية » يقف فيها بصورة رائعة وعناية دقيقة على ظروف مكة الاقتصادية والسياسية عند ظهور النبى ٠

اما مقالته « القرآن والحديث ٠ كيف تمت كتابة سيرة محمد » فانها تقدم افضل نظرة توضح كيف يتصور لامانس نشأة شكل السيرة ٠ وفى هذه المقالة يرى لامانس أن سيرة حياة محمد لا تقوم ـ كما يظن المرء غالبا ـ على مصدرين مستقلين هما تفسير القرآن والحديث النبوى ، بل ان المادة الحديثية كلها المتعلقة بحياة محمد وظهوره ليست شيئا آخر غير مادة تفسيرية مخترعة بشكل حر للاشارات القرآنية ٠ فالمصدر الوحيد اذن لحياة محمد ـ وليس لتعاليمه ـ هو القرآن ٠ وهذه الدعوى يعرضها لامانس بكثير جدا من الذكاء الحاد عن طريق الأمثلة الكثيرة ٠

ويرتبط بهذه المقالة ارتباطا وثيقا عمل آخر يتمثل فى بحثه عن « عصر محمد والترتيب الزمنى للسيرة » ٠ وهنا يبين لامانس اضطراب وضعف بيانات الترتيب الزمنى التى تبدو كأنها بيانات دقيقة والتى تشتمل عليها الأحاديث (النبوية) الاسلامية عن حياة محمد ٠ ويجب أن ننظر الى هذه البيانات على انها محاولة اجريت بوسائل غير كافية تماما من جانب علماء الخلف المقلدين الذين كانوا مهتمين بمسائل الترتيب الزمنى وقاموا بادماج الأحاديث الشفوية ـ النى تفتقد أصلا التحديد الزمنى الدقيق ـ فى قالب تاريخى ٠ ولا يريد لامانس أن ينكر احتمال أن تكون

---

(١٠٨) فريدريش شفاللى (١٨٦٣ ــ ١٩١٩) مستشرق ألمانى نشر كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى عام ١٩٠٢ واشترك فى نشر الطبقات لابن سعد ، وله دراسات فى القرآن والجغرافيين العرب وجغرافية مصر .

هناك على الأقل بعض ببانات جديرة بالتصديق فى هذا الترتيب الزمنى الذى هو فيما عدا ذلك مصنوع تماما(١٠٩) ٠

والكشف عنها (أى عن البيانات الصحيحة) هو مهمة بحث نقدى خاص ٠ ويريد لامانس أن يخفض مدة حياة محمد وعمره عند الأحداث الحاسمة عقدا من الزمان على الأقل — على عكس ما تقول به الأحاديث (١١٠) ٠

ويهتم لامانس ايضا بالسؤال القديم : « هل كان محمد مخلصا » ؟ ٠ ويعتقد لامانس — بناء على تحليل نفسى دقيق — أنه يتحتم الاجابة بالنفى على هذا السؤال(١١١) ٠

ويعبر لامانس فى بحثه « حكومة الثلاثة : أبى بكر وعمر وابى عبيدة » عن الافتراض بأن هؤلاء الرجال الثلاثة قد جمعوا شملهم قبل وفاة النبى ثم بعد وفاته على وجه اليقين لكى يمنعوا سقوط الدولة ، وأنهم اذن لم يكونوا متحمسين دينيين أيضا ، بل كانوا ساسة حصفاء(١١٢) ٠

---

(١٠٩) هدف الأب لامانس هو التشكيك والذهاب فى ذلك الى أبعد مدى . وقد لاحظ ذلك أيضا بعض المستشرقين المعتدلين نسبيا ورفضوا وجهات نظره المجاوزة للحد كما هو واضح من مناقشات كل من نولدكه وبيكر وشفاللى وملاحظات بفانمولر أيضا .

(١١٠) هذه نظرية غريبة لم يقل بها — فيما نعلم — أحد من المستشرقين ولا من غيرهم من قبل . ولعلها محاولة من جانب لامانس ليبنى عليها ما يريد أن يستنتجه من المزيد من التشكيك .

(١١١) لامانس حر فى أن يعتقد ما يشاء ، ولكنه ليس حرا حينئذ فى أن يحدثنا عما يعتقد باسم العلم فالعلم برىء من مثل هذه الأراجيف الباطلة . فحياة محمد صلى الله عليه وسلم ناصعة البياض فى كل جوانبها من بدايتها الى نهايتها . ولكنه منطق التعصب الذميم يعمى القلوب والأبصار عن رؤية الحقيقة .

(١١٢) عبثا يحاول المرء افهام المستشرقين بأنه لا انفصالية بين الدين والسياسة فى الاسلام ، فهناك اصرار على فرض مفهومهم للدين على الاسلام . ونحن من جانبنا لا نقبل هذا المفهوم لأنه مفهوم قاصر لا يأخذ فى اعتباره الا الجانب الروحى فقط من الانسان . والاسلام بتعاليمه جاء ليقيم التوازن بين كل جوانب الانسان الروحية والعقلية والجسمية . فمتى يدركون ذلك ؟

وقد تناول بيكر بالتفصيل دراسة مطولة أخرى للامانس حول موضوع « فاطمة وبنات محمد ، ملاحظات نقدية لدراسة السيرة » (مجلة الاسلام ، ٤ ، ١٩١٣ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٩) .

ويعترف بيكر عن طيب خاطر بالخدمات الكبرى للامانس فى مجال البحث النقدى لحياة محمد ويوافقه فى الحكم على التصوير الاسلامى لسيرة النبى ، فهذه السيرة ليست مصدرا تاريخيا مستقلا ، بل هى مأخوذة فى وقت متأخر من تفسير القرآن ومن الأحاديث المختلفة التى أتت نتيجة للميول العقدية والفقهية ، ونسقت تنسيقا بيوجرافيا ، فالسيرة اذن انتاج متأخر .

ولكن بيكر يؤكد ـ معدلا من حكم لامانس ـ أن هناك فى السيرة بجانب الكم الكبير من القصص المغرضة أخبارا عديدة لم يثبت انها مغرضة ، وتسمح يقينا باعادة بناء صورة تاريخية . ويتهم بيكر لامانس أنه بصفة خاصة لم يكن فى نقده منطقيا مع نفسه بقدر كاف ، بل كان يسلم بالصورة السيئة للمأثورات المغرضة الموجهة ضد على دون فحص ويأخذها على انها صورة تاريخية لدرجة تجعل تصويره يسقط فى عشوائية تامة .

وبعد كل هذه الدراسات التمهيدية قام لامانس فى كتابه الرئيسى « مهد الاسلام » ببيان الصورة التاريخية لنشأة الاسلام من المصـــادر وبتفصيل القول فى مجال هذه الصورة كله . واقتناعا منه بأهمية معرفة البيئة يخصص لامانس المجلدين الأولين ـ اللذين لم يظهر منهمـا حتى الآن الا المجلد الأول فقط ـ لوصف أماكن مولد الاسلام ، ووصف بلاد العرب الغربية وسكانها. وعلى اساس من الاطلاع الواسع الذى يحسد عليه فى كل انواع المراجع العربية القديمة ، التى سجل معلوماتها فى آلاف الهوامش ، استطاع لامانس أن يصف الأرض والناس فى الحجـاز فى عصر ظهور النبى وصفا حيا الى أقصى حد .

ويضع لامانس بين القسمين الرئيسيين للكتاب ـ حيث يصف اولهما الظروف الاقتصادية والطبيعية للبلاد ، ويصف ثانيهما حالة أوضـاع حياة القبائل البدوية (أما السكان القاطنون المستقرون فانه يصفهم فى المجلد الثانى) ـ يضع مناقشة جديرة جدا بالتقدير للدعوى الجديدة التى تذهب الى القول بأن الطقس قد تغير فى بلاد العرب تغيرا أساسيا فى زمن تاريخى . فالتحول المستمر للبلاد الى صحراء غير مأهـولة

بالسكان كان الدافع الحقيقى للفيضانات البشرية الكبيرة من جانب سكان « مجلس الشعوب » العربية الى بلاد الحضارة المجاورة ، وبصفة خاصة أيضا كان الدافع الحقيقى للفتوحات الاسلامية . (قارن 'يونى كيتانى ص ٣٧) (١١٣) .

ويعد لامانس خصما لدودا لهذه النظرية ، ويواجهها بصفة خاصة بحقيقة مؤداها ان تاريخ اقتصاد الحجاز يدل على أنه كان هناك مستوى عال لحضارة البلاد فى القرون السابقة مباشرة لظهور محمد ، ويدل على كل شيء آخر غير الاقفار العام والفقر الذى يمكن ان يدفع الى توسع عنيف .

ويمكن القول على وجه الاجمال بأن لامانس بمؤلفاته كلها قد جمع مادة (علمية) عظيمة لتاريخ حياة محمد ، تقدم لكل باحث - مع استخدام النقد الضرورى - اشارات ثرية .

أما أحدث تصوير انجليزى لحياة محمد من جانب كل من (كانون سل **Canon Sell**) و (درايكوت **G. M. Draycott**) فلم يكن فى متناول يدى . واستنادا الى ما يقوله (ت . ف . ارنولد **Arnold**) (١١٤) فان درايكوت لم يعتمد على المصادر ، ولم يعرف لا دين النبى نفسه ولا المؤلفات الأساسية عن الاسلام . (قارن : مجلة تاريخ الأديان ٨٠ ، ١٩١٩ ص ٢٨٣) .

* * *

---

(١١٣) يشير بفانموللر فى ص ٣٧ الى تبنى كيتانى للنظرية القائلة بأن الجفاف المتزايد فى بلاد العرب هو الذى دفع المسلمين الى الفتوحات الاسلامية واضطر السكان الى الهجرة.

(١١٤) لم نعثر فيما بين أيدينا من مراجع على ترجمة لحياة كل من سل ودرايكوت . أما السير توماس أرنولد (١٨٦٤ — ١٩٣٠) فهو مستشرق انجليزى كان أستاذا فى جامعة عليكره ولاهور بالهند ثم أصبح أستاذا للعربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى لندن . له دراسات اسلامية عديدة . وأهم مؤلفاته كتاب « الدعوة الى الاسلام » الذى ترجم الى العربية والتركية والأوردية .

خامسا : كتابات شعبية عن حياة محمد

١ – ريكندورف (Reckendorf) :

من بين المؤلفات الشعبية العديدة عن حياة محمد نذكر فقط كتاب « محمد واصحابه » من تاليف ريكندورف(١١٥) ، وكتاب « حضارة العرب » من تاليف يوسف هيل . وقد ظهر كلاهما فى مجموعة « العلم والثقافة » .

وريكندورف وان كان لم يقدم ترجمة حقيقية لسيرة محمد الا انه قد نجح بصورة رائعة فى توضيح الأسس الاجتماعية والحضارية والاقتصادية والسياسية والذاتية للاسلام فى بداياته بشكل مترابط .

ويتناول ريكندورف فى فصول اربعة (الموصوعات التالية) :

١ – قوة تأثير اعمال محمد ونشاطاته .

٢ – حروب محمد .

٣ – أصحاب محمد .

٤ – رئيس الدولة والرعية .

وفى فصل خامس يقدم لنا نظرة على تطور الأحداث بعد وفاة محمد . ويعقب ذلك ملحق يشتمل على ذكر اهم المراجع . ويستند عرض الموضوعات على القرآن بصفة خاصة ، ولكنه يعطى احيانا – رغم كل النقد – ثقة أكثر من اللازم للحديث . ومن بين الأخطاء التى يبرزها سنوك هورجرونيه بصفة خاصة فى نقده المفصل (المنشور فى جريدة الأدب الألمانى ١٩٠٧ عمود ١٣٠٩ – ١٣١١) بعض الأخطاء التى تتعلق بقصور المعرفة للقوانين العربية للأسرة .

***

---

(١١٥) هـ . ريكندورف (١٨٦٣ – ١٩٢٤) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للعربية فى فرايبورج . وقد صدر كتابه المشار اليه فى ليبتزج عام ١٩٠٧ .

٢ـ هيــل (Hell) :

ويقدم هيل أيضا فى الفصل الثانى من كتابه « حضارة العرب » صورة حية لحياة النبى وتعاليمه(١١٦) ٠

❋ ❋ ❋

٣ ـ كامبفماير (Kampffmeyer) :

فى اربع مقالات ـ تدل على خبرة علمية ـ كتبها كامبفماير(١١٧) لمجلة « العالم المسيحى » يصف القرآن باعتباره مصدر حياة محمد ، ويصف احوال بلاد العرب قبل الاسلام ، ويعرض تعاليم محمد ٠ (عقيدة البعث والحساب ووحدة الله والقضاء والقدر ومفهوم الوحى وتعاليم الأخلاق القرآنية) ٠ ويختتم مقالاته بنظرة على تطور الاسلام بعد ذلك ٠

❋ ❋ ❋

٤ ـ ريــم (Rehm) ، وفورتس (Würz) :

أما تصوير ريم لمحمد ولعالم الاسلام فى سلسلة مكتبة ريكلام العالمية فقد جاء شعبيا اكثر من اللازم،ولم يكن منصفا للحضارة العقلية للاسلام(١١٨) ٠

وفى «مجلة التبشير الانجيلى » (مجلد ٦٦ ، ١٩٢٢ ، ص ٢٧٢ وما بعدها) القى « ف٠فورتس » نظرة سريعة على « محمد وأعماله » ٠

❋ ❋ ❋

٥ ـ مايــر (Meyer) :

وفى النهاية نشير اخيرا الى تلك المحاولة الهامة التى قام بها ادوارد

---

(١١٦) يوسف هيل (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا بجامعة ارلانجن بألمانيا وله اهتمام خاص بالشعر العربى ٠ وقد ظهر كتابه « حضارة العرب » فى ليبتزج عام ١٩٠٩ثم أعيد طبعه عام ١٩١٩ ٠ وقد ترجمه الى الانجليزية خودابخش عام ١٩٢٥ ٠

(١١٧) ج ٠ كامبفماير (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للعربية فى ماربورج ورأس تحرير مجلة « عالم الاسلام » ، له دراسات فى الأدب العربى المعاصر ٠

(١١٨) ظهر كتاب ريم بالألمانية عام ١٩١٥ فى ليبتزج بعنوان : « محمد وعالم الاسلام » ٠

ماير(١١٩) فى استخلاص أوجه الشبه بين ظهور محمد ومؤسس طائفة المورمون جوزيف سميث(١٢٠) .

ويربط ماير أقدم سورتين — طبقا لما ورد بشانهما فى الأحاديث وهما السورة رقم ٧٤ والسورة رقم ٩٦ — يربطهما بالرؤى الروحية التى شهد بها النبى نفسه ، (مرة) وقت شعوره باصطفائه على جبل حراء ، (ومرة أخرى) عند « شجرة سدرة المنتهى » . ويفسر ماير شجرة سدرة المنتهى — متفقا فى ذلك مع اشبرنجر — بمكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك(١٢١) .

ويؤيد ماير الفهم القائل بأن كلمة « اقرأ » فى بداية السورة رقم ٩٦ يجب أن تفهم بمعناها الحقيقى وانها تنسحب على الوحى .

وبصرف النظر عن أن ماير قد ترجم الكلمة العربية « اقرأ » ترجمة خاطئة بمعنى (Lesen) (أى بالمعنى المعهود الذى تدل عليه الكلمة

---

(١١٩) ادوارد ماير (١٨٥٥ — ١٩٣٠) مستشرق المانى . وقد صدر كتابه عن « أصل المورمون وتاريخهم مع نظرة حول بدايات الاسلام والمسيحية » فى هاله بالمانيا عام ١٩١٢ .

(١٢٠) المورمون طائفة مسيحية ، أسسها فى الولايات المتحدة عام ١٨٣٠ جوزيف سميث (١٨٠٥ — ١٨٤٤) وادعى أنه يوحى اليه . وقد أسس المورمون عام ١٨٤٨ مدينة المورمون انتظارا لعودة المسيح . والسؤال الآن هو : أى أوجه شبه يريد أن يستخلصها ماير من مقارنته بين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤسس هذه البدعة الجديدة جوزيف سميث ؟ ان هذا ضرب من العبث واستهانة بعقلية القارىء الذى لا تخفى عليه أهداف هذا العبث الذى ليس له مبرر دينى أو أخلاقى .

(١٢١) وردت «سدرة المنتهى» فى سورة النجم فى قوله تعالى : «**ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى**»(النجم:١٣—١٥) والسدرة معناها شجرة . أما أنها سدرة المنتهى أى التى ينتهى اليها المطاف فجنة المأوى عندها ، أو التى انتهت اليها رحلة المعراج أو التى انتهت اليها صحبة جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أما أنها شجرة كانت فى مكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك ، فهذا أمر لا يمكن فهمه من سياق الآيات على الاطلاق . وليس له ما يبرره الا محاولة فهم الاسلام بانه مقطوع الصلة بالسماء .

وهـو القـراءة) ، فـى حـين أن المعنـى المقصـــود هـو « يتلو » (rezitieren) (١٢٢)ـ بصرف النظر عن ذلك فان مقارنته مفيدةومثيرة للاهتمام ، وان كان ايضا يجاوز الحد فى بعض الأحيان ٠

(قارن النقد المفصل الذى كتبه (يوهانز بيدرسين Pedersen) فى مجلة « الاسلام » ٥ ، ١٩١٤ ص ١١٠ ـ ١١٥) ٠

***

---

(١٢٢)كلمة « اقرأ» فى قوله تعالى : **« اقرأ باسم ربك الذى خلق »** (العلق : ١) تعنى القراءة لا التلاوة . ويؤيد ذلك ما ورد فى حديث بدء الوحى الذى رواه الامام أحمد والشيخان عن عائشة وفيه : « فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء » . فرده عليه الصلاة والسلام بقوله : « ما أنا بقارىء » يدل على أن المراد هو القراءة بمعناها المعهود ٠

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الثالث : سيرة الرسول فى تصورات الغربيين (١)
(٧٧ ـ ١٢٧)

الفصــل الرابع : سيرة الرسول فى تصورات الغربيين (٢)
(١٢٨ ـ ١٩٦)

الصفحة

* * *

الترقيم الدولى ٣–١١٠–٣٠٧–٩٧٧
رقم الايداع ٤١٦٥ / ١٩٨٧

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر / ٣ عطفة الدويدار بجوار جامع الأزهر